موسوعة

الإعجاز العلمى في الحديث النبوى

أ.د. أحمد شوقى إبراهيم

الجزء الثانى





خلق الإنسان

موسوعة
الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى

الجزء الثانى

أ.د. أحمد شوقى إبراهيم
زميل كلية الأطباء الملكية بلندن
استشارى الأمراض الباطنية والقلب
عضو اللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو»
رئيس المجمع العلمى لبحوث القرآن والسنة ج.م.ع
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم



اسم الكتاب :	موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى ـ الجزء الثانى ـ خلق الإنسان.
اسم المؤلف :	د. أحمد شوقى إبراهيم .
إشراف عام :	داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر :	الطبعة الأولى إبريل ٢٠٠٣
رقم الإيداع :	٥٦٣٥ /٢٠٠٣
الترقيم الدولى :	ISBN 977-14 -2109 - 3
الناشر :	**نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .**
المركز الرئيسى :	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة مدينة السادس من أكتوبر. **ت:** ٨٣٣٠٢٨٧ – ٨٣٣٠٢٨٩ **فاكس:** ٠٢/٨٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع :	١٨ ش كامل صدقى – الفجالة – القاهرة . **ت:** ٥٩٠٩٨٢٧ – ٥٩٠٨٨٩٥ . **فاكس:** ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ **ص.ب:** ٩٦ الفجالة – القاهرة.
الإدارة العامة :	٢١ ش أحمد عرابى – المهندسين – الجيزة. **Publishing@nahdetmisr.com** **ت:** ٣٤٦٦٤٣٤ – ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ **فاكس:** ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ **ص.ب:** ٢١ إمبابة
موقع الشركة على الإنترنت	**كافة إصدارات شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع تجدونها على موقع الشركة بالعنوان التالى** www.nahdetmisr.com **الرقم المجانى** 07775666

مقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ أما بعد . .

فإن رسول الله ﷺ كان موصولا بالوحى أبدًا ، وكان قرآنا يمشى على الأرض ، وكانت حياته الدين . لذلك نجد الحديث النبوى الشريف سابقا بالحق دائما ، وبغير حدود .

وظهر من الفلاسفة العرب من زعم أن الوحى كان ينزل على رسول الله ﷺ فى العبادات والشرعيات والمعاملات فقط ، أما ما كان من أمور الدنيا ، فكان النبى ﷺ يجتهد رأيه فيها كبشر . وكان يخطئ أحيانا فينزل الوحى يصحح له ما أخطأ فيه . وضرب على ذلك أمثلة تدل على جهلهم هم . وما أخطأ رسول الله ﷺ ، وإنما كان دائما ينطق بالحق ، ويحكم بالصواب ، وإنما كان الوحى ينزل إليه أحيانا بالأصوب ، والصواب لاخطأ فيه . ودليل ذلك أنه ما من شىء قضى رسول الله ﷺ فيه برأى ، ورجع عن ذلك الرأى . . ومن المعروف أن علوم البشر كانت فى تأخر كبير فى عصر نزول الرسالة ، وكانت أكثر النظريات العلمية مخطئة تماما . . وما ظهرت حقائق العلم إلا فى عصور العلم الحديثة ، إلا أن الحديث النبوى ذكر من حقائق العلم الكثير ، مما لم يكتشف إلا حديثًا . . وكثير من تلك الحقائق لايعرف إلا بالميكروسكوب ، قبل أن يخترع الميكروسكوب بألف عام ، مما يقطع بأن الرسول ﷺ ما كان ينطق إلا وحيا ، وما كان يقول إلا حقا .

وفى الباب الأول من هذا الكتاب ، ذكرنا أمثلةً من طلاقة قدرة الله عز وجل ، ومظاهرها فى هذا الكون . أما فى الباب الثانى فذكرنا كيف بدأ الخلق فى الكون ، وكيف خلقت السماوات والأرض فى ستة أيام ، وكيف كان ترتيب ظهور المخلوقات فى السماوات وفى الأرض .

أما الأبواب الستة الباقية ، فقد جعلناها خاصة بحقائق خلق الإنسان . وبدأنا بخلق آدم ، وما أعقب خلقه من أحداث . . وكان آدم هو الإنسان الأول فى هذا العالم ، ولم يكن قبله إنسان . وكان اكتشاف علماء الوراثة لجينوم الإنسان هو السبيل العلمى لفهم فطرة الخلق التى فطر الله خلقه عليها ، فَهْمًا علميا صحيحا ، لم يكن متاحا لمن سبقنا من العصور ، ومهد الطريق للعلاج الجينى ولعمليات الاستنساخ ، ولفهم أسرار علم الأجنة . وفى الباب الخامس بدأنا نستعرض حقائق العلم فى خلق الأجنة ، بناءً على الاكتشافات العلمية الحديثة ، فى ضوء الحديث النبوى الشريف .

وناقش الكتاب قضية الجبر والاختيار ، تلك القضية التى اختلف فيها العلماء والفلاسفة كثيرا ، ولو تدبر هؤلاء القرآن والحديث النبوى لوصلوا إلى الرأى الصحيح . وشاءت إرادة الله عز وجل أن يبدئ كل خلق حى من خلقه ، فى ظلمة حسية ، كما فى خلق الإنسان فى رحم أمه فى ظلمات ثلاث ، وأشار الحديث النبوى الشريف إلى الظلمة المعنوية ، وهى ظلمة الكفر والضلال ، التى لن يخرج الإنسان منها إلا بالاستعانة بنور الله تعالى ، وهو الهداية والإيمان .

وتنتهى أطوار خلق الإنسان فى الحياة الدنيا ـ إن طال به العمر ـ إلى طور الشيخوخة . وهو طور الضعف والعجز . . وناقشنا قضية الشيخوخة فى إيجاز شديد ، على أساس من الاكتشافات العلمية الحديثة ، وفى ضوء الحديث النبوى الشريف .

وعلى مر العصور تحدث الفلاسفة والعلماء عن النفس والروح والعقل ، واختلفوا فى الآراء ، وما توصلوا إلى الحقائق العلمية الثابتة . . لأن تلك الحقائق ، هى حقائق غيبية ، لاتخضع لأى علم تجريبى ، وليس لها من مرجع للعلم عنها إلا الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى .

واختتم الكتاب بالحديث عن آخر أطوار خلق الإنسان فى الدنيا وموته ، وما يحدث بعد ذلك من أحداث لجسمه فى تراب الأرض ، ومن أحداث لأعضاء جسمه فى الشهادة على صاحبها يوم البعث والحساب .

إن كل موضوع ناقشناه فى هذا الكتاب يمكن أن يكون كتابا مستقلا لو ناقشنا كل جوانبه وتفصيلاته ، إلا أننا اتخذنا منهجا فى تأليف (موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى) . أن نمر سريعا بالتفسير العلمى للحديث النبوى ، فى إيجاز ، حاولنا ألا يخل بالمعنى المطلوب . وكان هدفنا من عرض المواضيع العلمية فى إيجاز ، أن يكون عرض الكتاب سهلا ، وميسورا لمختلف مستويات العلم بين الناس ، فتعم الفائدة المرجوة ، ونظهر بجلاء الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى الشريف .

وسوف نواصل إن شاء الله كتابة الأجزاء الباقية من هذه الموسوعة . . ونسأل الله تعالى التوفيق .

المـؤلـف

أ.د. أحمد شوقى إبراهيم



الله عز وجل

الباب الأول

الله عز وجل

١ وكان عرشه على الماء

– أخرج الأئمة أحمد والترمذى وابن ماجه عن أبى رزين قال : قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال : «**كان فى عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء**» .

– أخرج الإمام مسلم عن ابن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ قال :

«**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**» .

– أخرج البخارى عن عمران بن حصين قال : كنا عند النبى ﷺ ، وإن قوما من اليمن دخلوا عليه وقالوا : جئنا نتفقه فى الدين . ولنسألك عن هذا الأمر ما كان فقال ﷺ : «**كان الله ولم يكن شىء غيره.. وكان عرشه على الماء. ثم خلق السماوات والأرض وكتب فى الذكر كل شىء**» .

أثبت علماء الفيزياء الكونية أن السماوات والأرض لها أول ولها آخر ، ولها بداية ولها نهاية . ولها زمن محدد خلقت فيه . . وبالتالى فهى مخلوقة ، وكل مخلوق له خالق ، وخالق السماوات والأرض هو الله تعالى الذى قال : ﴿**الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ (الفرقان : ٥٩) وقال تعالى أيضا : ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ (هود : ٧) .

﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ حقيقة لاشك فيها ؛ لأن الله تعالى ذكرها فى كتابه العزيز . وماذا نفهم منها؟ نفهم منها أن الله تعالى خلق الماء قبل خلق السماوات والأرض . فقوله تعالى ﴿وكان عرشه على الماء﴾ جملة اعتراضية ، تخبرنا أن الله تعالى عندما خلق السماوات والأرض كان الماء مخلوقا من قبل . أى إن الله تعالى خلق الماء قبل خلق السماوات السبع وما فيها من مجرات ونجوم .

وروى الترمذى ، والإمام أحمد ، وابن ماجه ، عن أبى رزين قال : قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال «**كان فى عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء**» .

قال يزيد بن هارون : العماء أى ليس معه شىء . . وفى لسان العرب : العماء هو السحاب الكثيف الذى يشبه الدخان . . وقال أبو عبيدة : المعنى أن الله تعالى كان حيث لاتدركه العقول ، ولا يبلغ كنهه وصف .

وفى رأينا أن كل هذه التفاسير صحيحة ، فلم يكن مع الله شىء . وكان الفضاء الكونى كله سديًا متصلاً يشبه الدخان ، كما أخبرنا الله تعالى فى سورة فصلت فقال : ﴿**ثم استوى إلى السماء وهى دخان**﴾ وكان الله تعالى حيث لاتدركه العقول ولا يبلغ كنهه وصف .

ثم يقول الحديث الشريف «ثم خلق عرشه على الماء» وعرش الله هو خلقه كله . أى خلق جميع المكونات على الماء . .

وأخرج مسلم عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**» .

وخمسون ألف سنة ليست بحسابات الزمن التى نعرفها ، أو السنوات التى نقيسها ونقسمها شهورا ، ولكنها سنوات لها حسابات أخرى ، وأزمان هى فى علم الله تعالى ﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ . (الحج : ٤٧) .

وقال : كألف سنة ولم يقل : «ألف سنة» . . فسبقت كاف التشبيه العدد ، ليدل على أن يوما عند ربك أكثر من ألف سنة مما تعدون . وإذا كان اليوم عند ربك أكثر من ألف سنة مما تعدون ، فإن الله تعالى قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . كلُّ يوم فيها أطولُ من ألف سنة مما نعد نحن من سنواتنا ، بل إن هناك أياما أخرى عند الله مقدارها خمسون ألف سنة أخبرنا الله تعالى عنها فقال :

﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ (المعارج : ٤) .

نفهم من بعض معانى الحديث النبوى الشريف أن الله عز وجل قدر مقادير خلقه ، وكان عرشه على الماء . وذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بزمن طويل جدا ، لانعلم نحن عنه شيئًا ، إلا ما أخبرنا عنه الحديث النبوى . . أنه خمسون ألف سنة . وهى سنوات لها حساب ومقاييس زمنية ، غير حساباتنا نحن للزمن .

وهذه الأحاديث النبوية المشرفة هى تفسير لقول الله عز وجل :

﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ (الحديد : ٤) .

ولكن الماء مخلوق أيضا . . ومادام مخلوقا . . فله بداية لخلقه . . وإن كانت سابقة على بدء خلق السماوات والأرض . . فكيف كان ذلك؟

ويعطينا الحديث النبوى الجواب . . فقد روى البخارى عن عمران بن حُصين قال : كنا عند النبى ﷺ وإن قوما من اليمن دخلوا عليه وقالوا : جئنا نتفقه فى الدين ولنسألك عن هذا الأمر ما كان فقال ﷺ : «**كان الله ولم يكن شىء غيره.. وكان عرشه على الماء.. ثم خلق السماوات والأرض. وكتب فى الذكر كل شىء**» .

قول رسول الله ﷺ «**كان الله ولم يكن شىء غيره**» يدل على أن الأزلية لله وحده . . وأن الماء لم يكن مع الله تعالى أزلا . . وإنما هو مخلوق له بداية لخلقه . . وله نهاية ينتهى عندها . . وأن الماء هو أول خلق الله تعالى فى هذا الكون . .

ولكن لماذا كان الماء هو أول ما خلق الله تعالى ، وقبل خلق السماوات والأرض وما بينهما؟ . . ذلك لأن الله تعالى قدّر أن يجعل من الماء كل خلق وكلّ شىء حى . فكان من البديهى أن يكون الماء أول خلق الله فى هذا الوجود . ولقد فهمنا من الحديث النبوى أن الله تعالى خلق السديم الكونى أو الدخان الكونى . وهو ما عبر عنه الحديث النبوى «بالعماء» . وكان مكونا من جسيمات من التراب والغازات وبخار الماء . فكان السديم الكونى وما به من مواد وبخار الماء يملأ الفضاء الكونى . . وكان هو المادة الخام التى خلق الله تعالى منها السماوات السبع والأرضين السبع بعد ذلك بزمن طويل ، قدره الله عز وجل واستقل بالعلم به .

فذلك قول الله عز وجل : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ . . وأية سورة هود هى الآية الوحيدة فى القرآن الكريم التى ذكرت ما كان موجودا ومخلوقا قبل بدء خلق السماوات والأرض ، وهو الماء .

ونتفكر فى خلق الله تعالى أكثر وأكثر . . فنفهم أن السماوات والأرض هى الكون الذى ندرك جزءًا منه بحواسنا . فندرك جزءاً من السماء الأولى التى نعيش فيها . والسماوات السبع والأرضون السبع ملكوت فى جوف ملكوت أعظم هو ملكوت الكرسى . كما أخبرنا الله تعالى : ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ (البقرة : ٢٥٥) ، والكرسى وكل ما فيه من خلائق وملكوتات ، لايكون شيئا مذكورا فى جوف ملكوت أعظم هو ملكوت العرش . فالعرش يحتوى كلَّ خلق وكلَّ ملكوت . ولما كان السديم الكونى الأول هو المادة الخام الذى خلق منه كل خلق وكل ملكوت ، وكان محتويا على الماء ،

أو أن الماء أهم مادة فيه ، فإن ذلك يعطينا تصورًا لمعنى قوله تعالى : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ . وجاء فى تفسير الزمخشرى فى الكشاف أن معنى قوله تعالى : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ أنه ما كان تحت العرش قبل خلق السماوات والأرض إلا الماء . إلا أننا لانتفق مع الزمخشرى فى تفسيره ؛ لأن الحديث النبوى الذى رواه ابن رزين يقول الرسول ﷺ فيه عندما سئل أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال : «**كان فى عماء ماتحته هواء ومافوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء**» . والعماء هو السديم الكونى الذى كان مخلوقا أولا ، والذى تكون الماء فيه باتحاد غازى الهيدروجين والأوكسجين . . والموجودين من ضمن غازات السديم . . ومن هذا السديم الكونى المحتوى على جسيمات التراب والغازات والماء خلق المجرات والكواكب والنجوم . لذلك بعد أن ذكر رسول الله ﷺ الحقيقة مجملة فى هذا الحديث الشريف ، عاد وذكرها مفصلة عندما سأله قوم من اليمن جاءوه ليتفقهوا فى الدين ويسألوه أيضا عن أول الخلق فقال لهم :

«**كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض، وكتب فى الذكر كل شىء**» . .

ولم يذكر القرآن العظيم ولا الحديث النبوى الشريف كيف كان هذا الماء الذى خلقه الله تعالى قبل خلق السماوات والأرض ، ولا كيف كان عرش الله على الماء ؛ وذلك لأنه علمٌ لايفيد الإنسان فى حياته الدنيا ولا فى آخرته . لذلك ذكر القرآن والحديث النبوى الحقيقة العلمية الكونية مجردة وبدون تفصيل . .

وما نناقشها ونتفكر فيها ألا لنتفكر فى خلق الله تعالى ، وبديع صنعه ، ومن باب الفضول العلمى أيضا . ولقد ظهرت حقائق علمية فى عصرنا هذا تعطينا تصورا لقوله تعالى : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ . . فلقد أجمع العلماء على أن الكون كان ممتلئا بالسديم الكونى قبل خلق السماوات والأرض ، وحدث انفجار كونى هائل سبَّب تكون المجرات والنجوم . ويجد العلماء فى الفضاء الكونى حتى اليوم بقايا من ذلك السديم الكونى ، وحللوه بواسطة آلات تحليل الطيف ، فوجدوه مكونا من جسيمات من التراب ، ومن الغازات المختلفة ، وجزيئات الماء . والسديم فى الكون كان متصلا غير منفصل كما قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** ﴾ (فصلت : ١١ ، ١٢) .

ويقول العلماء إنه قد ثبت لديهم حدوثُ انفجار كونى هائل جدًا فى ذلك السديم ، قدروا درجة حرارته بأكثر من خمسمائة مليون درجة مئوية . فتتت السديم الكونى المتصل . وتشتت السماء الدخانية ، وتكونت كتلٌ من السديم ، ما لبثت أن تفرقت عن بعضها البعض . كلٌ منها كون نجما ، وكلٌ منها كون لنفسه جاذبيةً وكواكبَ تدور حوله فى نظام مقدر من الخالق تبارك وتعالى . وما توصل إليه العلماء صحيح ، ودليل صحته أنه وافق ما جاء بالقرآن الكريم من حق كما فى قوله عز وجل :

﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأنبياء : ٣٠) .

﴿ **أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ (الأنبياء :٣٠) أى خلقا متصلا فشتتناهما وباعدنا بين أجزائهما . وقال ابن عباس : المعنى أن السماوات والأرض كانتا شيئا واحدا متصلا ، لا فضاء بينهما ، ففصل الله تعالى بينهما وباعد بين أجزائهما .

﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ . . ذُكرت هذه الحقيقة تعقيبًا على الحقيقة الأولى . لأنه بعد الفتق استقل كلُّ جرم كونى بمخزون الماء فيه ، الذى استمده من السديم الكونى . وجعل الله تعالى من هذا الماء كل شىء حى . فمخزونُ الماء فى كوكب الأرض مثلا كان أصلُه من السديم الكونى الأول الذى خُلق منه كوكب الأرض . وجعل الله تعالى من هذا الماء فى الأرض كلَّ شىء حى فيها .

٢ الله خـــالق الكون ولا شـــريك له

أخرج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال يحكى عن ربه تعالى فى الحديث القدسى :

«يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا حتى يقول له: من خلق ربك. فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته»

وفى رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**قال الله عز وجل إن أمتك لايزالون يقولون. ما كذا؟ ما كذا؟ حتى يقولوا هذا الله. خلق الخلق. فمن خلق الله؟**»

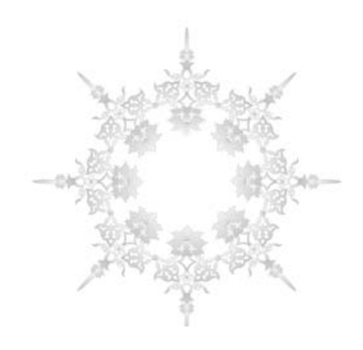
روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

«يأتى الشيطانُ أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا حتى يقول له: من خلق ربّك، فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته» .

إنه سؤال لايسأله إلا من لايؤمن بالله تعالى . ومنهم الماديون الجدليون . . فكأنما يريدون أن يقنعوا أنفسهم بأن الله تعالى مخلوقٌ وليس خالقا . . ونرد عليهم وعلى شيطانهم نقول لهم : إذا أردتم أن تجعلوا الخالق مخلوقا فلابد له من خالق آخر . . فإذا أردتم أن تجعلوا هذا الخالق الآخر مخلوقًا أيضا . . فلابد له من خالق . . وهكذا دواليك . . ولسوف تقفون فى النهاية عند خالقٍ واحدٍ أحد ، لم يكن قبله شىء ؛ فذلكم هو الله عز وجل . . فالإله لا يكون مخلوقا ، إلا ما زعمتم من آلهة من دون الله تعالى . فذلك قول الله عز وجل : ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾(الأنعام : ١٠١ - ١٠٣) .

إن كل فروع العلم أثبتت أن هناك نظامًا معجزًا يسود هذا الكون ، مؤسسًا على قوانين ثابتة ، وسنن كونية لاتتبدل ولاتتغير . فمن الذى أوجد كلَّ هذا النظام الكونى المعجز؟ ومن الذى خلق هذا الكون بكل ما فيه من خلائق؟ إنه الله عز وجل . هو الأول والآخر والظاهر والباطن . . وقد جادل بعض العلماء الماديين قديما وقالوا إن الكون نشأ مصادفة أى من تلقاء نفسه . وفى عصر العلم الحالى أثبت علم الرياضيات الحديثة استحالة نشأة الكون بطريق المصادفة والعشوائية . . وذلك بعد أن صار للمصادفة والاحتمال قانون رياضى أثبت أن الكون لم يُخلق عن طريق المصادفة ، ولابد له من خالقٍ قادرٍ مبدع حكيم .

نعم . . لايقول عاقلٌ إن المصادفة تخلق نظاما مبدعا . . وتنشئ قوانين محكمة ، ووحدة فى نظام الخلق منذ آلاف الملايين من السنين ، وحتى اليوم وإلى ما شاء الله . ولاشك أن وحدة نظام الخلق تدل على وحدانية الخالق وأنه (لا إله إلا الله) وليس هناك احتمال علمى آخر ، إلا أن يتبرأ الإنسان من العقل .



٣ مـــا قـــــدروا الله حق قـــــدره

– أخرج البخارى فى كتاب التفسير عن أبى هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه. ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟**» .

– أخرج البخارى وفى رواية عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «**إن الله يقبض الأرض ،أو الأرضين. وتكون السماوات بيمينه ثم يقول أنا الملك**» .

– وأخرج البخارى فى كتاب التفسير عن عبيدة عن عبد الله ﷺ قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد : إنّا نجد أن الله يجعل السماوات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلائق على أصبع ، فيقول : أنا الملك . فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ .

وذكر القسطلانى أن ضحكه ﷺ إنما هو للتعجب من جهل اليهودى ولهذا قرأ ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ .

– وأخرج مسلم برواية أخرى (**فرأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه تعجبا مما قال الحبر**) ثم أخرج مسلم حديث أبى هريرة مثل لفظ البخارى المذكور . وأخرج ابن ماجه حديث ابن عمر الذى رواه مسلم أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : «**يأخذ الجبار سماواته وأرضيه بيده، وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها**» ثم يقول أنا الجبار أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ويتمثل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن يساره .

وأخرج أبو داود فى سننه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**يطوى الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين ثم يأخذهن ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون**» .

السماوات والأرض ملكوت هائل من ملكوتات الله عز وجل . وهو محدود وله أول وله آخر لأنه مخلوق ومحيز بالزمان والمكان . ولكننا لانرى نحن له أولا ولا نرى له آخرًا . . ذلك لأنه كون كروى . . وهذا ما توصل إليه علماء الفيزياء الكونية حديثًا جدًا . فمهما سرنا فى الكون فلن نجد له أولاً ولن نجد له آخرًا . . لأننا نطوف فى كرة وفى دائرة مغلقة على نفسها ، وفى حلقة مفرغة .

والكون هائل جدا . . ومهما اجتهد علماء الفلك وعلماء الفيزياء الكونية فى النظر فيه ، فلن يشاهدوا إلا جزءًا يسيرا من السماء الأولى ، بما فيها من أرضين . . وتبلغ المسافات بين الكواكب والنجوم أبعادًا هائلةً جدا تقدر بملايين ملايين الأميال . . بحيث إذا حسبناها بالأميال اختلط علينا الأمر . . لذلك تُقاس المسافاتُ بين النجوم والمجرات بالسنوات الضوئية . . علما بأن سرعة الضوء تقدر بـ١٨٦,٠٠٠ ميل/الثانية . . أما فى السنة فإن الضوء يقطع مسافة تقدر بنحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ملايين مليون كيلومتر . وهناك مجرات تبعد عنا ليس بسنواتٍ ضوئيةً عديدة تقدر بملايين السنوات الضوئية ، بل إن هناك مجرات تبعد عنا عشرات الملايين من السنوات الضوئية . . وأكثر من هذا هناك مجراتٌ لم يصل ضوؤها إلينا بعد ، من يومٍ أن خلق الله تعالى هذا الكون منذ نحو خمسة عشر بليونا من السنوات كما يقدر علماء الفيزياء الكونية . . كل هذا فى السماء الأولى . . فما بالنا بالسماوات الست الأخرى؟ . . إن علمها عند الله عز وجل .

ومُلك الله تعالى ليس ملكوت السماوات والأرض (السماوات السبع والأرضين السبع) فحسب ، ولكن ملك الله تعالى أكبر من هذا بكثير . . فما السماوات السبع والأرضون السبع فى ملك الله تعالى إلا كحبة رمل فى صحراء واسعة . وما قَدرَ الناسُ الخالق تعالى حق قدره .

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ إنها حقيقة ذكرها القرآن الكريمُ فى آيات ثلاث ، فى سياق الحديث عن معان ثلاثة مختلفة . . نزلت هذه الحقيقة أولاً فى سورة الأنعام ، ثم نزلت بعد ذلك فى سورة الزمر ، ثم نزلت بعد ذلك فى سورة الحج .

أولاً: نزلت هذه الحقيقة فى قول الله عز وجل:

﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾ . (الأنعام : ٩١) .

أى وما عظموا الله تعالى حق عظمته ، فقد نسبوا إلى الله ـ جل جلاله ـ تجاهله لخلقه ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ما أنزل الله على بشر من شىء﴾ فلم يعظمه المشركون حق عظمته ، ولا عرفوه حقَّ معرفته ، إذ أنكروا عليه أن يُرسل رسولا .

ثانياً: نزلت هذه الحقيقة بعد ذلك فى قوله تعالى:

﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ (الزمر : ٦٧ ، ٦٨)

أى ما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضتُه يوم القيامة . والسماوات مطويات بيمينه . ثم نزه الله تعالى نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال : ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

كل ما نرى ونشاهد في السماوات جميعا سيطويه الله عز وجل قبيل يوم القيامة كطى السجل للكتب . .

ونشاهد جانباً من السماء وما فيها من خلال المناظير الفلكية . . وهو جزء صغير جدًا مما فى السماء الأولى . إلا أن كثيرًا من الناس لم يقدروا الله حق قدره ، فقد جاء إلى رسول الله ﷺ حبر من أحبار اليهود فقال : يا محمد . . إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السماوات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى وسائر الخلائق على أصبع ، فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾(الزمر : ٦٧) .

لأن كلام الحبر يدعو إلى العجب فعلا . . فهو خطأ على خطأ . . أخطأ أولاً أن جعل لله تعالى أصابع . وأخطأ ثانيا أن جعل تلك الأصابع المتفرقة تحمل شيئاً واحدًا . . فإذا كانت الأرضون على أصبع . . فإن سائر المخلوقات فى تلك الأرضين هى على نفس الأصبع . . فكيف تكون على أصابع متفرقة؟

والآية كناية عن قدرة الله عز وجل وإحاطته بخلقه جميعًا ، كما يقال : فلان فى قبضتى . . وهذه الأراضى تحت يدى . . وليس المقصود الجوارح ، وإنما المقصود التملك . وقوله تعالى :﴿ **وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أى الأرضون جميعًا كلُ كوكبٍ وكلُ نجم فيها .

وأخيرا نزلت حقيقة ﴿**ما قدروا الله حق قدره**﴾ فى سورة الحج ، فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ .(الحج : ٧٣ ، ٧٤)

أى ما عظموا الله حق عظمته . . وهم لا حول لهم ولا قوة . . ولا حول لمن يدعون من دون الله شركاء . وإن تسلبهم حشرة كالذباب شيئًا لا يستطيعون لها تحصيلاً ، ولا يستطيعون لها دفعًا . . فهم أضعف من تلك الحشرات التى خلقها الله عز وجل . ﴿ **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ .

٤ ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا

أخرج الإمام مسلم والأمام أحمد وغيرهما عن عبد الله الأغر . . وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعونى فأستجيب له، ومن يسألنى فأعطيه، ومن يستغفرنى فأغفر له**» .

ولقد اختلف العلماء فى تفسير هذا الحديث الشريف . فالإمام ابن رشد قال : (إن شريعة الإسلام مبنية على أن الله فى السماء ، ومنه تتنزل الملائكة بالوحى إلى الأنبياء والمرسلين . ومن السماء أنزلت الكتب . وجميع الحكماء اتفقوا على أن الله فى السماء . واتفقت جميع الشرائع على ذلك) واستدل الإمام ابن رشد على صحة رأيه بالجارية التى سألها رسول الله ﷺ أين الله؟ فأشارت إلى السماء . فقال ﷺ : هى مؤمنة . . فاعتقوها . . وقال إن الرسول وافق على قولها إن الله فى السماء .

إلا أن الإمام مالك بن أنس قال : «**من اعتقد أن الله تعالى فى جوف السماء محصور ومحاط به ، أو أن استواءه كاستواء المخلوقين فقد أخطأ**» .

وقال الإمام الشافعى : «**إن الله تعالى على عرشه فى سمائه يقرب من خلقه كيف يشاء**» .

وانقضى عهد السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وهم مجمعون على إثبات صفة العلو لله تعالى على الحقيقة وليس على المجاز ، أى إنهم اعتقدوا أن الله عز وجل فى السماء ، وأنه استوى فى السماء على عرشه .

وإننا إذا وضعنا التقدم العلمى فى عصر العلم الحالى فى خدمة التفسير والتأويل لاستطعنا أن نفهم قضية علو الله تعالى وقربه فهما علميا صحيحا . إن كوكب الأرض الذى نعيش عليه كوكب كروى الشكل ، ويدور حول نفسه أمام الشمس ، وبذلك يتتابع الليل والنهار على سطح الأرض ، ويولج الله الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل .

قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ (الحج : ٦١) .

والثلث الأخير من الليل يحل فى كل مكان على سطح الأرض ، وينتهى من مكان ليحل فى مكان آخر وهكذا بدون انقطاع . . ولاتوجد ساعة فى الأربع والعشرين ساعة من كل يوم إلا والثلث الأخير من الليل يكون فى مكان على سطح الأرض . فإذا قيل إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فى الثلث الأخير من الليل ، فمعنى هذا القول أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا دائما ، وأنه موجود فيها باستمرار ، وينتقل نزوله من مكان إلى مكان حيثما يكون الثلث الأخير من الليل ، ولاينتهى نزوله عن الأرض .

وأى عالم من العلماء فى عصر العلم الحالى يجد أن هذا التأويل فى حق الله محال ؛ لأن المكان والزمان والكون كله من خلق الله تعالى ، ومحال أن تجرى قوانين المخلوق على صفات الخالق وإرادته وأمره ، ومحال أيضا أن يحيز المخلوق خالقه . . من هذا الفهم يتضح لنا أن الله تعالى لايحيزه زمان ، ولايحيط به مكان ، فالله عز وجل فوق كل زمان وفوق كل مكان . وبالتالى لاينبغى أن يقال إن الله تعالى فى السماء كما قال الإمام ابن رشد رحمه الله ؛ لأن معنى ذلك أن السماء تحيز خالقها وهذا فى حق الله محال . إلا أن الإمام مالك بن أنس قال : من قال إن الله استوى فى السماء كاستواء المخلوقين فقد أخطأ .

والمعنى الصحيح أن الله عز وجل تتجلى رحمته على عباده فى الثلث الأخير من الليل ، أو تنزل إلى السماء

الدنيا ملائكته ، والله تعالى يستجيب لدعاء عباده واستغفارهم وتوبتهم فى الثلث الأخير من الليل حيثما كانوا على سطح الأرض . لذلك فإن رأى ابن رشد قد جانبه الصواب إذ قال : (إن شريعة الإسلام مبنية على أن الله فى السماء ، ومنه تتنزل الملائكة بالوحى على الأنبياء والمرسلين وأن جميع الشرائع اتفقت على أن الله فى السماء) .

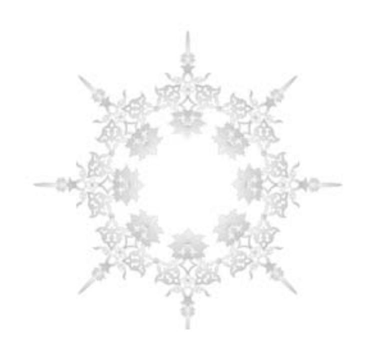
أما قوله إن رسول الله ﷺ لما سأل جارية أين الله؟ أشارت إلى السماء قال : هى مؤمنة . ليس معنى الحديث النبوى الشريف أن الله فى السماء ، وأن الرسول وافق الجارية على ذلك ، ولكن المعنى الصحيح أنها كانت وثنية تعبد الأصنام فى الأرض ، فلما أشارت إلى السماء دل هذا على أنها تركت الوثنية وآمنت بالله ، ودخلت الإسلام . لذلك قال رسول الله ﷺ : «**هى مؤمنة**» .

أما قوله تعالى : ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ**﴾ (الملك : ١٦) ، ليس المعنى أن الله فى السماء ، ولكن المعنى : أأمنتم من تتجلى قدرته فى السماء لا من تعظمونهم من آلهة تزعمونها فى الأرض ، أن يخسف بكم الأرض .

مما سبق ندرك أن الله عز وجل لايحيزه زمان أو مكان . . فلا يحيز المخلوق خالقه قط . . وكان الله عز وجل موجودا وحده أزلا ، ولم يكن شىء معه قبل خلق أى سماء أو أرض ، وقبل خلق أى خلق ، وليس من المعقول أنه تعالى لما خلق السماء حيز نفسه فيها !

ونحن نتفق مع رأى أكثر المتكلمين وبعض جماعات السلف الذين تأولوا الحديث النبوى تأويلين . . **الأول** : تأويل مالك بن أنس وغيره : أن رحمة الله تنزل فى الثلث الأخير من الليل وأن أمره يتجلى هناك ، ويستجيب الله تعالى لدعاء عباده . . أو تنزل الملائكة تستقبل دعاء التائبين واستغفار المستغفرين فيغفر الله لهم . كما يقال «فعل السلطان كذا» إذا فعله أتباعه بأمره .

والتأويل **الثانى** : أنه على الاستعارة ، ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف . . فالله عز وجل لاينتقل من مكان إلى مكان ، ولاينزل من زمن إلى زمن ، والذين قالوا ذلك أخطأوا خطأ كبيرا ، وما قدروا الله حق قدره .





بدء الخلق

الباب الثانى

بدء الخلق

١ كيف بدأ الخلق؟

أخرج البخارى عن ابن فُضيل عن عُمَارة عن أبى زُرَعَةَ أنه سمع أبا هريرة ﷺ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن ربه عز وجل يقول : «**قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة أو فليخلقوا حبة أو شعيرة**» .

وفى رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا حبة . وليخلقوا ذرة**» .

أى لا أحد أظلم ممن قصد أن يصنع ويقدر كخلقى . . والحديث النبوى الشريف فيه التحدى للكفار بأن يخلقوا أقل الأشياء إن استطاعوا ، ولن يستطيعوا .

كيف بدأ الخلق؟

منذ وجود الإنسان على هذه الأرض وهو يفكر فى هذا السؤال . ويحاول أن يجد له جوابا ، وظل يفكر ، ويسرح به الخيال ، ينظر إلى نفسه ويفكر كيف خُلق ، وينظر إلى الخلائق من حوله ويعجب لهذا النظام البديع فى الخلق ، ويفكر كيف بدأ خلقُ كلِّ هذا ، ويرفع بصره إلى السماء . . ويفكر . . كيف بدأ خلقُ السماء وما فيها من نجوم؟

وعلى مر العصور ظَهَر كثير من الأفكار عن كيفية بدء الخلق . وكانت أفكارًا ليس لها من الحق نصيب . وفى القرنين الماضيين ظهرت نظرياتٌ جديدة عن كيفية بدء الخلق . ولعل من أهمها : تلك النظريات التى زعمت أنَّ وجود الكائناتِ الحية ابتدأ فى مياه البحار البدائية . . وبدأ من مواد بروتوبلازمية تجمعت بطريق المصادفة .

لقد كان أساس تلك النظريات عن كيفية بدء الخلق هو أن الخلقَ بدأ بطريق المصادفة ، أى إنه نشأ هكذا مصادفةً وعشوائيةً . ولقد تحمس أعداءُ الدين لتلك النظريات تحمسًا شديدًا ؛ لأن معنى نشأة الخلق بطريق المصادفة أن الوجودَ أَوْجد نفسَه بنفسه ، أى إنه ليس مخلوقًا ، وبالتالى ليس له خالق ، فتحمسهم لهذه النظريات إنكار منهم لوجود الله عز وجل . . فأساسُ تلك النظريات أساسٌ إلحادىٌّ بحت . من هنا كان تحمسُ أعداءِ الدين لتلك الأفكار الضالة والنظريات الخاطئة .

ومن المؤسف أنَّ الكثيرين ممن آمنوا بهذه النظريات كانوا من أهلِ الكتاب . . ولكنهم من أهلِ الكتابِ بالاسم فقط .

والبعضُ منهم يحمل أسماءً إسلامية ، فهم مسلمون بالاسم فقط ، والإسلامُ منهم بَراء .

وإذا واجهناهم بالتوازن المتقن فى الخلق ، والنظام العظيم فى الكون ، عموا وصموا . . وصدق فيهم قولُ الله عز وجل :

﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ (الكهف : ٥٧)

لقد أجمعَ أكثرُ هؤلاء الناس على أنَّ الحياةَ بدأت فى البحار البدائية الأولى من مركبات عضوية . . وأنَّ تلك المركبات العضوية نشأت تلقائياً وعشوائياً ، ثم تحولت من تلقاء نفسها إلى مواد بروتوبلازمية ودبت فيها الحياةُ بعد ذلك .

إن المواد البروتوبلازمية كما اكتشف العلمُ الآن موادٌ مكونةٌ من الآلاف من الأحماض الأمينية . وكلُّ حامض أمينى مكونٌ من العديد من الذرات فى نظامٍ بالغِ الدقةِ بالغ الإعجاز ، وكلُّ نظامٍ لابد له من منظم ، وكلُّ خَلْقٍ لابد له من خالق .

إنَّ الناسَ الذين خرجوا بتلك النظريات لم يكونوا على علم بمكونات المواد البروتوبلازمية ، والتى لم تكن معروفةً فى زمنهم ، وإلا ما جرءوا على الزعم بخلقها مصادفةً . . وكلما تقدم العلمُ تشبث أعداءُ الدين بتلك النظريات أكثر وأكثر لأنها سلاحٌ بيدهم ضد الدين . . وبحثوا عن مبررات علمية عن نشأة الخلقِ تلقائيًا بدون خالق ، فقالوا : إن المواد العضوية نشأت نتيجة وجود غازات الميثين والأمونيا والنيتروجين فى الغلاف الجوى فى الأرض البدائية .

وهكذا ولأول مرة أقاموا نظريةً علميةً استندت إلى علم تجريبى ، وقاموا بإثباتها فى المعمل بتحضير تلك الغازات وإطلاق شرارةٍ كهربائية عليها ، فحصَلُوا على عددٍ من الأحماض الأمينية . . . وقالوا إنهم وجدوا الدليل العلمى على كيفية بدء الخَلق تلقائياً . . وافترضوا أن جو الأرضِ البدائية كان مكونا من تلك الغازات ، وحدثت طاقةٌ حراريةٌ هائلة على شكل شرارات أو صواعق هائلةٍ ، حوّلت تلك الغازات إلى مواد بروتوبلازمية فى البحار البدائية ، فنشأت منها الكائنات الحية جميعا . إذا استمع أحد من الناس إلى تلك النظريات فليعلم أنهم أخطأوا وفاتهم أشياء :

أولاً : لماذا لم يسألوا أنفسهم من أوجد تلك الغازات فى جو الأرض؟ من خلقها؟ . . إنه لابد لها من خالق .

ثانياً : ومن خلق الطاقة الحرارية الهائلة التى حولت تلك الغازات إلى مواد عضوية؟ . . إنه لابد لها من خالق .

ثالثاً : جو كواكب المشترى وأورانوس والزهرة مشحون بمثل هذه الغازات حتى الآن ، فلماذا لم تنشأ عليها الحياة؟

رابعاً : الأحماضُ الأمينية التى تكونت نتيجة التجارب كانت أحماضاً أمينية ميتة . . إنها مجرد تفاعلات كيميائية تجريبية .

خامساً : هم لم يشاهدوا بدء الخلق . فكيف يؤكدون حدثاً لم يروه ولم يشاهدوه؟! لقد سبق فى علم الله عز وجل أمر أولئك الضالين المضللين الذين ينكرون نشأة الخلق بقدرة الله تعالى وأمره ويتحدثون عن ذلك بغير علم وبغير هدى . فقال تعالى : ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ (الكهف : ٥١)

ما أشهدتهم : الضمير يعود إلى منكرى حقيقة الخلق ، وهم إبليس وذريته ، أو يعود إلى منكرى البعث من الناس الذين أزاغ الله قلوبهم ، فذرية إبليس من شياطين الجن . . ومنكرو حقيقة الخلق من شياطين الأنس . ووصفهم الله تعالى بالمضلين .

وبعد أن تكلمنا عن كيفية نشأة الخلق يبقى أن نناقش الزعم بنظرية الخلق بطريق المصادفة .

تعالوا بنا نطالع الحقائق العلمية عن تكون المواد العضوية الأولى فى الخلية الحية . . ونرى إن كان للمصادفة مكان فى خلقها أم إنه يستحيل أن يكون للمصادفة مكان فى ذلك ، وإنما هو من تقدير الله عز وجل وخلقه وأمره .

لقد جاءتنا الرياضيات الحديثة بالحل

فالمصادفة لم تعد افتراضاً . . وإنما صارت لها معادلات رياضية فى قانون رياضى اسمه (قانونُ الصدفة والاحتمال) . . يمكننا بهذا القانون الرياضى أن نميِّز بين إمكان وقوع حادثٍ من نوعٍ معين بطريق المصادفة ، وبين استحالةِ ذلك .

ويمكننا أن نفهم (قانون الصدفة والاحتمال) إذا ضربنا المثل الآتى : إذا وضعنا فى كيس أو علبة عشر أوراق . . وكتبنا على كل منها رقما من ١ إلى ١٠ . . ثم رحنا نخرج ورقةً ورقةً منها بطريق المصادفة ، بمعنى أننا نضع يدنا داخل الكيس . والورقة التى نجدها مصادفةً نُخرجها ونسجِّلُ رقَمها ، ثم نعيدها إلى الكيس ، ونخلطها بباقى الأوراق . . ونخرج ورقة أخرى بطريق المصادفة ونسجل رقمها ثم نُعيدها مرةً أخرى إلى الكيس وهكذا .

القانون الرياضى يقول : إن إمكانية أن نُخرج الورقة المكتوب عليها رقم ١ هى ١ من ١٠ محاولات . وإمكانية أن نخرج ورقتين متتاليتين تحملان رقم ١ ، ٢ بالترتيب هى ١ من ١٠٠ محاولة . وإمكانية أن نُخرج خمس ورقاتٍ متتاليات تحمل أرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ بالترتيب هى ١ من ١٠٠,٠٠٠ محاولة . . وإمكانية أن نُخرج عشر ورقات متتاليات تحمل الأرقام من ١ إلى ١٠ بالترتيب هى ١ من ١٠,٠٠٠ مليون محاولة . . هذه التجربة البسيطة تبين لنا كيف أن ترتيب الأرقام من ١ إلى ١٠ بطريق المصادفة والعشوائية يحتاج إلى نحو ١٠,٠٠٠ مليون محاولة .

فإذا علمنا أن الجزىء البروتينى الذى لا يُرى حتى بالمجهر الإليكترونى . . . هذا الجزىء مكون من آلاف الذرات مرتبةٌ ترتيبًا معينًا لايتغير أبدًا . . فأى نسبةٍ فى خلق الجزىء البروتينى تكون فى صالح (قانون الصدفة والاحتمال)؟؟ . . عالم رياضى مشهور يدعى تشارلز يوجين أراد أن يعرف ذلك بناء على (قانون الصدفة والاحتمال) . . فوجد بعد الدراسة أن خَلْقَ جزىء من بروتين بطريق المصادفة يتطلب مادةً يزيد مقدارُها ١٠٠٠ مليون مرة على المادة الموجودة فى الأرض . . وأن المحاولات إذا استغرقت كلُّ محاولة دقيقة واحدة ، فإن المحاولات التى يحتمل علميا أن يتكون فيها جزىء من بروتين ، هو رقم ١٠ وعلى يمينه **٢٤٣** صفرًا من السنين ، وهو مئات أضعاف عمر الأرض .

إذن فلا توجد مادةٌ فى الأرض ، ولا أضعاف أضعاف عمر الأرض ، يكفى لاحتمال مجرد احتمال خلق جزىء بروتين واحد بطريق المصادفة .

والأرض لم تُخلق إلا منذ نحو خمسة آلاف مليون سنة فقط . . والحياة لم تكن موجودة إلا منذ نحو بليونى سنة فقط . . فى خلال هذه المدة القصيرة نسبيًا خلق الله عز وجل فى الأرض «مائتى ألف» ٢٠٠,٠٠٠ نوع من النبات «ومائتين وخمسين ألف» ٢٥٠,٠٠٠ نوع من الكائنات البحرية الحية و «مائتين وخمسين ألف» ٢٥٠,٠٠٠ نوع من الكائنات البرية الحية . . إذن فهناك استحالةٌ علمية واضحة لخلق الكون بطريق المصادفة ، كما قال العالم الأمريكى مارلين كريدر : (إن الإمكان الرياضى فى توفير الأسباب اللازمة للخلق بطريق المصادفة فى نسبها الصحيحة هو فى حكم الاستحالة) .

٢ بـــــدء خـــــلــــــق الأرض

– أخرج الإمامان الترمذى فى سننه ، وأحمد فى مسنده عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال :

«لما خلق الله عز وجل الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت» .

– أخرج الأئمة البخارى وابن ماجه وأحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : **«اعبد الله كأنك تراه ، وكن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»** .

– أخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن اليهود أتت النبى ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض فقال ﷺ : **«خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق الأرض يوم الأحد ، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الإثنين ، وخلق الأنهار يوم الثلاثاء ، وخلق الشجر يوم الأربعاء»** .

– أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن جريج عن إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن ابن رافع مولى أم سلمة عن أبى هريرة ﵁ أن النبى ﷺ قال : **«خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين . وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة فى آخر الخلق ، وآخر ساعة من النهار ، فيما بين العصر إلى الليل»** .

بدأ خلق كوكب الأرض منذ نحو أربعة آلاف وخمسمائة مليون سنة .

وكانت الأرض فى أول خلقها كتلة من النار . . وكان سطحها بحرا متصلا من الصهارى المتحركة – أى الصخور المنصهرة – التى لا تستقر فى مكان . . وبدأت الأمطار الغزيرة تهطل على سطح الأرض ، وسرعان ما كانت تتبخر ، وتكون سحبا كثيفة جديدة ، تسبب المزيد من هطول الأمطار ، حتى بردت القشرة الخارجية للأرض ، وظهرت آلاف عديدة من البراكين الثائرة على سطح الأرض ، كانت السبب فى خروج كثير من الأبخرة والغازات من باطن الأرض ، وكانت السبب أيضا فى تكون الجبال البركانية على سطح الأرض . وبوجود تلك الجبال البركانية ابتدأت القشرة الأرضية تستقر . . فذلك الحديث النبوى الشريف : **«لما خلق الله عز وجل الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت»** ، أنه نفس ما حدث تماما منذ نحو ثلاثة آلاف مليون سنة على سطح الأرض ؛ مما يعد إعجازا علميا عجيبا فى الحديث النبوى الشريف .

وتبدأ الدراسة الجيولوجية لكوكب الأرض ، بعد تكون القشرة الأرضية والجبال . وبعد ذلك تتابعت الحقب الزمنية على الأرض . . وقسمها العلماء إلى خمس أحقاب تبعا لنوع الحياة التى كانت سائدة على سطح الأرض :

١ ـ حقب الحياة السحيقة (العصر الأركى Archeozoic Era)

حدثت تلك الحقب الزمنية الأولى منذ نحو ٢٧٠٠ مليون سنة ، واستمرت خمسمائة مليون سنة ـ حتى ١٢٠٠ مليون سنة ـ وفى هذه الحقب الزمنية تكونت البحار والقارة الأم وبعض النباتات .

٢ـ حقب الحياة الأولية Proterozoic Era

امتدت من ١٢٠٠ مليون سنة إلى ٥٥٠ مليون سنة . وفيها ظهرت الكائنات الحية وحيدة الخلية ، والنباتات الدنيئة فى البحار البدائية .

٣-حقب الحياة القديمة Palaeozoic Era

امتدت من ٥٥٠ إلى ١٩٥ مليون سنة . وظهرت فيها الأشجار والحيوانات البحرية وبعض الدواب على اليابسة .

٤ - حقب الحياة الوسطى Mesozoic Era

امتدت من ١٩٥ إلى ٦٠ مليون سنة وهو عصر الزواحف الضخمة .

٥ - حقب الحياة الحديثة Cenozoic Era

ابتدأت منذ ٦٠ مليون سنة إلى الآن . وهو عصر ظهور الثدييات وآخرها الإنسان .

وتعرف العلماء على هذه الحقب الزمنية بعد دراسات شاقة فى علوم الجيولوجيا والأحياء وعلم الإنسان .

ويقسم العلماء حقب الحياة الحديثة إلى ثلاثة عصور :

١ - **عصر المايوسين Miocene**؛ وبدأ منذ ١٩ مليون سنة . وظهرت فيه الحيوانات الأسفنجية .

٢ - **عصر البلايوسين Pliocene**؛ وبدأ منذ سبعة ملايين سنة . وظهرت فيه الحيوانات الشبيهة بالإنسان .

٣ - **عصر البلايستوسين Pleistocene**؛ وبدأ منذ مليون سنة . وفى هذا العصر خلق الإنسان ، آخر المخلوقات ظهورًا على كوكب الأرض .

ويقدر العلماء عمر الصخور عن طريق قياس عنصر الرصاص الموجود بالصخرة ، وقياس نسبة اليورانيوم الموجود فيها . وإذا علمنا أن كل جرام يورانيوم يتحول إلى $\frac{١}{٧٦٠٠}$ من الجرام من الرصاص كل عام ، فإنه يمكن معرفة عمر الصخرة بالمعادلة الرياضية الآتية :

$$\frac{\text{وزن الرصاص}}{\text{وزن اليورانيوم}} \times ٧٦٠٠$$

أما بالنسبة لتقدير عمر الأحفرة الصخرية الحيوانية Fossil فيمكن معرفة ذلك عن طريق دراسة إشعاع مادة الكربون ١٤ ، وهى مادة تتكون فى أجسام الكائنات الحية أثناء حياتها .

وأهم الأحافير التى درس العلماء أعمارها ، أحافير لعظام وجماجم ، تشبه عظام وجماجم الإنسان ، أو بعض أنواع القردة قريبة الشبه بالإنسان وتمشى منتصبة القامة مثله ، ولا يمكن أن نفرق بينها وبين الإنسان من دراستنا للأحافير ؛ لأن علم الوراثة لا دخل له مطلقا فى دراسة الأحافير ، لا من قريب ، ولا من بعيد ؛ لأن علم الوراثة يعمل فى مجال دراسة الشفرة الوراثية للخلايا الحية ، أو الخلايا التى لم يلحق بها البلى . فدراسة الأحافير لا تحدد نوع المخلوق بصورة مؤكدة .

والإنسان ينتمى إلى الفقريات (وتشمل الثدييات والطيور والزواحف والأسماك والبرمائيات) . . وقبل دراسة الخلية البشرية من الناحية الوراثية سنة ١٩٥٦م كان اعتقاد العلماء أن الإنسان انحدر من سلالة القرود ، اعتمادا على دراستهم للأحافير . . إلا أن علم الوراثة سنة ١٩٥٦ أثبت أن الشفرة الوراثية فى الخلية البشرية تختلف عن الشفرة الوراثية فى خلية القرود . . وبذلك ثبت علميا ثبوتا قاطعا أن الإنسان نشأ إنسانا وسيظل إنسانا ، وأن القرد نشأ قردًا وسيظل قردًا .

إن نظريات العلماء عن تاريخ الإنسان ، اعتمادا على دراستهم للأحافير ، هى مجرد مشاهدات وملاحظات

لا تصل مطلقا إلى مستوى الحقيقة العلمية . وقال بذلك أيضا علماء الأنثروبولوجى (علم الإنسان) مثل هيبل وغيره . واكتشف العالم الهولندى ديبوا أحفورة فى جاوة سنة ١٨٩١ اعتقد أنها للإنسان القرد ، وقدر عمرها بنحو ٨٠٠ ألف سنة . وهى لهيكل عظمى طوله أربع وعشرون ياردة ، يشبه الهيكل العظمى للإنسان . . ولايمكن التأكد من نوع خلقها من مجرد دراسة الأحفورة ، كما ذكرنا من قبل .

ومن دراسة العلماء للتاريخ الجيولوجى والحقب الحياتية التى مرت بكوكب الأرض يمكننا أن نعلم أن كوكب الأرض كان فى أول خلقه كرة من النار والصخور المنصهرة . . وظلت الأمطار الغزيرة تهطل عليه مئات الآلاف من السنين حتى بردت القشرة الأرضية ، وتكونت البراكين ومنها نشأت الجبال . ومن فوهات البراكين خرجت أبخرة كثيفة من باطن الأرض كانت السبب فى تكون السحب والأمطار الغزيرة . فالماء الموجود بالأرض الآن خرج من باطنها أصلا . وبعد أن تكونت الجبال تكونت البحار والأنهار ، وبذلك نبتت الأشجار فازدادت نسبة الأوكسجين فى جو الأرض ، وتوافرت سبل الحياة وأسبابها بها ، فظهرت الدواب ، وبعد ذلك ظهر الإنسان آخر المخلوقات ظهورًا على الأرض . . فهو الساكن الجديد لها . . وكل ما على الأرض من أحياء وجمادات هى سكان أقدم منه فى الأرض .

ولقد ذكر القرآن الكريم الحقيقة العلمية التى تقول إن كل ما على سطح الأرض من ماء خرج من باطنها فى أول الخلق . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** (٣٠) **أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** (٣١) **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** (٣٢) **مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ** ﴾ . (النازعات : ٣٠ ـ ٣٣) ، ولقد ذكر الحديث النبوى الشريف ترتيب ظهور المخلوقات على سطح الأرض من قبل أن يعلم العلماء عن ذلك شيئا بزمن طويل . فقد أخرج مسلم وأحمد عن ابن جريج ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن ابن رافع مولى أم سلمة ، عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

«**خلق الله التربة يوم السبت . وخلق فيها الجبال يوم الأحد . وخلق الشجر يوم الإثنين . وخلق المكروه يوم الثلاثاء . وخلق النور يوم الأربعاء . وبث فيها الدواب يوم الخميس . وخلق فيها آدم بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق فى آخر ساعة فيما بين العصر إلى الليل**» ، والأيام التى ذكرها الحديث الشريف هى من أيام الله تعالى فى هذه الأرض مما لانعلم نحن عنه شيئا .

ويخبرنا الحديث النبوى الشريف أن خلق الإنسان الأول كان طوله ستين ذراعا ، ثم ابتدأ طوله ينقص شيئا فشيئا عبر العصر . . وقد تكون أحفورة جاوة لأحد بنى آدم الأوائل وكان طوله ستين ذراعا .

وجاء ذكر هذه الحقيقة فى الحديث النبوى الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «**خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعا . ثم قال له اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة ، فأستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك . فذهب فقال السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فزادوه «ورحمة الله» . فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعا . فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**» .

٣ خلق السماوات والأرض فى ستة أيام

أخرج الإمام مسلم عن ابن جريج عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن ابن رافع مولى أم سلمة ، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال :

«خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة فى آخر الخلق ، وآخر ساعة من النهار ، فيما بين العصر إلى الليل» .

وأخرج الإمام أحمد فى المسند أن رسول الله ﷺ قال : **«إن هذا القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، ولكن ليصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فآمنوا به»** .

خلق السماوات والأرض

القرآن يقول : فى ستة أيام . .

والحديث النبوى يقول : فى سبعة أيام . .

هل هناك تعارض بين القرآن والحديث النبوى؟

فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم ذكر الله تعالى أنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام . فى (سورة فصلت) زاد الأمر توضيحا فقال : ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** ﴾ (فصلت : ٩ ـ ١٢) .

فهم بعض الناس من الآية الكريمة أن الله تعالى خلق الأرض أولا ، وبعد ذلك خلق السماوات . وفى (سورة النازعات) قال تعالى : ﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** ﴾ (النازعات : ٢٧ ـ ٣٣) .

وفهم بعض الناس من الآية الكريمة أن الله خلق السماء أولاً وبعد ذلك خلق الأرض ، وما عليها من أسباب الرزق . . وظنوا أن بين القرآن والقرآن تعارضا .

ولو تدبر الناس القرآن والحديث النبوى فى ضوء التقدم العلمى الحديث لما وجدوا أى تعارض بين القرآن والقرآن ، ولا أى تعارض بين القرآن والحديث النبوى .

وحتى نفهم ذلك نقسم مراحل خلق السماوات والأرض معًا إلى ثلاث مراحل ، ونضعها فى رسم بيانى :

	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة
المرحلة الأولى : أربعة أيام .	١	٢	٣	٤			
المرحلة الثانية : يومان .	١	٢	٣	٤	٥	٦	
المرحلة الثالثة : اليوم السابع .	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

المرحلة الأولى : أولاً : خلق السماوات والأرض معًا فى أربعة أيام كما ذكرت (سورة فصلت) .

المرحلة الثانية : ثم استوى الله إلى السماء وبناها ورفع سمكها فسواها كما ذكرت (سورة النازعات) .

المرحلة الثالثة : وأخيرًا : الحقب الحديثة فى خلق الأرض (بعد أن تم خلق السماوات والأرض فى ستة أيام) وذكرتها سورة النازعات ﴿ **وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** ﴾ .

والمرحلة الثالثة هى فى اليوم السابع على سطح الأرض .

كل هذه المراحل الثلاث تتزامن مع بعضها البعض

المرحلة الأولى : (أربعة أيام) فيها خلق الله تعالى الأرض وقدر فيها أقواتها ، وتقدير الله تعالى سابق على الخلق ويصاحبه . وبذلك نفهم المغزى العلمى فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ (فصلت : ٩ ، ١٠)

فإذا كان التقدير سابقًا على الخلق ويصاحبه ويتزامن معه ، فإننا نفهم أن خلق الأرض فى يومين يدخل فى الأيام الأربعة التى تم فيها تقدير الأقوات فى الأرض ؛ لأن أطوار الخلق يدخل بعضها فى بعض ؛ ولأن تقدير الأرزاق يدخل فى حيز التنفيذ يوم أن خلقت الأرض . وهذه المرحلة الأولى ـ أربعة أيام ـ جيولوجيا تبدأ بخلق التربة وتنتهى بخلق النباتات (التربة ثم الجبال ثم الأنهار والبحار ثم النباتات) .

والمرحلة الأولى : أشار إليها الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه ابن جرير والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : «**خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق الأرض يوم الأحد ، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الإثنين وخلق الأنهار يوم الثلاثاء ، وخلق الشجر يوم الأربعاء**» وذكرنا من قبل أنها من أيام الله الذى لانعلم عنها شيئا قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ** ﴾ (الحج : ٤٧) .

وقال أيضا : ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ (المعارج : ٤) .

المرحلة الثانية : وهى اليومان الخامس والسادس : وفيها كان بناء السماوات السبع بعد أن تم خلقها من قبل من دخان . كما قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾ (فصلت : ١١) إلى قوله تعالى : ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** ﴾ (فصلت : ١٢) ، وقال عنها فى سورة النازعات : ﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴾ .

ولقد ابتدأ خلق السماوات والأرض منذ أول المرحلة الأولى حتى نهاية المرحلة الثانية أى ستة أيام . ففى المرحلة الأولى خلق السماء وفى المرحلة الثانية بنى السماء ورفع سمكها فسواها . وقسمها إلى سبع سماوات .

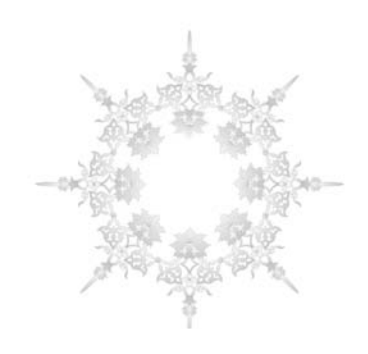
﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** ﴾ . . وبذلك كان خلق السماوات والأرض فى ستة أيام كما قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة : ٢٩) .

أما المرحلة الثالثة : وهى اليوم السابع . . وهو يوم حدث بعد خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، وهى المرحلة التى حدثت فيها حقب الحياة الحديثة فى كوكب الأرض Cenozoic Era جاء ذكرها فى سورة النازعات فى قوله تعالى : ﴿ **وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ** ﴾ (النازعات : ٣٠ - ٣٢) .

وفى آخر هذه المرحلة ظهر الإنسان . . وجاء ذكرها فى الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه مسلم عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : «**خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة فى آخر الخلق وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل**» . . نلاحظ أن الحديث النبوى الشريف يتحدث عن المراحل الجيولوجية والحقب الحياتية التى مرت بالأرض حتى اليوم ، وهى مراحل تتزامن مع خلق السماوات السبع والأرضين السبع فى ستة أيام . . إذن فلا تعارض بين القرآن والقرآن ، ولا تعارض بين القرآن والحديث النبوى ، وذلك أن كل آية ، وكل حديث إنما يتحدث عن وجه من وجوه الخلق ، ومرحلة من مراحله ، فلكية كانت أم جيولوجية ، أو فلكية وجيولوجية معًا .

وهنا نتذكر ما رواه الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال :

«**إن هذا القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، ولكن ليصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فآمنوا به**» .



٤ ترتيب ظهور المخلوقات على الأرض

أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ﵁ أن النبى ﷺ قال : «**خلق الله التربة يوم السبت . وخلق فيها الجبال يوم الأحد . وخلق الشجر يوم الإثنين . وخلق المكروه يوم الثلاثاء . وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس . وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، فى آخر الخلق ، وآخر ساعة من النهار ، فيما بين العصر إلى الليل**» .

ذكر الحديث النبوى الشريف ترتيب ظهور المخلوقات على الأرض من قبل أن يعلم العلماء عنها شيئا بأربعة عشر قرنا من الزمان ، مما يعد إعجازًا علميا عظيما ، ومما يدل على أن الرسول ﷺ كان يوحى إليه ليس فى العبادات والشرعيات فحسب ، ولكن كان يوحى إليه فى كل أمر من أمور الحياة الدنيا أيضا . يقول العلماء إن البكتريا النباتية أول النباتات التى ظهرت على الأرض ، ثم ظهرت الطحالب بكل أنواعها بعد ذلك . وساعدت تلك النباتات الأولية على إنتاج غاز الأوكسجين فى جو الأرض ، وبذلك مهدت لظهور الحشرات والكائنات الحية الدقيقة .

وانقضت نحو ١٦٠٠ مليون سنة قبل ظهور النباتات ذات السيقان . وظهرت الأعشاب البحرية فى العصر الديفونى (منذ نحو ٤٠٠ مليون سنة) وفى هذا العصر كانت النباتات ذات السيقان قد بدأت فى الظهور على اليابسة .

وفى العصر الكربونى (منذ نحو ٣٠٠ مليون سنة) ظهرت النباتات ذات الأوراق الحقيقية . وفى نهاية العصر الكربونى (منذ ٢٤٠ مليون سنة) ظهرت السراخس ذات البذور ، التى منها تكونت الأحافير الفحمية فيما بعد . ويقول العلماء إن السراخس الشجرية التى تنمو حاليا فى المناطق الاستوائية تشبه إلى حد كبير السراخس التى ظهرت فى العصر الكربونى منذ ٣٠٠ مليون سنة مضت .

تنمو أنواع مختلفة من النباتات فى مناطق العالم المختلفة . . ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب :

١ ـ تباعد القارات . ٢ ـ اختلاف المناخ . ٣ ـ التطور .

أولاً : تباعد القارات : منذ زمن بعيد ابتدأت مناطق من الأرض تنفصل وتتباعد عن بعضها البعض . . فأستراليا مثلا انفصلت عن باقى القارات فى مرحلة مبكرة جدًا من تاريخ الأرض . . لذلك تنمو فى أستراليا نباتات لاتوجد فى مكان آخر من الأرض .

ثانياً : المناخ : كل نبات مكيف لتمام نموه فى مناخ المنطقة التى يستوطنها . . ولاينمو أبدًا إذا اختلف المناخ اختلافا كبيرًا . . نجد مثالاً على ذلك فى نباتات الصحارى الجافة ، ونباتات المناطق القطبية الباردة . . ففى كل منها نباتات تأقلمت وتكيفت على النمو فى المنطقة التى استوطنت فيها . . وفى العالم خمسة أنواع رئيسية من المناخ ، ينمو فى كل منها نوع مميز من النباتات وهى : المناطق الحارة الرطبة . والمناطق الحارة الجافة . والمناطق القطبية . والمناطق الجبلية . والمناطق الباردة المعتدلة . والمناطق الدافئة المعتدلة .

ثالثاً : التطور : قد يكون لمناطق متباعدة نفس المناخ ، غير أن النباتات فيها مختلفة تماما ، فغابات الأمازون لها نفس مناخ غابات ماليزيا ، إلا أن النباتات فى كل منها مختلفة . وكذلك المناخ فى نيوزيلندا يشبه المناخ فى بريطانيا ، إلا أن النباتات فى كل منها مختلفة أيضا .

ويوجد فى العالم الآن أكثر من ٣٦٠ ألف نوع من النباتات .

وكانت الأرض فى أول خلقها كرةً من النار . . ومرت مئات الملايين من السنين حتى بردت قشرتها الخارجية بسبب هطول الأمطار الغزيرة عليها . . ولكن البراكين الثائرة ظلت منتشرة على سطح الأرض فى أعداد هائلة جدًا ، ومن هذه

البراكين تكونت الجبال البركانية . . ومعها تكونت الجبال الرسوبية وأنواع الجبال الأخرى . . ومن الجبال نشأت منابع الأنهار . . وما أن توافرت مياه الأمطار والأنهار والآبار حتى ظهرت النباتات . . ومرت مئات الملايين من السنين . . حتى ظهرت النباتات ذات السيقان والتى تحمل الثمار . . وارتفع مستوى الأوكسجين فى جو الأرض . . وما أن تهيأت الحياة لظهور الدواب حتى خلق الله الدواب ، فوجدت رزقها أمامها متوافرًا . . وأخيرًا ظهر آخر المخلوقات وهو الإنسان .

العلماء يؤكدون اليوم بناءً على دراساتهم فى علم طبقات الأرض وعلم الأحياء أن كل ما على الأرض ظهر على مراحل . . أول الخلق كانت التربة ، ثم تكونت الجبال فنشأت الأنهار ، فظهرت النباتات ، وبذلك أصبحت الأرض مهيأةً لظهور الدواب عليها . وأخيرًا جدا ظهر الإنسان ، الساكن الجديد لهذه الأرض . لم يكن هذا الترتيب فى ظهور المخلوقات على الأرض معروفا قبل عصور العلم الحديثة . حتى أن سفر التكوين فى ترجمة التوراة يقول : (لما خلق الرب الإنسان لم يكن على الأرض شجر ولا عشب ؛ لأن الرب لم يكن أمطر على الأرض . فزرع الرب بستانًا ليعيش الإنسان عليه) .

وهذا كلام غير صحيح علميا ؛ لأن النباتات ظهرت على الأرض قبل ظهور الإنسان بألفى مليون سنة على الأقل . وما خلق الله تعالى الإنسان إلا بعد أن خلق الأرض ووفر فيها الماء والنبات والدواب ، وسخر كلَّ ذلك للإنسان .

ونطالع الحق اليقين في القرآن العظيم فى قول الله عز وجل : ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ (فصلت : ٩ ، ١٠) .

تبين الآية الكريمة فيما تبين من حق ، أن الله عز وجل خلق الأرض وقدّر فيها كل أسباب الحياة والأرزاق والأقوات فى أربعة أيام ، هى من أيام الله تعالى التى لايعلم مداها إلا هو . وَخَلَقَ الأرض فى يومين . وهذان اليومان يدخلان فى الأربعة أيام ؛ ذلك لأن أطوار الخلق متداخلةٌ فى بعضها البعض .

ونطالع الوحى الإلهى فى الحديث النبوى فنجد المزيد من الشرح والتفصيل . فقد أخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن اليهود أتت النبى ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض فقال ﷺ : «**خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق الأرض يوم الأحد ، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الاثنين ، وخلق الأنهار يوم الثلاثاء ، وخلق الشجر يوم الأربعاء**» .

فهذه هى الأيام الأربعة التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله : ﴿ **وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ (فصلت : ١٠) .

ولقد أثبتت الدراسات العلمية فى عصر العلم الحالى هذا التسلسل فى ظهور المخلوقات على هذه الأرض . . الأرض خلقت أولا ، ثم ظهرت البراكين فتكونت الجبال ، ومن الجبال نبعت الأنهار ، فما من نهر إلا وينبع من جبل ، وما أن توافرت المياه العذبة حتى ظهرت النباتات . وبظهور النباتات توافر الغذاء ، وتوافر غاز الأوكسجين فى الجو ، وبذلك اكتملت كل أسباب الحياة للدواب فخلق الله الدواب . وبعد ذلك بزمن طويل خلق الله تعالى الإنسان آخر المخلوقات .

لم يكن ذلك التسلسل فى الخلق معروفا قبل عصرنا الحاضر ، إلا أن الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه ابن جرير والحاكم وابن مردويه والبيهقى ذكره تفصيلا .

وعن نفس الموضوع أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «**خلق الله التربة يوم السبت . وخلق فيها الجبال يوم الأحد . وخلق الشجر يوم الإثنين . وخلق المكروه يوم الثلاثاء . وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس . وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة فى آخر الخلق وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل**» .

نجد فى رواية مسلم للحديث النبوى نفس الترتيب فى ظهور المخلوقات على الأرض ، الذى اكتشفه العلماء حديثًا : التربة ثم الجبال ثم النبات ثم الدواب ثم الإنسان ، مما يعد إعجازًا علميًا كبيرًا .



خلق آدم

الباب الثالث | خلق آدم

١ آدم أول إنسان على هذه الأرض

أخرج الترمذى عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال فى حديث له :

«الناس كلهم بنو آدم. وآدم خلق من تراب» .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» .

(وقوله ﷺ (كلكم) يدل على كل الناس . . وأن آدم أول إنسان خلقه الله على سطح هذه الأرض) .

وجاء فى آخر الحديث الذى أخرجه مسلم عن أبى هريرة ﷺ عن الحقب الحياتية التى مرت بالأرض قال : «**وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة فى آخر الخلق ، وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل**» .

عن خلق آدم قال الله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ (البقرة ٣٠ ، ٣١) .

كلمة (ربك) مضافة إلى ضمير المخاطب وهو النبى محمد ﷺ . . وفى ذلك تشريف للنبى محمد ﷺ لم يصل إليه مخلوق من قبل ، فهى إضافة تقربه من حضرة ربه . وقوله تعالى ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ . . .** ﴾ خطاب للنبى محمد ﷺ يرفعه إلى درجة المشاهد لذلك الحدث العظيم ، وهو قول الله تعالى للملائكة أنه سيجعل فى الأرض خليفة ـ هو آدم ـ كما يرفع النبى محمدًا ﷺ إلى درجة المعاين لما حدث فى بدء الخلق ، كما أن الخطاب فى الآية الكريمة يدل على أن المخاطب له الحظ الأعظم ، والقسم الأوفر من الخلق المخبر عنه ، فالنبى محمد ﷺ هو فى الحقيقة الخليفة الأعظم ، والإمام المقدم فى السماوات والأرض ، ولولاه ما خلق الله تعالى آدم . . وفى ذلك يقول عمر بن الفارض رحمه الله على لسان الذات المحمدية :

وإنى وإن كنت ابن آدم صورةً ... فلى فيه معنىً شاهدٌ بأبوتى

هل كان آدم أول إنسان ظهر على هذه الأرض أم كان قبله بشر آخرون؟

بعض العلماء طرحوا هذا السؤال ، وحاولوا الإجابة عنه ، وبعضهم حاول أن يأتى بأدلة على أن آدم لم يكن أول بشر ظهر على هذه الأرض ، بل كان قبله بشر آخر . وهذه أقوال لاتخرج عن كونها مجازفة لا تجد الدليل العلمى على صحتها .

وقال أحد شعراء العرب عن ذلك :

جائز أن يكون آدمُ هذا قبله آدمُ على إثر آدم

وما آدم فى مذهب العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

ويقول فريق من الناس إنهم لم يجدوا آية واحدة أو حديثًا نبويًا صحيحًا يذكر أن آدم الذى جاء ذكره فى آية سورة البقرة ٣٥ هو أول آدم ، وأنه لم يكن قبله أوادم آخرون .

وقال بعض العلماء إن الدليل على وجود بشر قبل خلق آدم ، أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم وأخبر الملائكة بذلك ، قالوا : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ إنهم لاشك قاسوا ذلك على ما شاهدوه من بشر خلقهم الله قبل آدم ، وكانوا من ذرية آدم آخر . وظهر من المفكرين من قال إنهم وجدوا الدليل على هذا مما اكتشف من الأحافير القديمة ، لعظام وجماجم بشرية ، منها أحفورة إنسان سابيان وعمرها ١٣٠ ألف سنة ، وأحفورة إنسان فى روديسيا ، وأحفورة إنسان هيدلبرج . واكتشفت أحفورة إنسان كينيا وقدر عمره بنحو مليون و٩٠٠ ألف سنة .

فى عام ١٩٧٢ نشر ريتشارد ليكى أحد علماء الأنثروبولوجى (علم الإنسان) أنه اكتشف فى كينيا بقايا جمجمة ، يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف المليون من السنين . وهو أقدم أثر لبنى البشر . وزعم تشارلز داروين فى القرن التاسع عشر أن الإنسان الحالى انحدر من سلالة القردة ، وأنه كان يمشى على أربع منذ مليون سنة مضت ، ثم انتصب على قدميه بعد ذلك ، إلا أن نظرية ريتشارد ليكى عارضته بشدة ، وأكدت أن الإنسان كان يمشى منتصب القامة منذ مليونين ونصف المليون من السنين . وندرك نحن من قراءة القرآن الكريم وقصص الأنبياء فيه أن عصر آدم لايتجاوز الثلاثين ألف سنة مضت .

وزعم قوم آخرون أن ما قالته الملائكة لربهم عند خلق آدم يدل على أنهم شاهدوا آدم آخر من قبل ، وشاهدوا نسله منتشرين فى الأرض ، يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء . . ويدعم هذا الرأى ـ فى نظر بعض المفكرين ـ أن الأحافير القديمة مثل أحفورة جاوة أو أحفورة روديسيا ، وغير ذلك من الأحافير القديمة تشير إلى أكثر من آدم ظهر على هذه الأرض ، قبل آدم الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم . . وأن آدم الذى نعرفه ليس هو أول البشر .

الرد على تلك الأقوال:

الرد الأول : أن قول الملائكة ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾لايدل على بشر شاهدوه فى الأرض قبل آدم ، وقد يكون ذلك قياسا على ما شاهدوه فى كواكب أخرى فى الكون الفسيح . فمن المعقول جدا أن يكون الله تعالى قد خلق مخلوقات بشرية فى كواكب أخرى ، قبل خلق آدم على هذه الأرض ، وكانوا يفسدون ويسفكون دماء بعضهم البعض . فالملائكة لم تطلع على كوكب الأرض فقط ، وإنما اطلعت على آلاف الملايين من الكواكب الأخرى فى الكون ، وما فيها من مخلوقات . ولقد أكد بعض علماء الفيزياء الكونية وجود مخلوقات عاقلة فى كواكب أخرى فى السماوات ، لاتعد ولاتحصى . وإذا كان فى مجرة درب التبانة وحدها أكثر من مائة ألف مليون شمس ، وحول كل منها تدور كواكب . . ولنا أن نتخيل العدد الهائل للكواكب فى المجرة ، وإذا علمنا أن بالكون ملايين المجرات ؛ فإننا نستدل من هذا على أن وجود مخلوقات بشرية فى كواكب أخرى أمر فى حكم المؤكد .

إذن فقول الملائكة ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ لايدل على بشر كان قبل آدم فى الأرض .

الرد الثانى : الأحافير القديمة لاتدل على وجود آدم آخر قبل آدم الذى نعرفه ؛ لأن الأحافير هى أشكال صخرية أو معدنية ، لمخلوقات طمرت فى الأرض زمنا طويلا ، فاستبدل السليكون أو أملاح معدنية أخرى فى

الصخور بالمواد العضوية فى الجسم المطمور ، وبالتالى لايمكن أن نقطع برأى علمى عن الأصل الوراثى للأحفورة ، إن كانت لإنسان أو لنوع من القردة قريبة الشبه بالإنسان .

ويتعرف العلماء على نوع الأحفورة من شكلها الخارجى فقط . . ولكن ذلك التعرف ليس مؤكدًا علميا . . إذ يستحيل على العلم أن يتعرف على جنس المخلوق ونوعه إلا بفحص شفرته الوراثية الموجودة فى نواة خلية من خلاياه . ولما كانت الخلايا قد تحللت تماما واختفت ، وحل محلها عناصر من صخور الأرض ؛ فإن العثور على أحفورة وفحصها لايعيننا أبدًا على التعرف على خلقها علميا أو تحديد نوعها وراثيا . .

ومن هنا تبدو له حقيقة لا أدرى لماذا خفيت على كثير من الباحثين ؛ وهى أن العثور على أحفورة تشبه جسم الإنسان لايمكن أن نثبت علميا أنها لإنسان أو لقرد أو لمخلوق آخر يمشى على أقدامه . . لذلك ينبغى أن يدرك أى عالم من العلماء أن الأحافير التى اكتشفها العلماء ، ومنهم كوينجسفالد سنة ١٩٤١ Van Konigswald عن اكتشافه لقطعة من الفك السفلى لمخلوق إنسانى عملاق ، هو اكتشاف لأحفورة ، لايمكن أن نقطع علميا بأنها لإنسان . إذ يستحيل علينا أن نفحص الحامض النووى فيها . وقال العالم جوهانز هورذلر سنة ١٨٥٦ أنه عثر على فك إنسان يرجع تاريخه إلى عشرة ملايين سنة . ومن أين عرف أنه لإنسان؟

وفى سنة ١٩٧٢ اكتشف ريتشارد ليكى أحد علماء الأنثروبولوجى (علم الإنسان) فى كينيا بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف المليون عام ، وقال إنها أقدم أثر من نوعه للإنسان الأول .

ولكن من أدراه أنها جمجمة إنسان؟! لايقطع بذلك إلا علم الوراثة ، وعلم الوراثة لا دخل له مطلقا فى تحديد جنس الأحافير . . لذلك يمكننا القول بأن تلك الجمجمة هى لمخلوق يشبه الإنسان فى الشكل الخارجى ، ولم يكن إنسانا ، إذ لايمكننا أن نصدق أن آدم عاش قبل عشرة ملايين سنة أو حتى مليونين من السنين .

وقد أعلن بعض علماء الوراثة أن الإنسان كان فى أصله قردًا ، ثم تطور خلقه بعد ذلك . وهذا كلام هراء لايستند إلى علم صحيح ؛ لأن الشفرة الوراثية فى خلايا جسم القرد تختلف اختلافًا كبيرًا عن خلايا جسم الإنسان . بل إن الشفرة الوراثية فى خلايا الفأر ، بينها وبين الشفرة الوراثية للإنسان شبه كبير ، إلا أنها مختلفة عنه . فالإنسان نشأ إنسانا ، والقرد قردًا ، والفأر فأرا ، وهكذا باقى المخلوقات الحية .

ونشر كتاب بعنوان (آدم عليه السلام) من تأليف الأستاذ بشير التركى أحد علماء تونس ذكر فيه : بعد أن انقرض البشر من على سطح الأرض خلق الله آدم فى الجنة ثم أنزله على الأرض يحمل السبع المثانى وهى الرصيد الوراثى المادى ، وهو المقصود من قوله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾ (الحجر ٧٨)

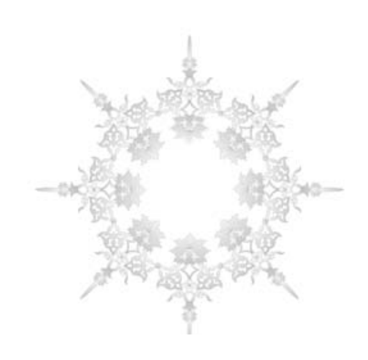
وذكر فى كتابه أن الإنسان القرد عاش على سطح الأرض منذ ١١٥٠ مليون سنة وكان منتصب القامة . . وهو البشر الواقف . . وهو الذى اهتدى إلى النار . . ومنذ ١٤٥ ألف سنة عاش إنسان النياندرتال ، وفى نهاية عهده انقرض . وخلق آدم الذى علمه الله الأسماء كلها . ومنذ ٤٠,٠٠٠ سنة حتى الآن عاش الإنسان الهومو سابينز أو الإنسان العارف الذى اهتدى إلى الكتابة .

وأعجب أ .د . عبد الصبور شاهين بما كتبه الأستاذ بشير التركى ، ولفت نظره الفرق بين البشر والإنسان وقرأ قول الله عز وجل : ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ (ص : ٧١ ، ٧٢) .

فاعتقد أن ذلك البشر المذكور فى الآية ، مر فى مراحل من التسوية ونفخ الروح «الإلهى» ، وهى مراحل

متدرجة من حيث النضج . . وكان كل ذلك فى إطار المرحلة البشرية ، إلى أن كان آدم الإنسان الأول الذى اصطفاه الله نبيا ، فكان آدم أبا الإنسان ، لا أب البشر ـ وقال أ . د . عبد الصبور شاهين إن ما ذهب إليه لايتناقض فى نتائجه مع صحيح الحديث النبوى والقرآن العظيم . وذهب بعيدًا فى استقصاء اللغة العربية بما تعنيه كلمتا «بشر» و«إنسان» من معانٍ .

وقال أن كلمة «بشر» فى اللغة تفيد « الظهور مع حسن وجمال» وسمى البشر بشرًا لظهورهم كذلك . . وقال لقد أطلق القرآن كلمة (البشر) على أبرز المخلوقات التى ظهرت قبل آدم . . ومعنى (البشر) أى المخلوق الظاهر على كل الكائنات الطينية ، مقابلا لما يتصف به عالم الجن وعالم الملائكة من عدم الظهور . فالظهور فى البشر والخفاء فى الملائكة والجن . وقال إن بين (البشر والإنسان) عموما وخصوصا مطلقا . (فالبشر) لفظ عام لكل مخلوق ظهر على سطح الأرض يسير على قدميه ، منتصب القامة . و(الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته . فكل إنسان بشر ، وليس كل بشر إنسانا . . ومن رأينا أن ذلك بحث لغوى ، لايعنينا فى شىء ، مادام اتفق الجميع أن آدم أول إنسان خلقه الله تعالى على هذه الأرض ، وعلمه الأسماء كلها ومنحه العقل ، فصار مكلفًا ، ولم يكن قبله إنسان عاقل مكلف . .



٢ خـــــــــــــــلق آدم

– أخرج الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعًا**» إلى قوله «**فكل من يدخل الجنة على صورة أبيهم آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**» .

– وأخرج الطبرانى من حديث حماد بن سلمة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«**يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جردًا مردًا جعادًا مكحولين ، أبناء ثلاث وثلاثين . وهم على خلق آدم طوله ستون ذراعًا فى عرض سبعة أذرع**» .

الذراع الهاشمى : نصف متر ونيف . فيكون طول آدم ثلاثين مترًا تقريبًا ، فى عرض ثلاثة أمتار ونصف ونيف .

منذ عصر الإغريق ، والفلاسفة يفكرون فى نشأة الحياة على هذه الأرض . . والإجابة عن السؤال : كيف ظهرت الحياة على الأرض؟ . وظهرت نظريات لا حصر لها . . ولكنها نظريات لا أساس لها من الصحة . . وكان أغلب تلك النظريات تزعم أن الحياة على كوكب الأرض ابتدأت فى البحار البدائية من مواد بروتوبلازمية . . وثبت بعد ذلك علميا أن كل شىء حى لم يخلق فى الماء ، ولكن كل شىء خلق من ماء . . وفرق كبير بين الخلق فى الماء ، والخلق من ماء . فالخلق فى الماء يعنى مكان نشأة الخلق . أما الخلق من الماء فيعنى مكونات المخلوق . وذكر الحقيقة العلمية الصحيحة القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا** ﴾ (الفرقان : ٥٤) .

وذكرها الحديث النبوى الشريف أيضا «**كل شىء خلقه الله عز وجل من ماء**» . .

ولكن القرآن والحديث النبوى ذكرا أن خلق الإنسان من تراب . . كما قال تعالى : ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (آل عمران : ٥٩) وكما قال رسول الله ﷺ : «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» . . فهل هناك تعارض بين هذه الآيات القرآنية؟ . . وهل هناك تعارض بين هذه الأحاديث النبوية؟ نقول لا . . لأن الله عز وجل خلق الإنسان من طين . . والتراب والماء يكونان الطين . كما قال الله عز وجل .

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ**﴾ (المؤمنون : ١٢) وقال رسول الله ﷺ «**لأن فيها طبعت طينة أبيك آدم**» الخ الحديث الشريف .

واكتشف العلماء فى عصر العلم الحالى أن معظم أجسام المخلوقات الحية ماء . فالماء يكون من جسم الإنسان نحو ٧٠٪ من وزنه . وكذلك المخلوقات الحية الأخرى . وأكثر من هذه النسبة فى الخضراوات وبعض النباتات ، فذلك حديث رسول الله ﷺ «**كل شىء خلقه الله عز وجل من ماء**» .

فى القرنين الماضيين ظهر كثير من العلماء فى أوربا واهتموا ببحث موضوع التطور فى الخلق . . وقد نجحوا فى المشاهدات والملاحظات ولكنهم فشلوا وأخطأوا فى التفسير العلمى لها . . فقد زعموا أن الإنسان الحالى انحدر من نوع من القرود كانت أقل منه تطورًا . . وقال العالم الهولندى (ديبوا) إن الإنسان القرد العملاق عاش فى جاوة ، وأنه اكتشف أحفورة له فى جاوة سنة ١٨٩١ .

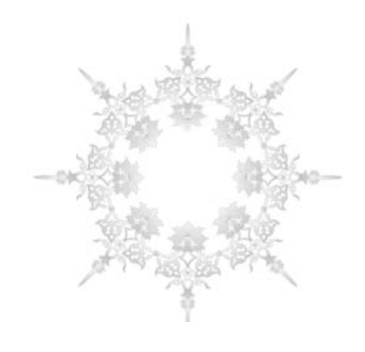
وزعم كثير من علماء التطور أن كلَّ أنواع المخلوقات المختلفة ، نشأت فى بدء الخلق نوعًا واحدًا ، ثم ما لبث أن تطور بعد ذلك أنواعًا مختلفة وسلالات شتى . .

وكلُّ ما قاله هؤلاء كان بناءً على ظنونٍ وافتراضاتٍ ، وليس بناءً على علم الوراثة كما زعموا ، لأن علم الوراثة لم يكتشفه العلماء إلا بعدهم بعشرات السنين . . فلم يبتدئ العلماءُ يتفهمون ملامح علم الوراثة ، إلا على يد جريجور مندل فى أواخر القرن التاسع عشر . . وفى أوائل القرن الحالى ابتدأ العلماء يضعون الأسس الثابتة لعلم الوراثة . . ومع ذلك لم يكتشف العلماء الشفرة الوراثية فى الخلايا البشرية إلا فى منتصف القرن العشرين .

إذن فكل نظريات التطور فى خلق الإنسان والحيوان التى أعلنوا عنها فى القرنين الماضيين ، لم تكن مؤسسة على علم ، وإنما على ظنون وافتراضات ومشاهدات ، تفتقر إلى دليل علمى صحيح .

إذن فالوراثة فى خلق الإنسان والكائنات الحية جميعا تقوم على أسسٍ علميةٍ ثابتة . ومن هذا نفهم أن كلَّ نوع من الخلق نشأ من نوعه منذ بدء خلقه . ولايمكن أن يكون قد تطور من نوعٍ آخرٍ من الخلق ابدًا . فالإنسان نشأ إنسًانا وسيظل إنسانا ، والقرد نشأ قردًا وسيظل قردًا ، والحصان نشأ حصانًا وسيظل حصانا ، وهكذا كلُّ أنواع المخلوقات الحية الأخرى .

إن التطور فى الخلق لاينكره عالم من العلماء ، فهو حقيقة لاشك فيها ، ولكن التطور يحدث فى الشكل الخارجى للمخلوق فقط . . والطفرات الوراثية تغيِّر من الصفات الوراثية فيه ولا تغير نوعه . وهذه التغيرات فى الصفات الوراثية تتوارثها الأجيال . . وبذلك تنشأ أجيال بصفات وراثية جديدة . . فالإنسان فى أول أمره كان عملاقا كما بينت أحفورة جاوة سنة ١٨٩١ والتى أعلن عنها العالم (ديبوا) وكانت على الأرجح لإنسان فى العصور الأولى لظهور الإنسان . ولقد تطور الشكل الخارجى للإنسان وتطورت ملامحه . . وتطور من الطول إلى القصر ، حتى صار إلى ما هو عليه الآن . . وكان هذا التطور بسبب طفرات وراثية ظهرت فى أحد الأجيال ثم توارثتها الأجيال التى جاءت بعدها . ولا بد أن يكون الجنس البشرى نشأ بداية من رجل وامرأة . لم يكن قبلهما بشر ، وكان فى خلايا جسم كل منهما نفس الشفرة الوراثية البشرية التى هى فى خلايا أجسامنا الآن . ولايوجد أى احتمال علمى آخر . هذا دليل علمى أكيد فى علم الوراثة . . وهناك دليل أقوى وهو الحديث النبوى الشريف الذى قرر هذه الحقيقة قال ﷺ «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» .



٣ كلكم لآدم وآدم من تراب

أخرج البخارى وأحمد وأصحاب السنن عن سليمان عن مجاهد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : «**كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» .

وأخرج الترمذى وابن ماجه عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه . فقلنا يا رسول الله ، لو اتخذت لنفسك وطاء فقال : «**مالى وللدنيا ما أنا والدنيا إلا كراكب راحلة فى يوم صائف استظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها**» .

وفى رواية الإمام أحمد فى المسند عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر فى جنبه فقال : يا نبى الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا . فقال ﷺ : «**مالى وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكب راحلة سار فى يوم صائف واستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها**» .

أخرج أحمد والترمذى عن هشام بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال فى حديث له «**الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب**» .

الله تعالى يبدأ كل خلق من خلقه ثم يعيده ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ **قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** ﴾ (يونس : ٣٤) أى فأنى تصرفون عن الحق ، ولاشك أن القدرة على الإيجاد والإبداء للخلق ، تدل بالضرورة على القدرة على الإعادة وإيجاد الخلق ، ثم انتهائه ، ثم إعادة خلقه . وهذا مايحدث أمامنا فى عالم النبات والأحياء جميعا . . ومادام قد حدث فى الدنيا أمام أعيننا ، فإنه يسهل علينا أن نؤمن بإعادة الخلق والبعث يوم القيامة .

كان آدم أول إنسان خلقه الله تعالى على هذه الأرض ، وخلق الله تعالى فى خلايا جسمه الشفرة الوراثية البشرية المميزة للجنس البشرى . . ثم مات بعد أن خلق الله منه ولدا ، ومن الولد ولدا ، وإلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله . إلا أن حياة كل فرد من بنى آدم حياة قصيرة جدًا ، فهى فى حقيقتها لحظة سرعان ما يحملها الزمن إلى الماضى . . ويعيش الإنسان لحظة جديدة . . اللحظات التى عاشها من قبل ، لايعيشها ولن يعشها ، فقد انتهت ، واللحظات التى فى المستقبل لايعيشها الإنسان لأنها لم تأت بعد . . إذن فالإنسان يعيش فى الحقيقة لحظة الحاضر فقط . . فهو فى حياته الدنيا كأنه عابر سبيل كما أخبرنا رسول الله ﷺ «**يا عبد الله كن فى الدنيا كعابر سبيل**» وعبور الطريق لايستغرق إلا لحظات ، ومعنى الحديث لاتركن إلى الدنيا ، ولاتتخذها وطنا ، ولاتحدث نفسك بالبقاء فيها .

وأخرج الترمذى وابن ماجه عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه . فقلنا : يا رسول الله ، لو اتخذت لك وطاءً . فقال :« **مالى وللدنيا ما أنا والدنيا إلا كراكب راحلة استظل تحت شجرة ساعة ، ثم راح وتركها**» . . وفى رواية الإمام أحمد : «**مالى وللدنيا ما أنا والدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف ، استظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها**» .

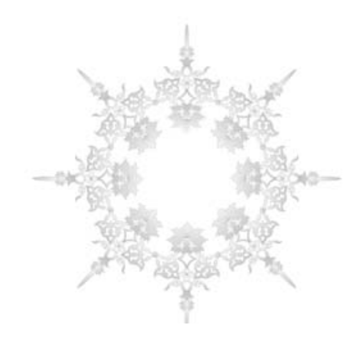
وفى الحديث تشبيه فى قوله (كراكب) أو (كراكب راحلة) وهو الإنسان (شبه الذات الإنسانية بالراكب . وشبه جسم الإنسان المادى بالراحلة) ؛ لأن الإنسان مكون من ذات إنسانية تخرج إلى الدنيا محيزة داخل جسم مادى . . فالإنسان فى الدنيا مثل راكب راحلة . . وقوله ﷺ «**فى يوم صائف**» كناية عن متاعب الحياة الدنيا ؛ لأن ذلك هو مايلزم من اليوم الصائف ، كما قال تعالى﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ (البلد : ٤) . وقوله ﷺ «**استظل تحت شجرة**» كناية عن الحياة الدنيا . وقوله ﷺ (ساعة) كناية عن أجل الإنسان القصير فى الدنيا . فأجل أى إنسان هو ساعة مضروبة فى عامل متغير . وقوله ﷺ «ثم راح وتركها» ترك ماذا؟ هل ترك الشجرة أم ترك الراحلة؟ أم تركهما معاً؟ . . إنه قد تركهما معا .

وهكذا صور هذا الحديث النبوى الشريف أطوار خلق الإنسان فى حياته الدنيا جميعا ، فى إيجاز بديع وفى تصوير لغوى جميل .

لقد بدأ الله تعالى خلق البشر بخلق آدم وزوجه . . ولا يوجد احتمال علمى آخر . . لأن كل إنسان جاء إلى الدنيا من أب وأم . . فإذا رجعنا إلى الماضى البعيد لوقفنا عند أب وأم لم يكن قبلهما أب أو أم . . ويجادل علماء التطور فى هذه الحقيقة ، يقولون إن الإنسان نشأ خلقه من نوع آخر من الخلق فى البحار البدائية ، ثم تطور بعد ذلك وصار إنسانا . . ونحن نرفض هذه الظنون بشدة ولا نصدقها ، لأن علم الوراثة يرفضها جملة وتفصيلا .

ونجد كل عناصر جسم الإنسان موجودة فى تراب هذه الأرض ، دلالة على أنه خلق منها ، وهذا رأى صحيح ، ودليل صحته أنه وافق ما جاء بالقرآن والسنة من حق . نقرأ قول الله عز وجل : ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (آل عمران : ٥٩) وقال رسول الله ﷺ «**الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب**» وفى رواية أخرى «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» . . الآية الكريمة والحديث النبوى الشريف ، صاغا الحقيقة العلمية فى أسلوب بلاغى معجز ، لم يصدما الاعتقاد المخطئ للناس قديما . إلى أن جاء عصر العلم الحالى ، وأثبت علم الوراثة بعد نزول القرآن بقرون عديدة تلك الحقيقة العلمية ، ورفض فى نفس الوقت ، كل النظريات الخاطئة عن خلق الإنسان ، التى ظهرت منذ قرنين من الزمان (فى القرن الثامن عشر وما بعده) .

ونحن إذ نتدبر الحديث النبوى الشريف ، نجد أنه نسب كل إنسان إلى الإنسان الأول وهو آدم . وذكر مادة الخلق أيضا وهى التراب . فلا يوجد عنصر فى جسم الإنسان إلا وهو موجود فى تراب هذه الأرض .



أخرج الإمام أحمد فى المسند عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : «**أخذ الله تعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة . فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها . ثم نثرهم بين يديه كالذر . ثم كلمهم قائلا : ألست بربكم؟ قالوا : بلى . شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون**» هذا الحديث النبوى الشريف تفسير لقول الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** ﴾ (الأعراف : ١٧٢) .

وجاء فى تفسير الفخر الرازى : أن يوم الميثاق لاشك فى حدوثه . ولكنه يتساءل أنَّ أخذ الميثاق لايكون إلا من عاقل . ومعنى هذا أن أولئك الذر كانوا عقلاء وأَعْطوا الميثاق لربهم ، ولوجب أن يذكروا هذا الموقف لا ينسونه أبدًا فى حياتهم الدنيا الآن . . فكيف يُنْسى؟!!

وردنا على ذلك أن نسيان الإنسان لشىء لايقوم دليلا على نفيه . . تماما كما وُلد الإنسان طفلا رضيعًا من بطن أمه وعاش سنوات فى هذه الدنيا . . ولايذكر عندما يكبر ما حَدَثَ له فى تلك الفترة من حياته . فإذا كان الإنسان منا نَسِيَ كلَّ شىءٍ عن شهوره الأولى فى حياته الحالية . . فمن باب أولى ينسى ما حدث له يوم الميثاق . . ونسيانه لايقوم دليل نفى . . كما لايقوم دليل إثبات .

وإذا كان العقل الواعى للإنسان ينسى . . فإن ما حَدثَ يوم الميثاق مسجلٌ فى فطرةِ خَلْقِ كلِّ إنسان . . فإذا وقع إنسانٌ ، فى خطر داهم فإنه يصيح دون أى تفكير : يارب!

ويقول الله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ ، بينما **يقول الحديث النبوى الشريف : «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان»** .

فى الآية الكريمة قال : ﴿ **مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ . . وليس لظهرِ آدم ذكر . . فكيف ذلك؟ . . قال المفسرون قوله تعالى : ﴿ **مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ بدل اشتمالٍ من قوله تعالى : ﴿ **مِن بَنِي آدَمَ** ﴾ وألفاظُ الآية تقتضى أَنَّ الأَخْذَ إنما كان من بنى آدم ؛ وإنما لم يُذكر ظُهْرُ آدم ، لأن المعلوم أنهم كلهم بنوه ، وأنهُم أُخرجوا يوم الميثاق من ظهره . . فاستُغنى عن ذكره بالقول ﴿ **مِن بَنِي آدَمَ** ﴾ .

إذن فالآية ذكرت الحقيقة من وجه ، بينما ذكر الحديث النبوى الحقيقة من وجه آخر .

ودليلُ حياتنا الدنيا يوم الميثاق وحياتنا الدنيا الحالية ، جاء ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ** ﴾ (غافر : ١١) .

فالحياة الأولى : كانت يوم الميثاق ، أحيانا الله يومئذٍ لأخذ الحجة علينا ، ثم أماتنا بعد ذلك فى حيث يعلم هو ولا نعلم نحن .

والحياة الثانية : هى حياتنا الدنيا هذه ، وسنموت بعدها ، لنقابل ربَّنا . . إنها حياتان وموتتان ستحدثان لكل إنسان منا .

وقال بعض العلماء : إن معنى قوله تعالى ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ هذا ماقاله البشر عندما بين الله –تعالى– لهم دلائل ربوبيته وبراهين وحدانيته . قال تعالى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ .

وقال العلماء : يحسُن الوقفُ عند قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ ؛ لأن كلام البشر انقطع هاهنا . . أما باقى الآية فهو ماقالته الملائكة وقد شهدوا على الناس ﴿ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ . . وقد يقال إن الوقف إنما يكون بعد قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ ؛ لأنه هنا انقطع كلام البشر ، لذلك ينبغى الوقف فى القراءة بعد ﴿ بَلَىٰ ﴾ أو بعد ﴿ شَهِدْنَا ﴾ .

وأين حدث يوم الميثاق العظيم؟

اختلف العلماء فى ذلك ، فريقٌ قال فى الهند ، وفريق قال بين الطائف ومكة ، وفريق ونحن نوافقهم على ذلك قال إن يوم الميثاق حدث ببطن نعمان قرب عرفات . . ولماذا نوافقهم على ذلك؟ لأن هذا ما جاء فى حديث قدسى شريف قال سيدنا رسول الله ﷺ :

«**لما خلق الله آدم بنعمان يعنى عرفه**» إلى آخر الحديث القدسى الشريف . وتساءل بعض المفسرين قديما : كيف يكون البشر جميعا فى صلب آدم وظهره . . ومجموعُ البشر الذين خرجوا إلى الوجود من أول آدم إلى قيام الساعة ، لاتسعهم الأرض ، لاسطحها ولا سماؤها ، ولا يابسها ولا بحارها ، فكيف يمكن أن يسكنوا جميعًا ، ودفعة واحدةً فى صلب آدم؟!!

لم يجدوا الجواب على ذلك وتحيروا .

إلا أن التقدم العلمى فى عصر العلم الحالى أعطانا الجواب على ذلك ، إنه فى الشفرة الوراثية التى جعلها الله تعالى فى كل خلية من خلايا جسم آدم . . ونقلها إلى ذريته من بعده وإلى ذرية ذريته . . إلى أن وصلتنا نحن الآن . . وستُنقل منا إلى ذريتنا ، وذرية ذريتنا ، وإلى أن تنتهى الأرض ومن عليها . .

إنها أساسُ فطرة الخلق . . وأساس نظام الوجود للأحياء جميعا ، لاتبديلَ لخَلْق الله . . وإذا كان النظام واحدًا فالخالق واحدًا لاشك فى ذلك . أما الأرواحُ والنفوسُ فهى مخلوقةٌ عند ربها . . وقدَّرَ لكل منها بَدَنًا تَدخلُ فيه فى الدنيا ، فى زمن معين ، وفى أجل مسمى . .

لقد توصّل العلماءُ فى عصر العلم الحالى إلى أساس نظام خلق الجنس البشرى . . ونظام خلق الأحياء جميعا . . إنهم جميعا يجمعهم نظامٌ واحدٌ للخالق . . ووحدةُ النظام تدل على وحدانية خالقه ، وأنه (لا إله إلا الله) ولكن الله تعالى جَعلَ داخل ذلك النظام الوراثى الموحد شفرةً وراثيةً ؛ مميّزةً لكل نوع من الخلق ، بحيث ينشأ كلُّ نوع من الخلق ، من نوعه ، ولا يكون من نوع آخر من الخلق أبدا . . إنه نظام متقن وبديع ، لايقدر عليه إلا الله عز وجل .



خلق الإنسان

الباب الرابع

خلق الإنســـان

١ مـن هـو الإنســـــــــان؟

– أخرج الإمام مسلم أن عمران بن الحصين قال : (**كل شىء خَلْقُ الله ومِلْكُ يده . فلا يُسْأل عما يفعل وهم يُسألون**) .

– أخرج الإمام مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «**إن الله عز وجل قد وكّلَ بالرحم ملكاً فيقول : أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال الملك أى رب ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب ذلك فى بطن أمه**» .

فالله تعالى هو الذى خلق الإنسان ويعلم أسرار خلقه جملةً وتفصيلاً .

– أخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**كل إنسان تلده أمه على الفطرة**» الخ الحديث الشريف .

– أخرج الترمذى عن أبى العوام عن عمران القطان عن قتادة عن مطرف عن أبيه أن النبى ﷺ قال : «**مثل ابن آدم وفى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع فى الهرم حتى يموت**» .

الإنسان كائن حى عاقل ، وصل إلى آفاق بعيدة فى العلم . . ووصل إلى الفضاء الكونى ، وسار على سطح القمر بإقدامه ، وبواسطة التلسكوب الفلكى تعرف على كثير من أسرار النجوم والمجرات ، وفى الأرض تعرف على كثير من أسرارها وعلومها ، أسرار الجبال والبحار ، وعلوم الأحياء والفيزياء وطبقات الأرض ، وغير ذلك من العلوم . وبواسطة الميكروسكوب العلمى تعرف على أسرار الميكروبات والفيروسات . . ووصل إلى كثير من أسرار جسم الإنسان جملة وتفصيلا . ومع كل هذا التقدم العلمى فى مختلف فروع العلم ، وقف العلماء عاجزين عن الإجابة عن السؤال : من هو الإنسان؟ . ظل العلماء منذ سبعين قرنا من الزمان يبحثون عن أسرار الروح ، وأسرار النفس ، وأسرار الإنسان ، وذهب كل منهم برأى يختلف عن رأى غيره ، ولم يتفقوا على رأى صحيح . ولم يصلوا إلى حقيقة ثابتة .

وفى القرن العشرين حسم العلماء القضية ، فقد أصدر الدكتور ألكسيس كاريل وهو طبيب فرنسى توفى سنة ١٩٤٤ كتابًا عنوانه «الإنسان ذلك المجهول» قال فيه : (الإنسان مجهول لنا ، وستظل معرفتنا به معرفة بدائية) وقال غيره : (سنحتاج إلى قرن أو قرنين من الزمان حتى نعرف من هو الإنسان) . . إلا أن أحد فلاسفة المادية الجدلية قال : «إن الإنسان الحقيقى كائن مجهول لنا ، وسيظل جهلنا به إلى الأبد» .

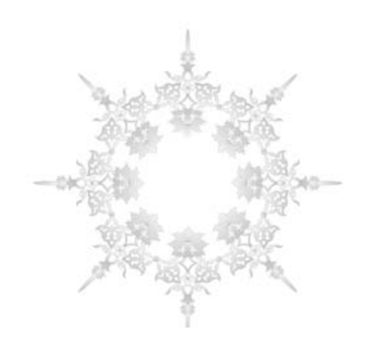
ونتساءل : من الذى يعرف أسرار الإنسان جملة وتفصيلا؟ . . لاشك أنه هو الذى خلقه وهو الله عز وجل الذى قال : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ (ق : ١٦) .

ولاشك أن الخالق أعلم بسر ما خلق . لذلك أرسل معه كتاب صيانته ، وهو التوراة الذى أنزلها على النبى موسى عليه السلام ، والإنجيل الذى أرسله على النبى عيسى عليه السلام ، والقرآن الذى أنزله على النبى محمد

عليه الصلاة والسلام . . وكل صانع يصنع آلة ما يرفق معها كتاب صيانتها . . وكذلك الأمر فى الإنسان ، الله تعالى خلقه وأرسل معه كتاب صيانته ، وهو الوحى الإلهى فى القرآن والسنة . لذلك يخطئ أى مشرّع إذا وضع قوانين تشريعية لاتستند إلى كتاب الله وسنة رسوله ، لأنه لايعلم من هو الإنسان ، ولايعلم سر خلقه ، فكيف يضع له قوانين لصيانته؟!

من أجل هذا نجد أن جميع القوانين الوضعية لاتدوم ، ودائما تتغير وتعدَّل ، وهل يتغير ويُعدل إلا الخطأ؟ . . أما شريعة الله فلا تتغير ولاتعدل لأنها الحق . . والحق ثابت . ونعود مرة أخرى ونسأل : من هو الإنسان؟

نفهم من القرآن والسنة أن الإنسان مكون من ذات بشرية ، هى النفس والعقل والروح . وهى ذات بشرية غير مادية . . لذلك لما خلقها الله فى عالم المادة ـ فى الحياة الدنيا ـ جعل لها إطارًا ماديًا يحيزها هو الجسم . فجسم الإنسان ليس هو الإنسان ، ولكنه مجرد إطار مادى يحيز الذات الإنسانية الواعية المدركة الحية العاقلة ، وهى الإنسان الحقيقى . فإذا أراد أى علم أن يتعرّف على الإنسان؟ يجب عليه أن يتعرف على النفس والعقل والروح . وهذه الجواهر الثلاثة مجتمعة ؛ تكوّن الإنسان الحقيقى الذى تحير فى فهمه العلماء .



٢ ما هو الجسم وما يحدث له أثناء الحياة؟

لم تتضح أسرار خلق الجسم إلا بعد اختراع الميكروسكوب العلمى فى القرن الثامن عشر ، والميكروسكوب الإليكترونى فى القرن العشرين . . هنالك اكتشف العلماء أن جسم الإنسان مكون من خلايا . . وأن بكل خلية من أسرار الخلق ما يذهل العقل . . واكتشفوا أن لكل خلية عمرًا وينتهى ، وتحل محلها خلية جديدة طبق الأصل من الخلية التى ماتت . وهذا مجال من العلم كبير ، يبحث فيه علماء الأنسجة Histology . واتفق جميع العلماء المتخصصين على أن خلايا الجسم تتجدد باستمرار .

ونأخذ كرات الدم الحمراء مثلا : أن بالجسم خمسة لترات من الدم ، تتغير كل مائة وعشرين يوما ، أى إنه فى كل يوم يفقد الجسم نحو أربعين سنتيمترًا مكعبًا من الدم ، ويحل مكانه مقدار جديد مماثل له من الدم . . وفى ساعة واحدة يفقد الجسم نحو ١,٥سم٣ من الدم . ونتساءل كم فيه من كرات الدم الحمراء؟ نعرف ذلك بواسطة عملية حسابية بسيطة :

يحتوى الملليمتر المكعب من الدم على خمسة ملايين كرة دم حمراء . فالسنتيمتر المكعب يحتوى على خمسة مليارات . إذن ففى كل ساعة يفقد الجسم ٧,٥ مليار كرة دم حمراء طوال عمر الإنسان فى هذه الحياة . . أما خلايا الدم الأخرى فلكل منها عمر وينتهى فتموت ، وتحل محلها خلايا جديدة . فخلايا الدم البيضاء يوجد منها نحو ستة آلاف فى كل ملليمتر مكعب من الدم (ستة ملايين فى كل سنتيمتر مكعب) تموت جميعا فى غضون ساعات وأيام ، وتحل محلها خلايا جديدة . وصفائح الدم Platlets توجد فى الملليمتر المكعب منها نحو ربع مليون ، وتتغير كلها فى أقل من أسبوع .

وموت خلايا الجسم وإعادة خلقها من جديد يحدث فى كل أعضاء الجسم ، ولكن بسرعات مختلفة . . فبشرة الجلد الخارجية تموت ويعاد خلقها من جديد فى غضون أسابيع قليلة . والخلايا المبطنة للأمعاء تتغير كل يوم أو يومين . .

وموت خلايا الجسم وتجددها حقائق علمية ثابتة ، نجد التفاصيل العلمية عنها فى كتب علم الأنسجة Histology .

وذكر كتاب HAM's textbook of Histology وهو مرجع رئيسى فى علم الأنسجة ؛ أن خلايا الجسم تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ خلايا عادية .   ٢ ـ خلايا متخصصة .   ٣ ـ خلايا عالية التخصص .

١ ـ الخلايا العادية : هى خلايا معرضة للتلف ، ولها القدرة على الانقسام والتجدد ، أى إنها تموت ، وتخلق بدلا منها خلايا جديدة طبق الأصل فهى تتجدد باستمرار . وهذا ما يحدث فى معظم أعضاء الجسم . وبذلك تتغير الخلايا ولكن يظل عدد الخلايا الحية ثابتا . ومثال على ذلك : خلايا الدم وخلايا الجلد والخلايا المبطنة للأمعاء . .

٢ ـ الخلايا المتخصصة : تنقسم وتتجدد ببطء . مثل خلايا الكبد والغدد الصماء .

٣ ـ خلايا عالية التخصص : (Highly Specialized cells) خلايا تظل تنقسم إلى حد معين من الانقسام والتجدد ، وبعد ذلك تتوقف عن الانقسام والتجدد ، ومثال ذلك خلايا الجهاز العصبى وخلايا الدهن البنى . إلا أن هناك أراء علمية تؤكد تجددها هى الأخرى ، ولكن على مدى سنوات عديدة .

مما سبق نفهم أن جسم الإنسان فى تغير مستمر . وأن دورة الموت والحياة تجرى فى خلاياه . وهذا تفسير للحديث النبوى الشريف : «**مثل ابن آدم وفى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع فى الهرم حتى يموت**» . إلا أن الذات الإنسانية لاتموت ولاتتجدد .

ويقول المرجع العلمى المذكور فى علم الأنسجة إن جسم الإنسان بالكامل يتجدد على فترات زمنية ، بعضها قصير جدا وبعضها يطول إلى سنوات . . وإنه من المؤكد أن الإنسان الذى يصل إلى السبعين عاما من العمر ، يتجدد جسمه أكثر من عشر مرات .

وتعود كل الخلايا التى ماتت إلى تراب الأرض . . فمن التراب خلقت وإلى التراب تعود . . وهذه سنة الله فى خلقه ، إنه يبدئ كل خلق ثم يعيد خلقه من جديد . . ونجد ذلك فى كل خلق فى السماوات والأرض ، فى الدواب والحشرات والنبات . . بل والنجوم أيضا . . نقرأ عن ذلك فى قول الله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يروا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ (العنكبوت : ١٩) .

وفى قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (الروم : ٢٧) .

إنه قانون عام فى خلق كل خلق .

وإذا تذكرنا أن خلايا أجسامنا تموت بالملايين كل ثانية من الثوانى ، وتعود إلى تراب الأرض لعلمنا أننا لانسير بأقدامنا على رفات الآباء والأجداد فى تراب الأرض فحسب ؛ ولكننا نسير على رفات أجسادنا نحن أيضا .

وفى (سقط الزند) لأبى العلاء المعرى قصيدة يقول فيها :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عاد

خفف الوطء ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هذه الأجساد

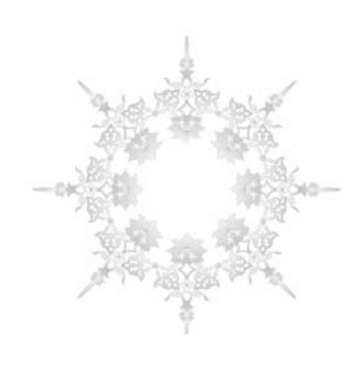
وقبيح بنا وإن قدم العهـ ... ـد هوان الآباء والأجداد

سر إن استطعت فى الهواء رويدا ... لا اختيالا على رفات العباد

لو علم أبو العلاء ما نعلمه نحن اليوم لغير البيت الأخير وقال :

سر إن استطعت فى الهواء رويدا ... لا اختيالا على رفاتك والعباد

ولو وصل الإنسان إلى هذه الحقيقة ما سار على الأرض مختالا فخورا ، ولسار عليها هونا ، ولمشى عليها رويدا .



٣ فطرة خلق الإنســــــــان

أخرج الإمام أحمد فى المسند عن أبى الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا ، وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلاتصدقوا وأنه يصير إلى ما جُبل عليه**» .

إن خلايا الجسم فى تغير مستمر ، بل إن الجسم يتغير كله ، ويخْلق جسم جديد مرات عديدة أثناء حياة الإنسان ، مما يدل على أن الجسم ليس هو الإنسان ، ولكن الجسم إطار مادى يحيز الذات الإنسانية التى هى الإنسان الحقيقى .

روى الإمام أحمد فى المسند عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «الحديث» وحتى نفهم بعض المعانى فى الحديث النبوى الشريف ينبغى علينا أن نطلع على الاكتشافات العلمية الحديثة فى علم طبقات الأرض وعلم الأحياء . . فالبراكين مازالت تثور فى أنحاء متفرقة من الأرض ، وبذلك تتكون جبال جديدة ، وتزداد الجبال البركانية القديمة ارتفاعا . . وتتعرض الجبال لعوامل بناء ، وعوامل هدم . . فمن عوامل البناء ثورات البراكين وخروج صهارى جديدة من باطن الأرض ؛ تسيِّل على سفوح الجبال البركانية حمماً ما تلبث أن تبرد وتكون طبقة جديدة من الصخور البركانية . . ومن عوامل الهدم تفتت الجبال نفسها بفعل عوامل التعرية المختلفة . وتحمل مياه الأنهار هذه الصخور المفتتة على شكل طمى . . وتُلقى بها إلى قيعان البحار . . وتتكون طبقات فوق طبقات هناك . إلى أن يزداد الضغط على قيعان البحار ، فتحدث تغيرات جيولوجية فى باطن الأرض ، من شأنها أن يهبط قاع البحر تحت ثقل طبقات الطمى المترسبة عليه . . ويرتفع الجبل الذى خف وزنه بسبب تآكل قمته بفعل عوامل التعرية . . فعوامل التعرية من مطر ورياح وثلوج ، تعمل على تآكل الجبال ، وعوامل جيولوجية فى باطن الأرض تعمل على رفع الجبل إلى أعلى . والنتيجة أن الجبل يبدأ فى النمو ثم يزداد حجما وارتفاعا ، وبعد ذلك يقل حجما وارتفاعا شيئا فشيئا إلى أن يختفى . . إذن فللجبال دورات من الطفولة ثم الشباب ثم الشيخوخة ثم الزوال . . وكل دورة لانلاحظها نحن ؛ لأن عمر الإنسان لايعد شيئا مذكورا بجانب عمر الجبال . . فكل دورة حياة وموت لأى إنسان لاتتعدى فى أغلب الأحوال المائة عام ، أما دورة حياة وموت الجبل فهى نحو ستين مليونا من السنين . . يزول الجبل بعدها ويظهر جبل جديد فى مكان آخر . . إذن فالجبال الهائلة التى يظنها الناس ثابتة أبد الدهر ، هى فى حقيقتها إلى زوال . . فكل جبل يزول عن مكانه يوما ما . . وكم من جبال ظهرت على سطح الأرض ثم زالت . . وظهر على سطح الأرض جبال أخرى فى توزيع آخر . . والذى يصعد إلى قمة جبل رسوبى مثلا مثل جبال الهملايا أو الألب يجد أصدافًا بحرية . . مما يدل على أن قمة الجبل هذه كانت جزءاً من قاع البحار يوما ما . . وارتفع قاع البحر إلى أعلى فصار جبلا . . ثم يأتى يوم يزول هذا الجبل . . ولادوام إلا لله عز وجل . فهذا حديث رسول الله ﷺ : «**إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا**»

وكان العلماء حتى القرن الماضى يعتقدون أن الجبال الحالية موجودة منذ بدء خلق الأرض ، وستظل إلى يوم القيامة . . وما علموا أن كلَّ جبل إلى زوال ، وهذه حقيقة علمية قد تثير الدهشة والعجب ، فكيف يأتى يوم يزول فيه جبل مثل جبل الهملايا أو الإنديز أو روكى أو الألب؟ . . وكيف تسوى بها الأرض . . بل الأمر أكثر من هذا ، فجسم كثير من الجبال الرسوبية العالية كانت جزءاً من قاع المحيط من قبل . . ودليل ذلك ما نجده فى قمم تلك الجبال من أحافير لأصداف بحرية وحيوانات لاتعيش إلا فى قاع البحار . . الأمر الذى يدل على أن تلك الجبال كانت جزءاً من

قاع البحر ، وارتفعت إلى أعلى بفعل قوى جيولوجية فى باطن الأرض ، رفعتها إلى أعلى . وكان العلماء قديما يفسرون وجود الأصداف البحرية فى قمم الجبال الرسوبية بحادث الطوفان . فقالوا إن الطوفان أغرق الأرض وما عليها من جبال لذلك نجد أصدافا بحرية فى قمم الجبال . وهذا تفسير غير صحيح لثلاثة أسباب أولا : إن طوفان نوح لم يشمل الأرض كلها . وإنما حدث فى الأرض التى كان فيها قوم النبى نوح فقط ، وليس هناك من دليل فى القرآن والسنة يدل على خلاف ذلك .

ثانيا : الطوفان لم يُغرق الجبال . وإنما علا ماء الطوفان حتى أغرق الوديان وغطى جزءاً من سفوح الجبال ، أما باقى أجسام الجبال فظلت عالية شاهقة فوق سطح الماء ، ودليل ذلك أن ابن النبى نوح قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، وأن سفينة النبى نوح عليه السلام استوت على الجودى ؛ أى رست على سفح جبل (الجودى) .

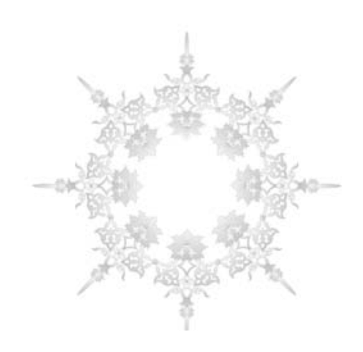
ثالثاً : البحار لو طغت على الجبال فى الطوفان لا يمكن أن تصل الحيوانات البحرية التى تعيش فى قاع البحر إلى سطح الماء وتصل إلى قمة الجبل ، إذن فلابد من الاعتقاد أن جسم الجبل كلّه ـ من القاع إلى القمة ـ كان جزءاً من قاع بحر أو محيط ، ثم ارتفع إلى سطح الأرض عاليا . . بفعل عوامل جيولوجية فى باطن الأرض رفعته إلى أعلى . . إلا أن عوامل التعرية ستعمل على تفتيته شيئا فشيئا . وعلى مدى نحو ستين مليونا من السنين ستختفى جبال هى الآن على سطح الأرض أمامنا ، وستظهر جبال جديدة فى أماكن جديدة وفى توزيع جديد . فهذا حديث رسول الله ﷺ : «**إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا**» .

ولقد اعتقد علماء التطور ، بناء على احتمالات وافتراضات بدون دليل علمى ثابت وأكيد ، أن التطور الذى حدث فى خلق الإنسان استغرق الملايين من السنين . وزعموا أن الإنسان الحالى انحدر من نوع من القرود أقل منه تطورا فى الماضى البعيد . وقال عالم هولندى يدعى ديبوا إن الإنسان القرد عاش فى جاوة وقال إنه اكتشف أحفورة هناك سنة ١٨٩١ . . وافترض أنها الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد . . لقد اعتمد علماء التطور فى نظرياتهم على الأحافير . . والأحافير هى تحول المواد العضوية فى الأجسام الميتة المطمورة تحت التربة إلى مواد صخرية أو معدنية . . وقد تظهر عدة أحافير تختلف شكلا وحجما لنوع واحد من المخلوقات ، ماتت جميعا فى زمن واحد ، وإنما يرجع الاختلاف فى أحجامها وأشكالها إلى الاختلاف فى أعمارها عند موتها . . ومهما يكن من أمر فإن نظرية أصل الأنواع تزعم أن المخلوقات جميعا نشأت من نوع واحد ، ثم مالبثت بعد ذلك أن تطورت أنواعا مختلفة . . واعتقد داروين أن علم الوراثة يسانده فى صحة نظرية أصل الأنواع ونظرية التطور . ومات داروين سنة ١٨٨٢ وعلم الوراثة لم يكن قد تأسس بعد على أسس علمية صحيحة . . وعندما تأسس علم الوراثة بعد ذلك على أسس علمية صحيحة ، أثبت أن للإنسان نظامًا وراثياً مميزًا لايكون لغيره من المخلوقات قط . . وكُل نوع من المخلوقات له نظام وراثى مميز له لايكون لغيره . . وقد تَحْدثُ طفرات وراثية تغير من بعض الصفات الخلقية الوراثية ، ولكنها لاتغير من النوع قط . . وخَرَجَ علماء الوراثة بنتيجة محددة ؛ وهى أن الإنسان خلق إنسانا وسيظل إنسانا وأنه لم ينحدر من نوع آخر من الخلق .

فإذا كان الجبل يتغير عن خلقه ويزول كما تحدثنا من قبل ، فالإنسان لايتغير عن خلقه قط . . فالجبل فى تغير مستمر فى شكله بسبب عوامل التعرية ، وسيزول يوما . أما خلق الإنسان فهو محكوم بعوامل وراثية تحفظ نوعه من أى تغيير إلى نوع آخر . ولقد أخطأ علماء نظرية أصل الأنواع وأصاب علماء الوراثة فى عصر العلم الحالى . فهذا حديث رسول الله ﷺ :

«إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوا ، وأنه يصير إلى ما جبل عليه» أى : على فطرة خلقه التى لاتتغير .

وظن بعض الناس أن الحديث النبوى ذكر الحقائق على سبيل المبالغة . . ولو كان الأمر كذلك ما قال الرسول ﷺ : **«فصدقوا»** . فالرسول ﷺ لايأمر الناس أن يصدقوا أمرًا فيه مبالغة . فقوله ﷺ **«فصدقوا»** يدل على أن ما ذكر حقائق ثابته لا مبالغة فيها . وما علم الناس المغزى العلمى لحديث رسول الله ﷺ إلا حديثا . . والرسول لاينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . . لا يبالغ فى قول ، ولا يقول إلا الحق والصدق واليقين .



عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى أن رسول الله ﷺ قال : «**يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول يارب أشقى أو سعيد؟ فيُكتبان . فيقول : أى رب أذكر أم أنثى؟ ، فيُكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلايزاد فيها ولاينقص**» .

الحديث الشريف يخبرنا أن أى إنسان منا وهو نطفةٌ فى رحم أمه وطوله أقل من سنتيمتر ، يكون قد كتب عليه مصيرة كله فى الدنيا والآخرة ، وحددت صفاته الخِلْقيَّة والخُلُقِيَّة . ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولاينقص . فقال رجل من القوم : يا رسول الله فيم العمل إذن وقد فرغ من كل هذا؟

فقال ﷺ «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» .

وأخرج الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : «**إن النطفة تكون فى الرحم أربعين يوما ثم تصير علقة مثل ذلك ثم تكون مضغة مثل ذلك ، ثم عظاما مثل ذلك . فإذا أراد الله أن يسوى خلقه بعث إليها ملكا فيقول الملك الذى يليه : أى رب أذكر أم أنثى؟ . أشقى أم سعيد . أقصير أم طويل؟ أناقص أم زائد؟ . أصحيح أم سقيم؟ . قال : فيكتب ذلك كله ثم تطوى الصحف فلايزاد فيها ولاينقص**» فقال رجل من القوم : ففيم العمل إذن وقد فرغ من كل ذلك؟ قال ﷺ : «**اعملوا فكل سيوجه لما خلق له**» . وفى رواية أخرى «**اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له**» .

فى كل من هذين الحديثين أوجه كثيرة من العلم والإعجاز العلمى نذكر منها نقطتين فقط وجدنا فيهما صورًا عظيمة من الإعجاز العلمى :

الأولى قوله ﷺ : «**ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص**» .

الثانية قوله ﷺ : «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» .

قوله ﷺ : «**ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولاينقص**» يشير إلى أن الصفات الخِلْقية والخُلُقِيَّة ومصير الإنسان فى الدنيا والآخرة ، يكون قد تحدد تماما والإنسان مازال جنينا فى بطن أمه فى حجم حبة الفول أو أقل حجماً . . فما تفسير ذلك من الناحية العلمية؟ إننا إذا وضعنا التقدم العلمى فى علم الوراثة فى خدمة تفسير الحديث الشريف ؛ لوجدنا فى كلماته الكثير من أوجه الإعجاز العلمى العجيب .

فما أن تتكون النطفة حتى تكون الشفرة الوراثية لها قد تحددت ولا يزاد فيها ولاينقص . . وستظل موجودة فى كل خلايا الإنسان طوال حياته الدنيا لاتتغير أبدًا . . اللهم إلا بعض الطفرات الوراثية التى تغير من بعض الصفات الوراثية ولكنها لاتغير من الشفرة الوراثية شيئاً . . ولكن كيف كان ذلك :

تنقسم خلايا الجنين أزواجًا أزواجا ، والخلايا الجديدة صورة طبق الأصل من الخلايا التى انقسمت منها . . وهكذا خلايا الجنين بعد خروجه من بطن أمه . فما السبب فى ذلك؟ إنها العوامل الوراثية الموجودة فى نواة كل خلية حية ، والتى تسيطر على كل نشاط الخلية . . وتسمى أحيانا الشفرة الوراثية فى الخلايا الحية . . وهى متماثلة تماما فى كل الخلايا . وتنقل الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء ، وإلى الأحفاد ، وأحفاد الأحفاد ، والذرية كلها . ومثلها مثل الختم . يختم الآف الملايين من المرات . فتظهر الصورة كل مرة طبق الأصل من كل صورة ،

لاتفاوت فيها ولا تبديل ، ونجد ذلك فى قول الله عز وجل ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ يتسع المعنى فى الحديث الشريف ، إلى أن الصفات الوراثية للإنسان تبدأ فيه وهو جنين فى بطن أمه . ولن تتغير بعد ذلك أبدًا . ولايزاد فيها ولاينقص . كما قال الحديث النبوى الشريف .

وأين الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى الشريف؟ إنه يبدو واضحًا إذا علمنا أن علم الوراثة وما اكتشف من عوامل الوراثة التى تنتقل إلى الذرية ، والتى لايزاد فيها ولاينقص ، كل ذلك العلم لم يكتشفه العلماء فى خلية الإنسان إلا فى منتصف القرن العشرين ، أما قبل ذلك فكان البحث فى خلايا النبات والخلايا الحيوانية . . ولم يكن أى إنسان قبل جريجور مندل فى أواخر القرن التاسع عشر ، يعرف أى شىء صحيح عن علم الوراثة . .

وبذلك ذكر الحديث النبوى الشريف حقائق ثابتة فى علم الوراثة ، لم يكتشفها العلماء إلا بعد دراسات مستفيضة فى علم الوراثة ، بعد أربعة عشر قرنا من الزمان ، مما يعد إعجازًا علميًا بليغًا .

لذلك لما قرأت هذا الحديث النبوى الشريف على المرحوم الدكتور أحمد الكباريتى وكان أستاذًا لعلم الخلية والوراثة فى جامعة بون بألمانيا دهش دهشة عظيمة . . وقال ما هذا الإعجاز العلمى العظيم . . هل هذا ما قاله رسول الله ﷺ حقا؟ إننا لم نصل إلى العلم بذلك إلا فى القرن العشرين . . ولم يكن أحد قبلنا من العلماء يعلم شيئا عن ذلك ، فلاشك إذن أن ما قاله رسول الله ﷺ كان وحيا من الله تعالى له ومحال أن يكون من علم البشر .

ونفهم من علم الوراثة فى عصر العلم الحالى أن الصفات الوراثية قد تنقل صفات مرضية فى الذرية ، فيكون بعض الأبناء أو الأحفاد قصيرًا أو طويلاً ، ناقصًا أو زائدًا ، صحيحًا أو سقيمًا . وهنا ندهش مرة أخرى ونَعْجب ونُعجب بحديث نبوى شريف يعلن الإعجاز العلمى واضحًا وجليًا ، أخرجه الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : «**إن النطفة تكون فى الرحم أربعين يوما . ثم تصير علقة مثل ذلك ثم مضغة مثل ذلك ثم عظاما مثل ذلك ، فإذا أراد الله أن يسوى خلقه ، بعث ملكا فيقول الملك الذى يليه : أى رب أذكر أم أنثى؟ . أشقى أو سعيد؟ . أقصير أم طويل؟ . أناقص أم زائد؟ . أصحيح أم سقيم؟ قال : فيكتب ذلك كله**» إلخ الحديث الشريف .

نلاحظ فى الأحاديث النبوية التى ذكرناها حقائق غيبية فى قوله ﷺ : «**أشقى أم سعيد؟ ويكتب أجله وعمله وأثره ورزقه**» لقد تحدد مصير الإنسان فى الدنيا والآخرة وهو جنين فى بطن أمه ، إنها حقائق غيبية ، لايصل إليها العلم التجريبى . . إلا أنه ينبغى علينا أن نؤمن بها عقلاً واقتناعًا . . لماذا؟ لأن الحديث النبوى صدق معنا فيما أخبرنا به عن حقائق علمية لم تكتشف إلا حديثا جدًا . . والذى صدق معنا فيما نعلم ، لابد أن يكون صادقًا معنا أيضا فيما لانعلم .

ونلاحظ فى الحديث النبوى الشريف أن رسول الله ﷺ قال فى آخره : «**ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولاينقص**» فقال رجل من القوم : وفيم العمل إذن يا رسول الله وقد فرغ من كل هذا؟

يعنى ما دورنا فى الدنيا وعملنا فيها ، وقد كتب علينا رزقنا وأثرنا وكتبت كل أعمالنا وخطواتنا فى الدنيا؟ . (قال : وفيم العمل إذن يا رسول الله وقد فرغ من كل هذا؟) قال رسول الله ﷺ : «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» .

لو تدبر العلماء القرآن والحديث النبوى ، ما اختلفوا فى موضوع الجبر والاختيار أزمانًا طويلة ، ولوَفَّرُوا على أنفسهم عناء الخلاف فى هذا الموضوع والاختلاف فيه ، ولأدركوا الإعجاز العلمى العظيم فى قوله ﷺ : «**اعملوا فكل ميسر لما خلق الله**»* .

(*) (الجبر والاختيار) الباب السادس من هذا الكتاب .

٥ العلاج الجينى

أخرج الإمام أحمد فى المسند عن على بن زيد عن أبى عبيدة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال :

«إن النطفة تكون فى الرحم أربعين يوما ثم تصير علقة مثل ذلك ثم تكون مضغة مثل ذلك ثم عظاما مثل ذلك . فإذا أراد الله أن يسوى خلقه بعث إليها ملكا فيقول الملك الذى يليه : أى رب أذكرٌ أم أنثى؟ . أشقى أم سعيد؟ . أقصير أم طويل؟ . . أناقص أم زائد؟ . أصحيح أم سقيم؟ . قال فيكتب ذلك كله ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولاينقص» فقال رجل من القوم : ففيم العمل وقد فرغ من كل هذا؟ فقال ﷺ : **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»** .

إننا إذا وضعنا التقدم العلمى فى علم الوراثة فى خدمة تفسير هذا الحديث الشريف ، فإننا نجد فيه أوجها كثيرة من الإعجاز العلمى . . فلقد اكتشف علماء الوراثة أن الجينات الوراثية تنقل الصفات الوراثية للذرية ، وقد يكون بعضها صفات مرضية ، فيكون الأبناء أو الأحفاد أو بعض منهم قصيرًا أو طويلا ، ناقصًا أو زائدًا ، صحيحًا أو سقيما . . وهذا ما ذكره الحديث النبوى الشريف تماما .

ولقد ذكر الحديث الشريف والأحاديث الأخرى حقائق غيبية كما فى قوله ﷺ : **«أشقى أم سعيد؟ ، ويكتب عمله وأجله وأثره ورزقه»** وهذا يحدد مصير الإنسان فى الدنيا والآخرة وهو لايزال جنينًا فى بطن أمه . . وهى حقائق لاتخضع لأى علم تجريبى ، إلا أننا ينبغى أن نؤمن بها عقلاً واقتناعًا ، لأن الحديث النبوى صدق معنا فيما أخبرنا به من حقائق علمية لم يكتشفها العلماء الا حديثًا . والذى صدق معنا فيما نعلم ، لابد أن يكون صادقا معنا أيضا فيما لانعلم .

إلا أن الموضوع فى حاجة إلى بعض التفصيل والإيضاح : فلقد أدى التطور السريع فى علم الوراثة والخلية ، إلى تمهيد الطريق العلمى والتطبيقى فى علاج المادة الوراثية التى تحمل جينات مرضية ، وذلك باستبدالها بجينات سليمة . ولقد استطاع العلماء معرفة الجينوم الكامل فى الخلية البشرية (والجينوم هو كل عوامل الوراثة المحمولة على الكروموسومات فى الخلية) والعلاج الجينى صار ميداناً كبيرًا للعلماء المتخصصين ، إلا أننا نشير إليه إشارة عابرة وموجزة . ويجب توافر ثلاثة أمور رئيسية لإتمام العلاج الجينى وهى :

الأول : معرفة الجين المريض وإيقاف عمله ، أو استبداله بجين سليم ، أو تنشيطه لإنتاج محفزات الخلايا Cytokines كوسيلة لعلاج بعض الأمراض السرطانية .

الثانى : الجين العلاجى وهو إما يكون من جينات طبيعية محفوظة فى مكتبة الجينات (وهى معامل خاصة تحفظ فيها الجينات الطبيعية التى تم تقطيعها بواسطة خمائر معينة) وإما مواد جينية ذات تسلسل قاعدى قصير من الـ DNA ناقص الأوكسجين (حامض RNA) .

الثالث : ينقل الجين السليم (العلاجى) إلى الجين المريض بطرق علمية خاصة ، من شأنها التوصل إلى العلاج المطلوب . وينقل الجين العلاجى بواسطة ناقلات الجينات ، وهى إما فيروسات معالجة Viral vectors أو بلازميد Plasmid, أو ليبوزمات Liposomes التى تمتاز عن الفيروسات بأنها أكثر أمانا منها ، وإن كانت أقل كفاءة ، وبعض الجينات العلاجية تحتاج لناقلات كبيرة ، تستوعب حجم الجين الكبير . كما أن ناقلات الجين العلاجى

تحمل أيضا بعض المـــواد الجينية لمتابعة العلاج الجينى بعد الحقن ، مثل الجينات الدالة Marker genes أو الجينات المتحكمة Promotors لتتحكم فى عمل الجين العلاجى بعد حقنه ، وإيقاف عمله إذا أدى إلى نتائج غير مرغوبة(*) وتوجد طريقتان رئيسيتان لأداء العلاج الجينى :

١ ـ العلاج الجينى للخلايا الجينية Germline Gene therapy :

ويتضمن استبدال أو تصحيح الجينات المريضة أو غير الطبيعية فى الجنين عند ابتداء تكوينه ، بحيث تتكاثر خلاياه الجينية وهى تحمل الجينات الصحيحة . وهذا النوع من العلاج الجينى هو الأفضل لأنه يصحح الجينات المريضة عند بدء تكوين الجنين ، وبالتالى لايحتوى جينوم هذا الجنين على الجينات المريضة .

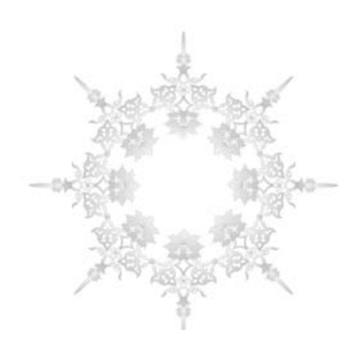
وهذا النوع من العلاج الجينى ، لم يسمح باستعماله فى أجنة الإنسان حتى الآن ؛ لأنه يشمل بعض المخاطر فى بدء تكوين الجين ، مثل تنشيط جينات ضارة أو تعطيل جينات مفيدة ؛ مما يؤدى إلى اختلال فى توازن الجينات ؛ إلا أن هذا النوع من العلاج الجينى قد تم استعماله فى علاج بعض الأمراض الوراثية فى الحيوانات .

٢ ـ العلاج الجينى للخلايا الجسدية Somatic Gene therapy :

ويتضمن نقل جين سليم إلى خلايا العضو المصاب بالمرض الوراثى لتصحيح الطفرة فى الجين فى هذا العضو فقط ؛ أى إن التصحيح الجينى يكون خاصًا بالمريض فى العضو المصاب ، ولايصحح الجينوم كله . وفى الوقت الحالى تقام تجارب للعلاج الجينى فى الإنسان لبعض الأمراض ، منها مرض نقص المناعة ، ومرض ارتفاع الكوليسترول فى الدم ، ومرض التليف الكيسى للبنكرياس ، ومرض ضمور العضلات الوراثى ، والأمراض الخبيثة .

ويقوم العلماء الآن بإتمام مشروع الجينوم البشرى ويهدف إلى رسم خريطة كاملة لكل جينات الإنسان . وقد تم توزيع الجينات على العديد من المراكز العلمية الدولية المتخصصة فى هندسة الجينات . . ويقدر لهذا المشروع أن ينتهى سنة ٢٠٠٥ .

إن إنجاز مشروع الجينوم البشرى سيجعل بالإمكان تحديد الجين المطلوب علاجه ، كما سيمكن الإنسان من تعديل شفرته الوراثية تبعًا لما يريد من صفات ؛ وذلك بإدخال الجينات المسئولة عن تلك الصفات إلى جينوم الخلية الجينية الأولية ، من خلال تقنيات التطعيم الجينى ، وكذلك بإدخال العديد من القطع الجينية إلى داخل جينوم الخلية الجسمية لزيادة قدرتها الحيوية ، وتحسين كفاءة وظائفها ، أو أداء وظائف جديدة لم تكن موجودة من قبل .



(*) من محاضرة للدكتورة : إكرام عبد السلام .



فى علم الأجنة

الباب الخامس

فى علم الأجنة

١ خلق الأجنة

أخرج البخارى ومسلم عن زيد بن وهب قال عبد الله حدّثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ فقال : «**إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا يؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح**» إلخ الحديث الشريف .

أخرج الإمام مسلم عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد قال النبى ﷺ : «**يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة ، فيقول : يارب أشقى أو سعيد؟ فيكتبان . فيقول : أى رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان . ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه . ثم تطوى الصحف . فلا يزاد فيها ولاينقص**» .

أخرج مسلم عن أنس بن مالك ، ورفع الحديث أنه قال : «**إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكا . فيقول أى رب نطفة . أى رب علقة . أى رب مضغة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقا قال الملك : أى رب ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه**» .

ذكر فى التفسير بالمأثور للسيوطى : أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا**﴾ (المؤمنون : ١٤) قال : نفخ فيه الروح .

أطوار خلق الجنين

ما أن يصل جيش الخلايا الذكرية إلى البويضة فى إحدى قناتى الرحم ، حتى يتجمع حولها من كل اتجاه . ويأذن الله تعالى لخلية ذكرية واحدة أن تقتحم البويضة وتتحد بها . وبذلك تتكون أول خلية بشرية كاملة ، هى بدء خلق الإنسان .

وما أن يحدث ذلك حتى يحدث تغيُّر هائلٌ وسريع ، وتنقسم الخلية الملقحة الأولى إلى خليتين ، والخليتان أربع ، والأربع إلى ثمان ، والثمانى إلى ست عشرة خلية ، وتتكون النطفة الأولى . . وتكبر شيئاً فشيئاً وهى على جدار الرحم وتصير فى حاجة إلى غذاء من دم الأم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باختراق جدار الرحم والتعلق به ، حيث تتصل خلايا الجنين بدم الأم اتصالا غير مباشر ، إلا أن المواد الغذائية فى دم الأم وغاز الأوكسجين به تصل إلى خلايا الجنين وتغذيها . .

وذُكرت أطوار خلق الجنين فى رحم أمه فى قول الله عز وجل : ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ**﴾ (المؤمنون : ١٢) .

هذا أصل الإنسان . وهكذا خلق آدم من طين . والسلالة الخلاصة ؛ فآدم خلقه الله تعالى من أديم هذه الأرض ، فسمى آدم بما خلق منه . وبعد ذلك يقول الله عز وجل عن خلق بنى آدم :

﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ (المؤمنون : ١٣ ، ١٤) فى هذ الآية الكثير من أوجه

الإعجاز العلمى ، سنحاول أن نتناولها فى إيجاز شديد : إن الذى يقرأ تفسير هذه الآية فى كتب التفسير ، يلاحظ أن المفسرين فسروا كلمة علقة أنها نقطة دم جامد ، لأنهم نقلوا مما كان عليه اعتقاد الناس فى عصر نزول القرآن الكريم ، وما بعده بألف عام ، أن الجنين خلق من نقطة دم جامد . إلا أن القرآن الكريم لم يوافقهم على خطأ اعتقادهم ، وذكر الحق والصدق واليقين ، وكذلك كان الوحى فى الأحاديث النبوية المشرفة :

ففى الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«إن الله عز وجل وكّل بالرحم ملكا فيقول أى رب نطفة، أى رب علقة، أى رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضى خلقا قال الملك: أى رب أذكر أو أنثى؟، شقى أو سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه» .

نلاحظ أن الملك سأل الله عز وجل عن الجنين فى مراحله الأولى أذكر أم أنثى؟ . .

ومن المعروف علميا أن جنس الجنين يتحدد لحظة إخصاب البويضة من الخلية الذكرية الجنسية . فدل هذا على أن الملك الذى وكل بالرحم لايعلم الغيب ، وإنما الغيب لله وحده ، ومن ارتضى من رسول .

وفى الصحيح أيضا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح» . . الخ الحديث الشريف .

يعنى الروح ينفخها الملك فى الجنين بعد الأربعينيات الثلاثة ، أى بعد ١٢٠ يومًا . وقد تكون متداخلة فتنفخ الروح فى أقل من ١٢٠ يومًا .

وذكرت كلمة (أجنة) فى القرآن الكريم فى آية واحدة ، وذلك فى سورة النجم ﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)** ﴾ وكلمة جنين فى اللغة تعنى الشىء المستور . . وسمى الجنين جنينًا لاستتاره فى بطن أمه .

وسُمى الجنُّ لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار . **والمجنون** من سُتر عنه عقله .

فالجنين هو الولد مادام فى بطن أمه ، لاستتاره فيه وجمعه أجنة .

والجُنَّة هو كل ما وقاك . كما قال رسول الله ﷺ : «**الصوم جُنّة**» أى وقاية لصاحبه من سقوطه فى الشهوات .

والجنة : هى الحديقة ذات الشجر والنخل حولها يسترها ويظللها .

إذن فالجنين هو الولد مادام فى بطن أمه ـ فى كل أطواره ؛ نطفة وعلقة ومضغة ، واكتمال خلقه ، حتى خروجه من بطن أمه . . فإذا خرج من بطن أمه لم يعد جنينا .

الإعجاز فى خلق النطفة

قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً** ﴾ (المؤمنون : ١٣ ، ١٤)

فى هذه الآيات الكريمة إعجاز علمى وبلاغى عجيب . . نفهمه إذا علمنا أن أمشاج الذكر وأمشاج الأنثى ، كانتا منفصلتين إحداهما عن الأخرى . البويضة فى جسم امرأة ، والخلية الذكرية فى جسم رجل ، ثم تلاقت البويضة والخلية الذكرية واتحدتا ، وكونتا البويضة الملقحة أو النطفة الأولى . . **وما الفرق بين خلق النطفة والعلقة والمضغة؟**

خلق العلقة والمضغة هما أطوار فى الخلق يعقب بعضها بعضا فى نفس الجنين ، وفى نفس الرحم . ولاتختلف إحداهما عن الأخرى إلا فى درجة التسوية فى الخلق ، إذن هناك فرق واضح بين خلق النطفة من أمشاج ذكر

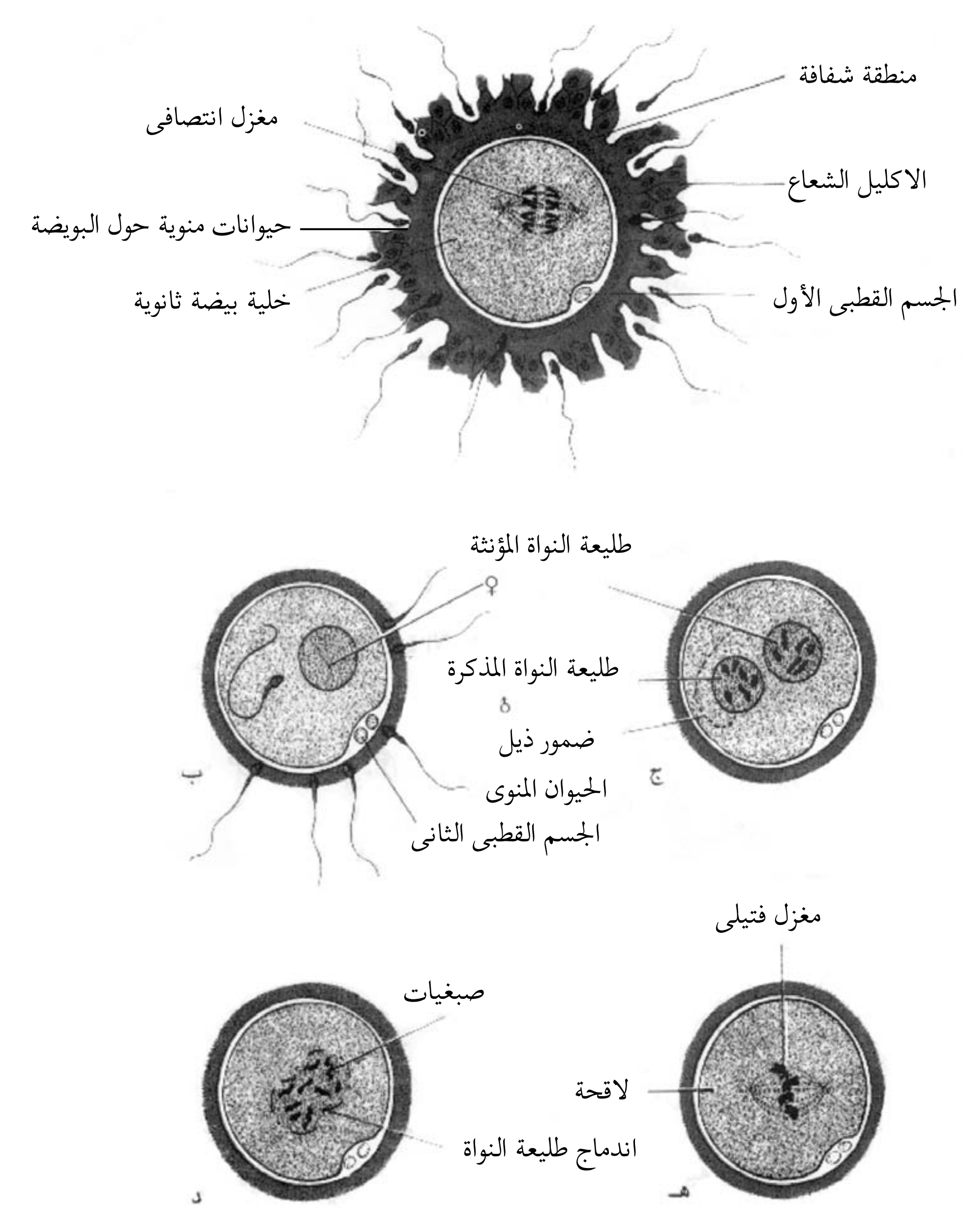
وأنثى ، كانت متفرقة فى جسمين مختلفين ثم تجمعت ، وبين خلق العلقة والمضغة بعد ذلك .

لذلك نجد التعبير القرآنى فى بالغ الدقة البلاغية والعلمية حيث يقول تعالى :

﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا** ﴾ (المؤمنون : ١٣ ، ١٤)

والجعل فى اللغة أشمل من الخلق . فالجعل يعنى الجمع بعد تفرق ، الخلق والأمر .

لذلك لم تقل الآية **ثُمَّ خلقناه نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** ولكن الله تعالى قال : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** ﴾ لأن الله خلق النطفة من مشيجين كانا متفرقين فجمعهما وخلطهما وخلق منهما نطفة ، وهذا النمط فى خلق النطفة ، لم يكن فى خلق العلقة والمضغة .



هذا الرسم يبين الأطوار التى تحدث من أول إخصاب البويضة بالحيوان المنوى إلى تكون النطفة واختلاط أمشاج البويضة بأمشاج الحيوان المنوى ، وما يحدث بعد ذلك

لذلك وصف طور خلق النطفة **بالجعل** وطور كل من العلقة والمضغة **بالخلق**.. ولقد مرت مراحل كثيرة بين مرحلة خلق آدم من سلالة من طين . ومرحلة كل واحد من ذريته نطفة فى رحم أمه . . لذلك عبر عن ذلك بالحرف **ثم**.. الذى يفيد الترتيب مع التراخى فى الزمن .

أما مراحل خلق العلقة والمضغة والعظام واللحم ، فهى مراحل يتبع بعضها بعضا ويعقب بعضها بعضا فى أيام وأسابيع ، لذلك سبق ذكر تلك المراحل بالحرف **فاء** الذى يفيد اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى وصف واحد كما يفيد الترتيب مع التعقيب .

فذلك سر حرفى **ثم والفاء**. وفى هذا إعجاز بلاغى وعلمى قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً** ﴾ (المؤمنون : ١٣ - ١٤)

إن سورة المؤمنون هذه نزلت فى مكة المكرمة ، وهى من أواخر السور المكية ، فلم ينزل بعدها فى مكة إلا أثنتا عشرة سورة فقط . ونزلت فى عصر كان العلماء فى جهل تام بحقائق علم الأجنة ، ولم يدرك العلماء الإعجاز العلمى والإعجاز البلاغى فى الآية الكريمة إلا بعد أربعة عشر قرنا من الزمان . وأتساءل : لو كان القرآن من تأليف إنسان ، مهما بلغ ذلك الإنسان من علم ، لتحدث فى سياق الحديث عن خلق الأجنة بما كان العلماء يعتقدون فى عصره ، أما أن يرفض القرآن كل النظريات المخطئة التى كان سائدة بين الناس جميعا ، ويقرر حقائق علمية لاتعرف ولاتشاهد إلا بواسطة الميكروسكوب الذى لم يُخترع إلا بعد نزول القرآن بأكثر من ألف عام ؛ وأما أن يقرر حقائق علمية ويؤكدها فى آيات كثيرة ، ويذكر تفاصيلها ، فإن ذلك يقوم دليلا ، بل أدلة لاتقبل الشك ولاتقبل الجدل ، على أن هذا القرآن لايمكن أبدًا أن يكون من تأليف إنسان . . ولابد أن يكون منزلا من خالق الإنسان ، وهو الله عز وجل على عبده ورسوله . وليس هناك احتمال علمى آخر .

فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما

قديما فسر المفسرون كلمة مضغة ، أنها تشبه اللحم الممضوغ . . وقالوا إنها قطعة من اللحم . وليس هذا صحيحا . فليس فى المضغة خلية لحم واحدة . . والمقصود باللحم العضلات ، تظهر العضلات أول ما تظهر بجوار فقرات العمود الفقرى . **يعنى يخلق العظام** أولا ثم **تخلق العضلات** . لأن العضلات لابد أن تتصل بالعظام . فلا معنى لوجودها إلا بوجود العظام . لذلك يخلق الله العظام أولا ثم يخلق العضلات بعد ذلك .

تظهر عضلات الذراعين بجوار فقرات العنق ، وبعد ذلك تهاجر تلك العضلات إلى عظام العضد والذراع والكف والأصابع ، **وتكسو العظام من كل اتجاه** ، وتسحب معها الأوعية الدموية والأعصاب الخاصة بها .

لذلك نجد أن الأوعية الدموية والأعصاب التى تغذى عضلات اليد مثلا فى الإنسان ، تأتى من منطقة الرقبة ، مكان تكون عضلات الذراعين فى الجنين .

وعضلات الساقين تتكون فى الجنين بجوار فقرات أسفل الظهر ، ثم تهاجر لتكسو عظام الساقين والقدمين من كل اتجاه ؛ وتسحب معها الأوعية الدموية والأعصاب التى تغذيها من منطقة تكونها فى أسفل الظهر . لذلك نجد أن عضلات القدم تتغذى من أوعية دموية وأعصاب تنشأ من منطقة أسفل الظهر .

فالعظام خُلقت أولا ثم خُلقت العضلات بعد ذلك ، تكسوها من كل اتجاه . ولا يمكن أن تخلق العضلات قبل العظام ؛ لأن وظيفة العضلة الحركية هى أن ترتبط بعظمتين بينهما مفصل ، إذا انقبضت العضلة أو انبسطت تحرك ذلك المفصل . فإذا لم تكن العظام موجودة فلا معنى لوجود عضلات الحركة .

وقديما اعتقد العلماء أن الجنين خلق من قطعة من اللحم ، ثم ظهر العظم بعد ذلك . ولقد اكتشف العلماء فى عصر العلم الحالى أن ذلك ليس صحيحا . والصحيح أن العظام تكونت أولا فى الجنين وكست العظام بعد ذلك .

وإذا بنا نجد القرآن العظيم يذكر هذه الحقيقة العلمية التى لم تتبين لنا إلا بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرناً من الزمان حيث يقول الله عز وجل : ﴿ **فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا** ﴾ إنها آية فيها إعجاز علمى بكل المقاييس . . وتنفى تماما أن يكون القرآن من قول بشر وبعد ذلك قال ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** ﴾ .

وهذا إعجاز علمى عجيب . . وإعجاز بلاغى أعجب . . فلم تحدد الآية ما هو الخلق الآخر . إلا أننا نجد أن الجنين فى هذه المرحلة يأخذ شكلا آخر . **ذلك** أن الأجنة فى الفقريات جميعا إلى مرحلة تكون العظام واللحم تكون متشابهة فى المظهر الخارجى إلى حد بعيد . . ولايستطيع أى إنسان أن يفرق فى هذه المرحلة ، من بين جنين قطة ، وجنين أرنب ، أو جنين كلب ، أو جنين إنسان . فكلها أجنة متشابهة تماما فى المظهر الخارجى . ولكن بعد مرحلة تكون العظام واللحم تظهر الصفات الخلقية الخارجية المميزة لكل نوع من الخلق .

وفى القرن العشرين ظهر عالم ألمانى يدعى فون بير ، وكان يبحث فى علم الأجنة ، وتوصل إلى حقائق علمية وضعها فى قانون سماه باسمه (قانون فون بير) يقول : (كما بالشكل التالى)

١ ـ الأطوار المبكرة فى أجنة الحيوانات يشبه بعضها بعضا .

٢ ـ بعد أن يكبر الجنين يصير خلقا آخر خاصا بنوعه ، ويختلف عن شكل غيره من أجنة الحيوانات الأخرى .

وقد تأكد صدق هذا القانون من الناحية العلمية .

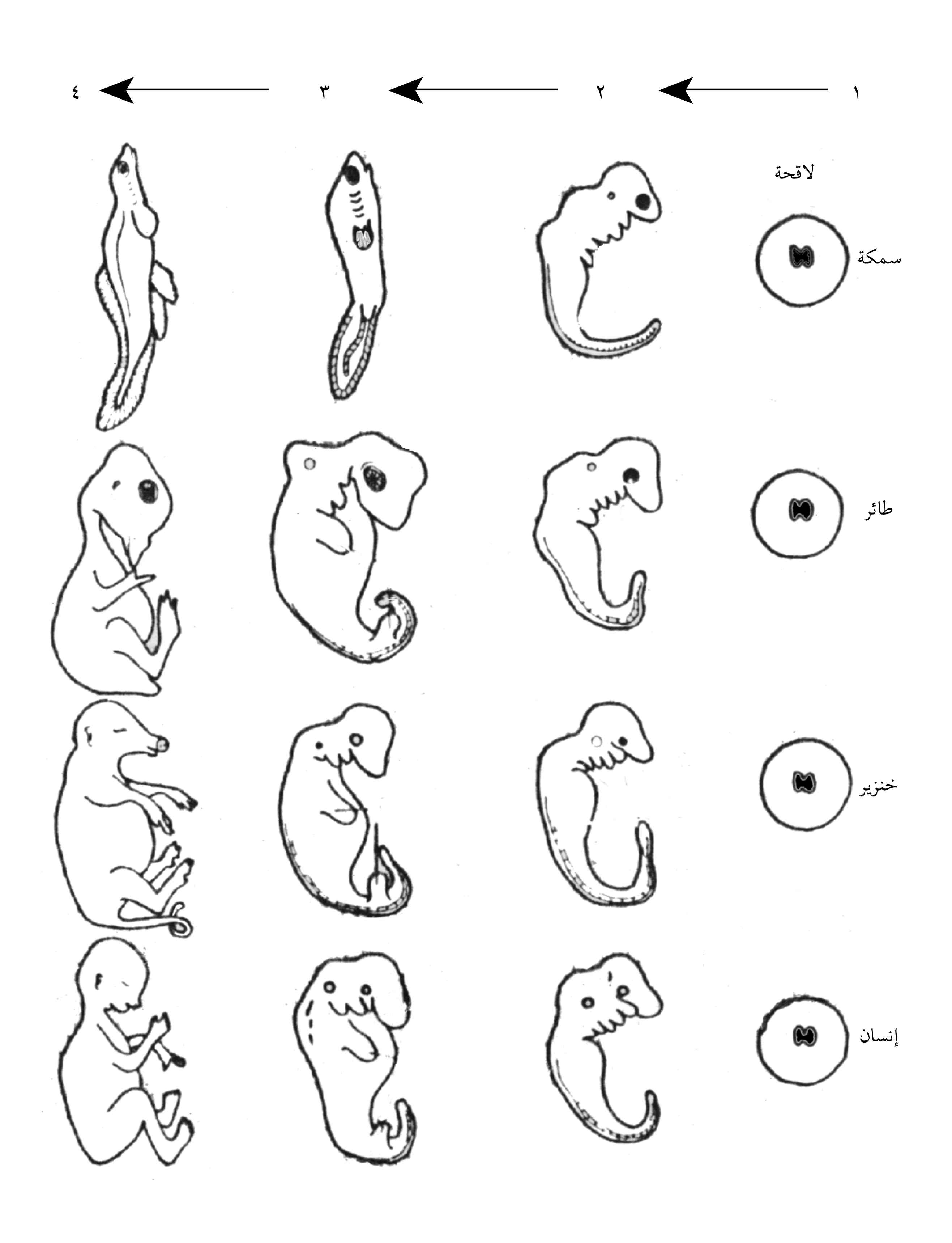
وإذا بالقرآن العظيم يذكر هذه الحقيقة ، قبل أن يصل إليها الانسان بأربعة عشر قرنا من الزمان . قال تعالى :

﴿ **فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ .

وليس معنى تشابه الأجنة فى مراحلها الأولى فى الشكل الخارجى أنها تتشابه أيضا فى عواملها الوراثية . . لا . . فلكل نوع من الخلق شفرته الوراثية الخاصة به ، لايشترك معه فيها نوع آخر من الخلق . . فإذا كان الشكل الخارجى فى الأجنة يتماثل ؛ فإن الشفرة الوراثية فيها تختلف .

وتغير شكل الجنين الخارجى يتزامن معه تطور آخر فى الخلق وهو نفخ الروح البشرية فيه . وبذلك تكتمل صفاته البشرية ويصير بشرًا . . وهذه حقيقة غيبية لاتخضع لعلم تجريبى ، وليس لها من مصدر للعلم عنها إلا الوحى الإلهى فى القرآن والسنة . فقد أخرج الإمامان البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال :

«يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرْسَل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتابة أربع: رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد» . إذن فنفخ الروح يجعل من الجنين بشرًا .



قانون فون بير : تشابه الأطوار المبكرة لأجنة الفقاريات

٢ خلق الذكر والأنثى

أخرج مسلم فى الصحيح عن أبى أسماء الرحبى عن ثوبان مولى رسول الله ، أن رسول الله ﷺ قال فى حديث له : «**إذا علا منىُّ الرجل منىَّ المرأة أذكرا بإذن الله ، وإذا أعلا منىُّ المرأة منىَّ الرجل ، آنثا بإذن الله**» .

أخرج أحمد فى المسند عن أنس عن عبدالله بن سلام أن رسول الله ﷺ قال فى حديث له : «**إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع إليه، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزع إليها**» .

وأخرج أحمد فى المسند عن أنس بن مالك عن عبدالله بن سلام أن رسول الله ﷺ قال فى حديث له : «**إذا سبق ماءُ الرجل ماء المرأة، ذهب بالشبه. وإذا سبق ماءُ المرأة ماء الرجل ذهبت بالشبه**» .

ذكر الحديث النبوى الشريف (ماء الرجل) و(ماء المرأة) . . ونحن نعلم فى عصر العلم الحالى أنه لا دخل للماء فى خلق النطفة وإنما فى الأمشاج الموجودة فى الماء : الحيوانات المنوية فى ماء الرجل والبويضات فى ماء المرأة . ولم يذكر الحديث النبوى هذه الحقائق العلمية لأنها لا تعرف إلا بالميكروسكوب . . والميكروسكوب لم يُخترع إلا بعد عصر النبوة بأكثر من ألف عام . . ولو ذكرها ما صدق الناس قديماً .

الإعجاز العلمى فى تحديد جنس الجنين

حتى أوائل القرن العشرين ، لم يكن العلماء قد درسوا الخلية البشرية من الناحية الوراثية بعد . .

وفى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين ، توصل العلماء إلى أن الخلية البشرية تحتوى على ستة وأربعين كروموسوما . وأن الكروموسومات أجسام مكونة من الحامض النووى . . وتحمل العوامل الوراثية . . وهى موجودة فى خلايا الجسم جميعاً التى ربما يصل عددها إلى نحو مائتين وخمسين مليار خلية . . وفى كل خلية أربعة وأربعون كروموسومًا ، واثنان من الكروموسومات جنسيان ، وهذان الكروموسومان يحملان صفتى الذكورة أو الأنوثة .

والكروموسومات الجنسية فى المرأة هى على شكل XX ، وفى الرجل على شكل YX . فإذا انقسمت الخلايا فى مبيض المرأة لتنتج بويضات ، فهى تنقسم انقساماً اختزالياً ينتج بويضتين ، كل منهما تحمل الكروموسوم الجنسى الأنثوى X ، وإذا انقسمت الخلايا الجنسية فى خصية الرجل انقساماً اختزالياً ، نتج عن ذلك حيوانان منويان ، يحمل أحدهما الكروموسوم الجنسى المؤنث X ، ويحمل الآخر الكروموسوم الجنسى المذكر Y .

مما سبق نفهم أن كل بويضة فى مبيض المرأة تحمل الكروموسوم الجنسى المؤنث X ، وأن الحيوانات المنوية فى ماء الرجل يحمل بعضها الكروموسوم الجنسى المؤنث X ، ويحمل بعضها الآخر الكروموسوم الجنسى المذكر Y ، وبمعنى آخر ؛ الحيوانات المنوية فى منى الرجل نصفها تقريباً إناث من الناحية الوراثية ، ونصفها الآخر ذكور . (انظر الرسم ١) .

وإذا اتحد حيوان منوى مذكر بالبويضة صار الجنين ذكرًا . وإذا اتحد حيوان منوى مؤنث بالبويضة صار الجنين أنثى . من هذا يتضح أن نوع الحيوان المنوى فى منى الرجل ، هو الذى يحدد جنس الجنين ذكرًا كان أم أنثى . ولا دخل لبويضة المرأة فى تحديد جنس الجنين .

وفى أسرار خلق النطفة ما لا يعرف إلا بالميكروسكوب ، لأن البويضة الملقحة ــ وهى النطفة الأولى ـ لا يزيد

قطرها على خُمس ملليمتر ـ فهى لا ترى بالعين المجردة . . ولا سبيل إلى معرفة بعض أسرارها إلا بالاستعانة بالميكروسكوب العلمى ، لذلك لم يكن العلماء على علم صحيح بتكوين النطفة قبل اختراع الميكروسكوب العلمى فى القرن السابع عشر وما بعده ـ يعنى بعد نزول القرآن بنحو ألف عام ـ وكان الرأى السائد حينئذ أن الجنين يخلق فى بطن أمه من نقطة دم متجمدة فى الرحم ، إذا وصلها ماء الرجل منحها سر الحياة . لذلك نقرأ فى كتب التفسير القديمة التى ألفها أئمة التفسير رحمهم الله ، يتحدثون عن خلق النطفة من دم متجمد!

ولسنا فى حاجة إلى كثير من التفكير ، لنؤمن أن القرآن لو كان من تأليف بشر لذكر فى موضوع خلق النطفة والأجنة ما كان يتناقله العلماء فى عصر نزول القرآن ، أما أن يرفض القرآن تلك الأخطاء العلمية ، ويذكر الحقائق العلمية الصحيحة ، والتى لم تكتشف إلا بعد نزول القرآن بأكثر من ألف عام ، فإن ذلك يضع كل إنسان متشكك أو غير مؤمن ، أمام حقيقة لا تقبل جدلاً ، وهى أن خالق الأجنة هو الله عز وجل ، الذى أنزل هذا القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ وليس هناك احتمال علمى آخر .

وفى عصر العلم الحالى اكتشف العلماء أن بداية خلق الجنين ، هى من خلق النطفة الأولى ، وأنها من اختلاط أمشاج الذكر والأنثى . . والمشيج هو الخلية التناسلية فى كل من الرجل والمرأة . . فالنطفة لم تخلق من نقطة دم ، ولكنها تخلق من أمشاج . . إنها حقيقة لم يعرفها العلماء إلا بعد نزول القرآن بأكثر من اثنى عشر قرناً من الزمان . . إلا أن القرآن الكريم ذكرها فى سورة الإنسان ، فى قوله تعالى : ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**﴾ إنها آية تنطق بإعجاز علمى عجيب .

وكيف تخصب البويضة؟ تخرج من أحد المبيضين بويضة كل شهر . . وفى المبيض عدد كبير من الحويصلات ، كل منها يحتوى على بويضة لم يتم نموها بعد ، وما أن تنضج البويضة حتى تصل إلى سطح المبيض ، وتنفجر الحويصلة فى منتصف الدورة الشهرية فى أغلب الأحوال ، وتخرج منها بويضة إلى التجويف البطنى ، فتتلقفها أطراف إحدى قناتى الرحم .

وتُسحب إلى داخل قناة الرحم ، وبواسطة أهداب متحركة فى الغشاء المبطن للقناة ، تُدفع البويضة فى اتجاه الرحم . . مثلها مثل السلم المتحرك!

وعادة يلتقى جيش هائل من الحيوانات المنوية بالبويضة فى إحدى أنبوبتى الرحم ، ومن العجيب أن مئات الملايين منها تسبح جميعاً وتندفع فى اتجاه البويضة ، ولا نعلم لماذا تنجذب الحيوانات المنوية فى اتجاه البويضة ، ولا يضل واحد منها طريقه أبدًا . . ولابد أن هناك سرًا علميًا فى ذلك لا نعلمه حتى اليوم على وجه اليقين .

وما أن يصل ذلك الجيش من الخلايا الذكرية إلى البويضة ، حتى تتجمع حولها من كل اتجاه مثل جيش كثيف العدد جدًا . يحيط بقلعة تمهيدًا لاقتحامها . . ويحدث أمر عجيب قبيل الاقتحام ، وهو أن البويضة تدور حول نفسها بفعل الخلايا الذكرية ، ولا ندرى لماذا تدير الخلايا الذكرية البويضة قبل تلقيحها ، وكأنها رقصة عرس . ويأذن الله عز وجل لخلية ذكرية واحدة من بين تلك المئات من الملايين من الخلايا باقتحام البويضة فتقتحمها . . وباتحاد البويضة الأنثى بخلية ذكرية من منى الرجل ، يتم خلق النطفة الأولى ويتم نهائيًا تحديد جنس الجنين (انظر الرسم ٢) .

ولكن على أى أساس يتم اختيار حيوان منوى بعينه لتلقيح البويضة؟

لا ندرى . . فذلك سر استقل الخالق تعالى بعلمه ، لأنه هو الذى يخلق وهو الذى يختار وذكرت هذه الحقيقة فى سورة القصص ٦٨ فى قول الله تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ و (الخيرة) اسم من الاختيار والمعنى : ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل . وفى ذلك نفى الاختيار عن العبد الذى لا اختيار له . فإذا اختار الله تعالى حيواناً منوياً يحمل صفة الأنوثة صار الجنين أنثى ، وإذا اختار الله تعالى حيواناً منوياً يحمل صفة الذكورة صار الجنين ذكرًا . . إذن فمنى الرجل هو الذى يحدد جنس الجنين وليست البويضة فى المرأة . . وهذه حقائق لم تكتشف إلا بالميكروسكوب العلمى بعد نزول القرآن بأكثر من إثنى عشر قرناً . . إلا أن القرآن الكريم ذكرها فى سورة القيامة ٣٦-٣٩ فى قول الله عز وجل : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ قوله تعالى : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ الضمير يعود على المنى ولا يعود على العلقة ، وإلا لقال «فجعل منها» . إذن فقوله تعالى : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ يشير إلى أن فى منى الرجل من أسرار الخلق ما يحدد جنس الجنين ذكرًا كان أم أنثى ، وفى سورة النجم (٤٥ ، ٤٦) إعجاز علمى آخر فى قول الله عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ الآية الكريمة تشير إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا فى القرن العشرين ، إنها تذكر العلاقة المباشرة بين منى الرجل وجنس الجنين ، ولم يأت للبويضة من المرأة ذكر ، لأنه لا دخل لها فى تحديد جنس الجنين .

وبعض الجهلاء يضيق ذرعاً بزوجته التى تلد له إناثاً . . وما دخلها فى ذلك؟ وكان أحرى بها أن تقول زوجته له : لم تستولدنى إناثاً ولا تستولدنى ذكورًا؟؟ إلا أنهما معاً لا دخل لهما فى كل ذلك . . وليس أحدهما مسئولاً عن جنس الجنين . . لأن المسئول الوحيد هو الله عز وجل الذى يخلق ما يشاء ويختار ، فما كان لهم الخيرة .

التحكم فى جنس الجنين

للتحكم فى جنس الجنين طريقتان رئيسيتان :

١ ــ الطريقة الطبيعية .

٢ ــ الطريقة الصناعية .

الطريقة الطبيعية فى محاولة التحكم فى جنس الجنين:

اكتشف العلماء أن الحيوانات المنوية المؤنثة التى تحمل الكروموسومين XX ، أثقل وزناً ، وأبطأ حركة ، مَثَلُها مَثَلُ الدبابات الثقيلة ، من الحيوانات المنوية المذكرة التى تحمل الكروموسومين YX التى هى أخف وزناً وأسرع حركة ، ومثَلَهَا مَثَلُ المصفحات الخفيفة . ولاشك أن الفرق فى الوزن فرق ضئيلٌ جدًا ، إلا أن له تأثيرًا فى محاولات التحكم فى جنس الجنين . ويمر النوعان إلى داخل الرحم عبر قناة عنق الرحم .

ويواجه كل من النوعين من الحيوانات المنوية عقبة تؤثر على حركته ، وهذه العقبة هى المخاط اللزج الموجود فى قناة عنق الرحم . واكتشف العلماء أن درجة لزوجة ذلك المخاط تختلف كثيرًا على مدار الدورة الشهرية . فيكون المخاط رقيقاً قبل عملية التبويض وأثناءها ، أى فى اليومين الثالث عشر والرابع عشر من الدورة ـ وذلك فى معظم الأحوال . . أما فى اليومين الخامس عشر والسادس عشر فإن المخاط فى قناة عنق الرحم يكون قد يبس وصار لزجاً . ولما كانت الحيوانات المنوية المذكرة أخف وزناً وأسرع حركة من الحيوانات المنوية المؤنثة ، فإنها تمر بسرعة وسهولة أكثر خلال المخاط الرقيق . أما الحيوانات المنوية المؤنثة الأثقل وزناً والأبطأ حركة ، فهى تنفذ بسهولة أكبر خلال المخاط السميك فى قناة عنق الرحم ــ يومى الخامس عشر والسادس عشر من الدورة ، وتسبق الحيوانات المنوية المذكرة فى هذه الفترة من الدورة . (انظر الرسم ٣) .

وخلاصة القول : الحيوانات المنوية المذكرة الخفيفة تسبق الحيوانات المنوية المؤنثة الثقيلة يومى ١٣ ، ١٤ . . أما الحيوانات المنوية المؤنثة الثقيلة فهى تسبق الحيوانات المنوية المذكرة الخفيفة يومى ١٥ ، ١٦ .

لذلك فإن الزوج إذا اتصل بزوجته قبل عملية التبويض واثناءها (اليومان ١٣ ، ١٤) فإن الاحتمال الأقوى أن يكون الجنين ذكرًا ، أما إذا كان ذلك الاتصال بعد عملية التبويض (اليومان ١٥ ، ١٦) فالاحتمال الأقوى أن يكون الجنين أنثى .

وماذا لو أراد الزوجان مولودًا ذكرًا ، ولم يستطع الزوج أن يتصل بزوجته إلا بعد عملية التبويض (اليومان ١٣ ، ١٤)؟

يقول المتخصصون إن ذلك ممكن إذا استعملت الزوجة غسولاً مهبلياً قلوياً (بيكربونات الصوديوم مثلاً) ليزيل المخاط اللزج ، الموجود فى قناة عنق الرحم بعد اليوم الرابع عشر . . وإذا حدث هذا ، فإن الحيوانات المنوية المذكرة ـ وهى الأخف والأسرع ـ تصل إلى داخل الرحم وتسبق الحيوانات المنوية المؤنثة فى الوصول إلى البويضة .

وعلى ضوء هذه الاكتشافات العلمية الحديثة ، يمكننا أن نفهم الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه الإمام مسلم عن ثوبان ﵁ أن رسول الله ﷺ قال فى حديث له : «**إذا علا منىُّ الرجل منىَّ المرأة أذكرا بإذن الله**» (أى كان الجنين ذكراً) **وإذا علا منىُّ المرأة منىَّ الرجل آنثا بإذن الله** (أى كان الجنين أنثى)» .

وفى رواية الإمام البخارى قال : «**إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة...إلخ**» وقال الإمام البخارى إن المراد بالعلو فى رواية مسلم ، السبق ، لأن كل من سبق فقد علا شأنه ، فهو علو معنوى . من هذا نفهم أن معنى (إذا علا مَنىّ الرجل مَنِىَّ المرأة) أى إذا سبق .

وعلى ضوء العلم الحديث ، اكتشفنا أن فى منى الرجل نوعين من الحيوانات المنوية ، نوع أنثى ونوع ذكر ، **فمنى الرجل** يعنى الحيوانات المنوية المذكرة ، **ومنى المرأة** يعنى الحيوانات المنوية المؤنثة . والنوعان فى سباق حقاً . . لأن السباق لا يكون سباقاً إلا إذا بدأ من مكان واحد . . وهذا ما يحدث للحيوانات المنوية فى ماء الرجل ، فهى تبدأ فى السباق من مكان واحد . . والذى يسبق منهما إلى البويضة يلقحها فيحدد نوع الجنين ، كما سبق أن ذكرنا . (انظر الرسم ٤) .

وهكذا ذكر الحديث النبوى الحقيقة العلمية مجازاً أو تلميحاً . . ولكن لماذا لم يذكر الحقيقة العلمية تصريحا؟ لأنه لو ذكرها تصريحاً ما صدق الناس قديماً . . ولأثر عدم تصديقهم على تصديق الرسالة نفسها التى دعا إليها رسول الله ﷺ . . والحديث النبوى الشريف وحى من الله تعالى لرسوله . وليس من عند رسول الله نفسه ، وإذا زعم أحد أعداء الدين ، أن القرآن والحديث النبوى ليس وحيا من الله لرسوله ، بل هو من تأليف النبى محمد ﷺ ، فإننا نسأله من أين له العلم بحقائق علمية لم تعرف إلا بواسطة الميكروسكوب العلمى بعد عصر النبوة بأكثر من اثنى عشر قرناً من الزمان؟؟! . . .

إن السباق بين الحيوانات المنوية المذكرة والمؤنثة مستمر ، حتى عند وصولها إلى البويضة ، والتفافها حولها من كل اتجاه ، وحتى لو سبق نوع من الحيوانات المنوية النوع الآخر إلى البويضة ، فإن عملية اختراق البويضة من قبل حيوان منوى معين أمر له أسراره التى لا يعلمها إلا الله . . لأن الله تعالى هو الذى بيده الخلق ، وهو الذى بيده الاختيار . كما قال الله عز وجل : ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (القصص : ٦٨) .

وهناك أمر آخر وهو وقت التبويض ، أنه ليس محدداً تمامًا فى جميع النساء ، فقد يكون فى أى يوم من أيام الدورة ، إلا أنه فى أغلب النساء يكون فى الأيام التى ذكرناها .

ويجب ألا ننسى أن محاولات تحديد جنس الجنين ليست مؤكدة النتائج فى كل الأحوال ، إلا أنها تعطى الاحتمال الأكبر .

الطريقة الصناعية فى محاولة تحديد جنس الجنين:

توصل العلماء إلى طريقة تمكنوا بمقتضاها من الفصل بين نوعى الحيوانات المنوية فى الدواب ، وأمكنهم استعمال جزء من المنى المحتوى على نسبة عالية من نوع الحيوانات المنوية المطلوب للتلقيح . إن نسبة وجود النوعين من الحيوانات المنوية فى منى الرجل نحو ٥٠٪ لكل نوع . وباستعمال عملية الفصل بينهما بواسطة الطرد المركزى يمكن أن نحصل على نسبة تصل إلى ٧٠٪ من الحيوانات المنوية المذكرة مع ٣٠٪ من الحيوانات المنوية المؤنثة فى الناحية الخارجية من الوعاء ، ونحصل على نسبة ٧٠٪ من الحيوانات المنوية المؤنثة مع ٣٠٪ من الحيوانات المنوية المذكرة فى الجزء الداخلى من الوعاء .

أجريت عملية فصل نوعى الحيوانات المنوية بنسبة عالية فى منى الحيوانات ، وذلك لأخذ عينات من المنى المطلوب فى عمليات التلقيح الصناعى فى الحيوانات ، لإنتاج أجنة من الجنس المطلوب .

إلا أن هذه التجارب على منى الإنسان ليست أمرًا سهلاً للأسباب التالية :

١ ـ صعوبة تجميع كمية كبيرة من المنى ، تكفى لعملية فصل نوعى الحيوانات المنوية بواسطة الطرد المركزى .

٢ ـ عملية التلقيح الصناعى للزوجة بمعرفة طبيب مختص ، بدلاً من الاتصال الجنسى الطبيعى ، أمر غير مرغوب فيه .

كيف تؤخذ عينة من المنى المطلوب للتلقيح بالطريقة الصناعية؟

استطاع العلماء أن يحصلوا على كميات كبيرة من المنى من نوع من أنواع الدواب ، ويخففونها بنسبة معينة من الماء . ثم يضعونها فى وعاء مستدير . ثم يديرون هذا الوعاء بواسطة آلة معينة بسرعة معينة ، وهذه العملية تعرف باسم عملية الطرد المركزى . وتكون نتيجتها فصل نوعى الحيوانات المنوية عن بعضهما البعض ، كما ذكرنا من قبل . . ومن العسير الفصل بين النوعين بواسطة عملية الطرد المركزى إلى نسبة أعلى من ٧٠٪ لأن الفرق فى الوزن بين النوعين فرق يسير جدًا . . ولقد ضربنا بخليط من حبات الأرز وحبات القمح مثلاً ، فإذا قمنا بهذه التجربة على ذلك الخليط فإن سرعة دوران الوعاء المحتوى على الخليط ، تحدث قوة طرد مركزية ، تكفى للفصل بينهما بنسبة كبيرة (انظر الرسم ٥) .

لماذا لم يجعل الله تعالى اختيار جنس الجنين اختيارًا كاملاً حسب رغبة الإنسان؟

لأنه لو كان حسب رغبة الإنسان ، لحدث خلل كبير بالتوازن العددى الطبيعى بين الإناث والذكور فى المجتمع الإنسانى ، وذلك لرغبة أكثر الناس فى أن يرزقوا بأطفال ذكور . . فماذا لو صار عدد الذكور فى المجتمع أضعاف عدد الإناث؟ لاشك أن مشكلات اجتماعية كثيرة ستحدث حينئذ . لذلك جعل الله تعالى اختيار جنس الجنين من اختياره هو سبحانه كما قال تعالى : ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (القصص : ٦٨) .

وإذا نجح العلماء فى اختيار نوع الجنين ، فإن ذلك سيكون من خلال استخدامهم لسنن الله الكونية فى خلق أمشاج الذكر والأنثى . . ومن خلال بعض العلم الذى شاء الله تعالى أن يمنحه أياهم ، فهداهم إلى تلك المحاولات فى اختيار جنس الجنين كما ذكرنا فى هذا المقال . . وهو اختيار غير مؤكد تماماً ، ولن تكون نتيجته ـ لو نجح كل النجاح ـ أكثر من ٧٠٪ من الاحتمالات ، ولا ننسى أن النسبة الطبيعية هى نحو ٥٠٪ وهى نسبة تحقق التوازن العددى الطبيعى فى المجتمع الإنسانى .



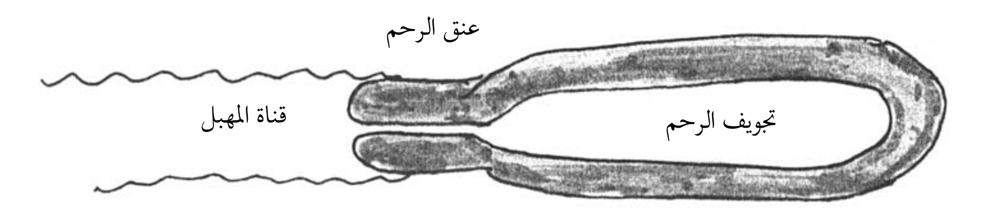
حيوان منوى يحمل الصفات الوراثية المؤنثة



حيوان منوى يحمل الصفات الوراثية المذكرة

الرسم رقم (١)

رسم توضيحى للبويضة وقد التفت حولها الحيوانات المنوية من كل اتجاه ويأذن الله تعالى لحيوان منوى واحد بتلقيح البويضة
الرسم رقم (٢)

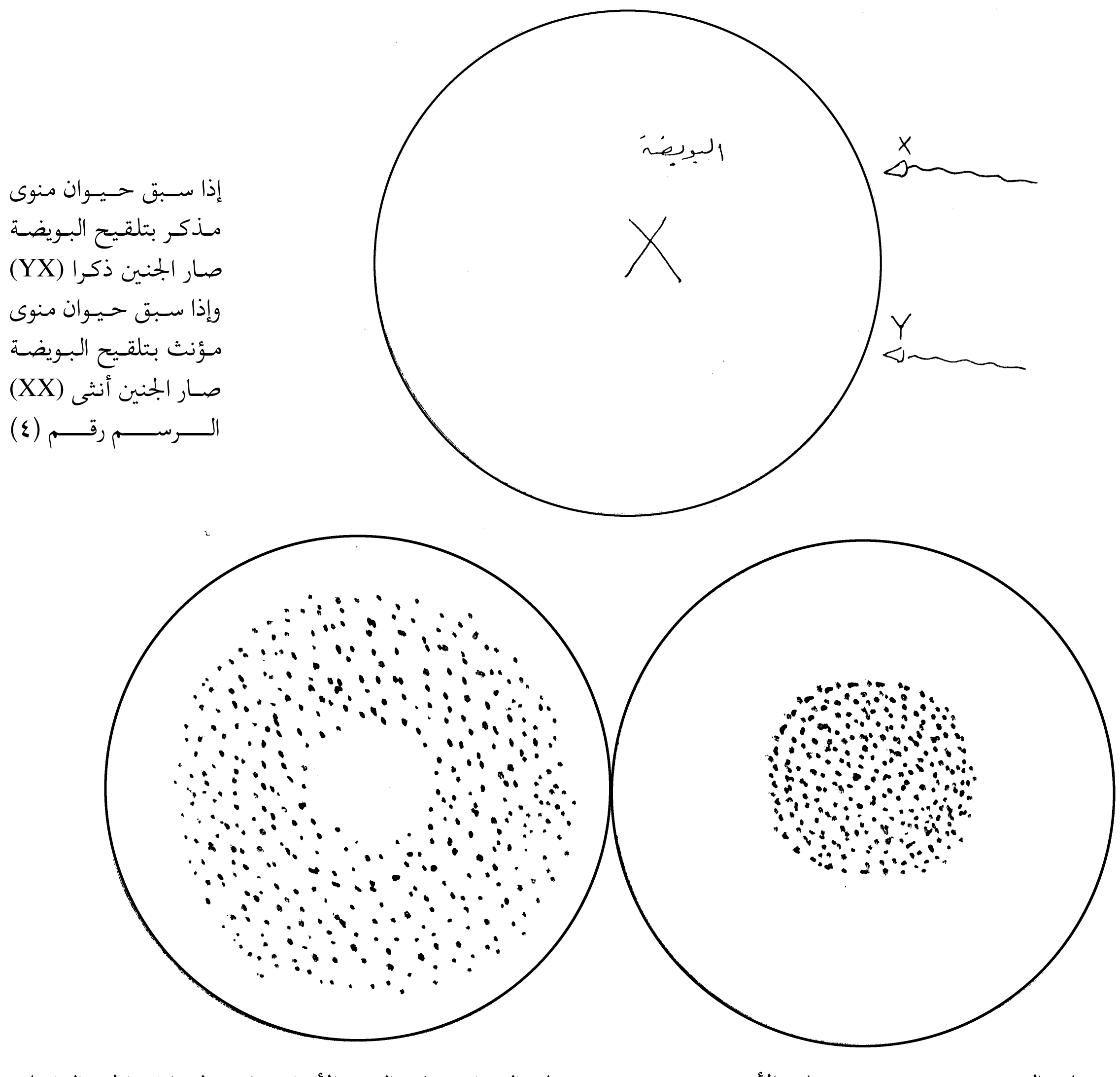


رسم توضيحى للرحم وعنق الرحم

* المخاط يكون رقيقا فى قناة عنق الرحم قبل عملية التبويض بيوم وأثنائها (يومى ١٣ ، ١٤ من أول الدورة)

* المخاط يصير لزجا فى قناة عنق الرحم بعد عملية التبويض بيوم أو اثنين (يومى ١٥ ، ١٦ من أول الدورة)

الرسم رقم (٣)



إذا سبق حيوان منوى مذكر بتلقيح البويضة صار الجنين ذكرا (YX) وإذا سبق حيوان منوى مؤنث بتلقيح البويضة صار الجنين أنثى (XX)

الرسم رقم (٤)

حبات القمح • وحبات الأرز ● مختلطة فى وسط الوعاء قبل الدوران

بعد عملية الدوران حبات القمح الأثقل صار معظمها فى الجزء الداخلى وحبات الأرز الأخف صار معظمها فى الجزء الخارجى

بواسطة عمليات الطرد المركزى يمكن الفصل بين حبات القمح الأثقل
وحبات الأرز الأخف ، ودرجة الفصل بهذه الطريقة تصل إلى ٧٠٪ . .
وكذلك يمكن الفصل بين نوعى الحيوانات المنوية المؤنثة (الأثقل) والمذكرة (الأخف) بنفس النسبة . .

الرسم رقم (٥)

٣ ويعلم مـــا فى الأرحـــام

ـ أخرج الإمام البخارى عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحد ما يكون فى غد ، ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، وما يدرى أحد متى يجىء المطر**» .

وفى رواية أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**خمس لا يعلمهم إلا الله**» . .

ـ وأخرج الإمام أحمد فى **المسند** عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله عن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال :

«**مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير**» . .



العلم بما فى الأرحام

اهتم الإنسان منذ فجر التاريخ بعلم الأجنة ، ونجد فى آثار المصريين القدماء ما يدل على اهتمامهم بالحمل والولادة ، وتكلم الإغريق فى علم الأجنة ، ووضعوا له النظريات العلمية ، إلا أن الحقائق العلمية الصحيحة فى علم الأجنة ، لم يتوصل إليها العلماء إلا حديثاً ، لأنها حقائق لا يُعرف أغلبها إلا بواسطة الميكروسكوب . والميكروسكوب لم يخترع إلا فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، ومع ذلك لم يتوصل العلماء إلى الأسس العلمية الصحيحة فى علم الأجنة إلا فى القرن العشرين .

وكانت نظرية أرسطو عن خلق الجنين أنه بدأ من نقطة دم فى رحم الأم ، جاءها ماء الرجل ـ الذى جاء فى دم الرجل مباشرة ـ بسر الحياة . . وهى نظرية لا تمت إلى الحقيقة بصلة . . إلا أنها ظلت معلومة يعتقد الناس بصحتها عشرين قرناً من الزمان . . ولم يثبت خطؤها إلا بعد اختراع الميكروسكوب ، واكتشاف البويضة بواسطة العالم ريجنيير دى جراف ، واكتشاف الحيوان المنوى بواسطة العالم الهولندى ليفانهوك .

وكان قصارى علم الإنسان عن الأجنة فى عصر نزول القرآن ، هو نظرية أرسطو عن خلق الجنين . أى أن العلماء كانوا على جهل تام بحقائق علم الأجنة فى عصر نزول القرآن الكريم . وإذا علمنا ذلك ، لأدركنا مدى الإعجاز العلمى العظيم فى القرآن الكريم وفى الحديث النبوى الشريف ، وقد ذكرا أسراراً فى خلق الأجنة لم تعرف إلا بالميكروسكوب ، بعد عصر نزول الرسالة بأكثر من ألف عام . . وهذه حقائق ثابتة ، لاجدال فيها .

إن اختراع الميكروسكوب العلمى أعان العلماء على اكتشاف المزيد من حقائق علم الأجنة وعلم الوراثة . .

واغتر الإنسان بما وصل إليه من علم . . إلا أنه أدرك فيما بعد ، أنه كلما اكتشف المزيد من حقائق العلم ، كلما ازداد يقينا أنه مازال على شاطئ العلم يحبو .

وتوصل العلماء بواسطة الأشعة والسونار ووسائل العلم الأخرى ، إلى معرفة جنس الجنين ، ذكراً كان أم أنثى ، والحمل فى شهوره الأولى . . وبذلك صار ميسوراً على أى امرأة حامل أن تسأل الطبيب هل هى حامل فى جنين ذكر أم جنين أنثى ، فيجيبها الطبيب على سؤالها إجابة صحيحة . . هنالك تساءل كثير من الناس : الإنسان الآن يعلم ما فى الأرحام . . فكيف يقول الله تعالى إنه استقل بعلم ما فى الأرحام ، وأن أسرار خلق الأجنة من الغيبيات؟

كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (لقمان : ٣٤) .

وهذه الأمور الخمسة ، يقول الحديث النبوى الشريف إنها «غيبيات» كما فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام أحمد «**مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير**» .

وتساءل كثير من الناس كيف يكون العلم بما فى الأرحام غيبا ، والأطباء يعلمون جنس الجنين فى رحم أمه قبل ولادته ، بل ويعلمون الكثير من أسرار خلقه وهو فى بطن أمه . . حتى نفهم الإجابة على هذا التساؤل ، ينبغى علينا أن نفهم التفسير الصحيح للآية الكريمة والحديث النبوى الشريف :

أكدت الآية الكريمة حقيقة واحدة اختص الله تعالى وحده بها ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ ولم يقل «إن علم الساعة عند الله» ولكنه قدم اسم الجلالة الأعظم ، ليدل على مزيد اختصاص الله عز وجل بذلك . كما أن تقديم الظرف زيادة فى الاختصاص .

وذكر حقيقتين فيهما نفى لإدراك الإنسان بهما قال : ﴿ **وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾ بقيت حقيقتان هما : ﴿ **وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام** ﴾ ذكرتا عطفا على اختصاص الله تعالى بعلم الساعة . . وذكرتا بأسلوب لا اختصاص فيه ولا نفى . . فالغيب المطلق ثلاثة : علم الساعة ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . بقيت حقيقتان ليستا غيبا مطلقاً ، ولا نفيا مطلقا هما ﴿ **وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام** ﴾ .

ومهما تقدم علم الإنسان فى علم الأجنة وغيره ، فإن علمه بما فى الأرحام ليس أكثر من نقطة من بحر . . وهو علم محدود محدود . . للأسباب الآتية :

١ ــ إن توصل الأطباء اليوم إلى علم جنس الجنين وهو فى بطن أمه ، تقدم علمى كبير ، إلا أنه علم مشاهدة ، وليس علماً بأسرار خلق الجنين . . الطبيب فحص خلية من الجنين ، أو شاهد الجنين بالأشعة أو السونار ، ووصف ما شاهده . . ومثله فى ذلك مثل إنسان نظر إلى القمر من خلال التلسكوب . . إنه شاهد ما لم نشاهده نحن من القمر ، ولكنه لا يعلم سر خلق القمر ، ولا يعلم ما يجرى فى جوفه من أسرار .

٢ ــ الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى قال : ﴿ **ويعلم ما فى الأرحام** ﴾ . و«الأرحام» كلمة معرفة بأداة التعريف . . وتعنى أرحام المخلوقات الحية جميعاً . . الله تعالى يعلم ما يجرى فيها من فيض وغيض ، وحمل ، وأسرار فى خلق أجنتها ، ونفخ الروح فيها ، وما يصاحب كل ذلك من أسرار فى الخلق لا يعلمها إلا الله تعالى .

٣ ـ قال الله عز وجل : ﴿ **اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ (الرعد : ٨) .

الآية الكريمة لم تحدد أنثى أى نوع من الخلق ، وأى أرحام . ولا يستطيع أى إنسان مهما بلغ علمه ، وهو يشاهد أى جنين أو يفحصه ، أن يعلم إن كان سيستقر فى الرحم أم لا ، وهل يكتمل نموه أم لا ، ولا يعلم موعد ولادته من بطن أمه . ولا يعلم كل ذلك إلا الله تعالى .

٤ ـ عن العلم بما فى الأرحام يقول الله عز وجل : ﴿ **وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ** ﴾(فاطر : ١١) .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ **وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ (الحج : ٥) .

إننا إذا نظرنا إلى جنين ما بالسونار وشاهدنا أعضاءه التناسلية وعلمنا أنه ذكر أو أنثى ، فإن ذلك لايدل على أننا نعلم ما فى الأرحام من أسرار فى الخلق ، كما أن الأرحام هى أرحام المخلوقات جميعاً ، من إنسان ودواب وطير وأسماك وحشرات ونبات . قال تعالى : ﴿**وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه**﴾ ولم يحدد تلك الأنثى من أى نوع من الخلق ، وكل أنثى من الأحياء تحمل وتضع كما سبق أن ذكرنا . والنباتات لها أرحام . . وجاء ذلك فى قول الله عز وجل : ﴿ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ** ﴾ (فصلت : ٤٧) .

الآية الكريمة تشير إلى أرحام النباتات ، والثمرات هى الأجنة التى نمت فى أرحام النباتات . . ثم عقب بالحقيقة الكبرى : ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ . فالله تعالى يحيط علماً بكل ما فى أرحام النباتات ، وسائر أرحام البشر ، وأرحام الدواب ، وأرحام الحيوانات البحرية ، وأرحام الطيور ، وأرحام الحشرات ، وأرحام الزواحف والبرمائيات ، الله تعالى يحيط علماً بها جملة وتفصيلاً وفى التوّ واللحظة ﴿**وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه**﴾ فأين علم الإنسان من كل ذلك؟ . . إنه لا شىء .

٥ ـ تجرى فى الأرحام أسرار وراثية عجيبة ، تصور كل خلق فى رحم أمه ، تصويراً مميزاً لنوعه بدون أى تفاوت أو تغيير . . ولا يعلم علماء الوراثة عن بعضها إلا علم مشاهدة ، وليس علماً بأسرار الخلق . كما فى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ (آل عمران : ٦) ، فأين علم الإنسان من ذلك؟ وأين العلم بأن الجنين ذكر أو أنثى ، من كل هذه الأسرار فى الخلق؟ . . إنه مجرد نقطة من بحر .

٦ ـ وبعد ذلك لم يغلق الله تعالى باب العلم لمن أراد ذلك واجتهد فى تحصيله . فلم يقل «**ويعلم ما فى الرحم**» وهو تعالى أعلم ، ولكنه قال : ﴿**ويعلم ما فى الأرحام**﴾ فأى إنسان يعلم جزئية من العلم بما يجرى فى رحم من الأرحام ، فى أى نوع من أنواع المخلوقات ، لا يعنى أنه يعلم كل الأسرار التى تحدث فى كل أرحام المخلوقات جميعاً ، فى التو واللحظة علماً شاملاً كاملاً ومحيطاً . . فأين علم الإنسان بما فى الأرحام من علم الله؟! إنه لاشىء ؛ لأن أى شىء إذا قورن باللانهائى يكون صفرا .

٧ ـ إن جملة الأسرار التى تحدث فى أرحام النساء ، جاء ذكرها فى عدد كبير من الأحاديث النبوية المشرفة ، كما قال رسول الله ﷺ فى الصحيح :

«يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتابة أربع : رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد» .

وإذا شاهد طبيب الجنين فى رحم أمه بواسطة السونار ، وعلم أنه ذكر أو أنثى ، فأين علمه بذلك مما جاء فى الحديث النبوى الشريف من علم مطلق؟! إن علم الإنسان لا يكون شيئاً مذكوراً .

وفى صحيح مسلم عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد أن النبى محمد ﷺ قال : «**يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول يارب أشقى أو سعيد ، فيُكتبان ، فيقول أى رب أذكر أم أنثى ، فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه . ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص**» .

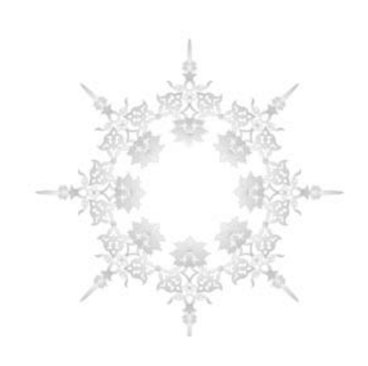
فأين علم الإنسان من كل ذلك؟! إنه لا شىء . .

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم قال النبى ﷺ :

«**إن النطقة تكون فى الرحم أربعين يوماً ، فإذا مضت الأربعون صارت علقة كذلك ، ثم مضغة كذلك ، ثم عظاما كذلك ، فإذا أراد الله أن يسوى خلقه ، بُعث إليها ملكان ، فيقول الملك الذى يليه : أى رب أذكرٌ أم أنثى ، أشقى أم سعيد ، أقصير أم طويل ، أناقص أم زائد ، قوته وأجله ، صحيح أم سقيم؟ فيكتب ذلك**» . .

هذه بعض أسرار الخلق التى تحدث فى الأرحام فأين علم الإنسان من ذلك؟! . . إنه لا شىء .

فذلك الحديث الشريف الذى رواه الإمام أحمد «**مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير**» . .



أخرج الإمام أحمد فى المسند عن أنسٍ عن عبدالله بن سلام أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع إليه ، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزع إليها**» ماء الرجل هو الحيوانات المنوية المذكرة . وماء المرأة هو الحيوانات المنوية المؤنثة .

هل يمكن أن تتلقح بويضة أنثى حيوان ما ، بحيوان منوى من حيوان من نوع آخر؟

أثبتت التجارب أن ذلك لا يكون أبداً . . وأجرى أحد العلماء اختباراً : وضع فى أنبوبة اختبار حيوانات منوية مختلفة الأنواع ، مع بويضات مختلفة الأنواع أيضاً . ووضع بويضات وحيوانات منوية من قط وقطة ، وكلب وكلبة ، وضفدع وضفدعة ، وفرس وفرسة ، وسمك سالمون ذكر وأنثى . . وخلط الجميع ، ولاحظها جيداً ، فوجد أن كل بويضة تلقحت من حيوان منوى من نوعها فقط ، فبويضة القطة لم تتلقح إلا بحيوان منوى من قط ، وبويضة الفرسة لم تتلقح إلا بحيوان منوى من فرس . . وهكذا . .

وراح العلماء يبحثون عن السر فى ذلك : وأخيراً توصلوا إلى السر العلمى ، فإذا هو سر عجيب . . وجدوا فى قلنسوة كل حيوان منوى مادة بروتينية معقدة التركيب جداً ، تختلف من نوع من الخلق إلى نوع آخر ، تعمل عمل البطاقة الشخصية أو الباسبور تسمى علمياً (المادة المخصبة المضادة) Antifertilizin ، مضادة لماذا؟ وجدوا أنها مضادة لمادة مخصبة أخرى قرينة لها فقط ـ أى من نفس نوعها ـ وهذه «المادة المخصبة» القرينة لها موجودة على جدار بويضة الأنثى التى من نفس النوع وتسمى Fertilizin . . وكلا المادتين تعملان كالمفتاح والقفل . لذلك تسمح أى بويضة من أنثى ، بحيوان منوى من نفس نوعها باختراقها ، كما أن الحيوان المنوى لا يخترق بويضة إلا إذا كان على جدارها (المادة المخصبة) القرينة (للمادة المخصبة المضادة) التى على غطاء رأسه (القلنسوة) . . ولولا هذا الإعجاز فى الخلق لاختلطت صفات الوراثة فى المخلوقات ، ولعمت فوضى هائلة فى المخلوقات جميعاً . .

ونجد هذا النظام المعجز على الطبيعة فى عالم البحار وعالم النبات .

فى البحار يعيش نحو أربعمائة ألف نوع من الأحياء البحرية ، وكلها تتزاوج ، وتطلق إناثها بويضاتها فى الماء ، وفى نفس الوقت تطلق الذكور حيواناتها المنوية فى نفس الماء ، وفى نفس المكان . . وتختلط الأمشاج المختلفة من الذكور بالإناث من الحيوانات البحرية فى الأنهار والبحار ، فى خليط عجيب ، وفى زحام غريب . . ويظن غير العلماء أنه قد حدثت فوضى شاملة فى هذا الاختلاط العجيب . . إلا أن فطرة الخلق ليست مؤسسة على فوضى أو عشوائية ، ولكنها مؤسسة على نظام متقن لا تفاوت فيه ولا اختلاف .

نجد ذلك فى قول الله عز وجل : ﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ** ﴾ (الحجر : ١٩) . و﴿ **أنبتنا فيها** ﴾ أى : وخلقنا فيها ، كما قال تعالى عن السيدة مريم ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا** ﴾ (آل عمران : ٣٧) . كل حيوان منوى يظل يسبح فى الماء حتى يقع على بويضة ، فإن كانت من نفس نوعه اخترق جدارها ولقحها ، وإن لم تكن من نفس نوعه ظل على جدارها حتى يموت .

وفى عالم النبات نجد نفس النظام ، عضو التأنيث وهو الميسم فى الزهرة ، تقع عليه مئات الأنواع المختلفة من حبوب اللقاح ، ولكن بويضة النبات لا تسمح بتلقيح نفسها ، إلا من خلايا ذكرية فى حبوب اللقاح من نفس

نوعها . فعضو التأنيث فى زهرة البطيخ أو التفاح أو الطماطم ، تقع عليه مئات الأنواع من حبوب اللقاح ، ولكن بويضة النبات لا تسمح بتلقيح نفسها إلا من خلايا ذكرية من نفس نوعها . وبذلك لا تتلقح بويضة فى زهرة البطيخ من ذكر النخل أو الطماطم أو التفاح ، وإنما من نفس نوعها ، لذلك تنمو الثمار من نفس نوعها ، ولا تتغير بصفات ثمار أخرى ، فلا تصير ثمرة الطماطم تفاحاً مثلاً ، ولا يصير التفاح بلحاً وهكذا . .

إنه نفس نظام التلقيح فى الإنسان والدواب والحيوانات البحرية ، وفى ذلك دلالة واضحة على نظام الزوجية المحكم فى الخلق .

ونجد ذلك فى قول الله عز وجل : ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (الذاريات : ٤٩) ، فقوله تعالى : ﴿من كل شىء﴾ . يدل على نفى الاستثناء . . فكل شىء خلقه الله زوجين ، ومن كل شىء خلق زوجين . . فالحيوانات المنوية أزواج ، وتنقسم الكروموسومات أزواجاً ، وتنتظم أزواجاً ، والجينات أزواج ، والمخلوقات أزواج من ذكر وأنثى ، وقوله تعالى : ﴿لعلكم تذكرون﴾ . أى لعلكم تذكرون أن خالق الأزواج لا يكون له زوج ، وإلا لكان مخلوقاً ، والمخلوق لا يكون خالقاً .

وحدة النظام فى التناسل:

مع التقدم العلمى ـ بعد نزول القرآن بثلاثة عشر قرناً من الزمان ـ اكتشف العلماء اكتشافاً مدهشاً وعجيباً ، وهو أن نظام التناسل فى عالم النبات ، هو نفس نظام التناسل فى الإنسان ، هو نفس نظام التناسل فى الدواب والحيوانات البحرية ، هو نفس نظام التناسل فى الطير والحشرات . . إنه نظام عام وواحد فى الأحياء جميعاً . . علام يدل ذلك؟ إنه يدل على وحدة النظام فى الخلق ، ووحدة النظام تدل على وحدانية الخالق ، وأنه «لا إله إلا الله» إن حقيقة «لا إله إلا الله» حقيقة إيمانية كبرى ، أثبتتها الاكتشافات العلمية الحديثة .

ولو كان مع الله إله آخر أو شريك ، لظهرت إرادة ذلك الشريك فى الخلق فى هذا الكون ، فإذا أراد واحد منهم تحريك شىء ، أراد الآخر سكونه ، وإذا أراد واحد منهم أن يجعل نظام التكاثر بتلقيح البويضة بواسطة خلية ذكرية ، أراد الآخر أن يكون نظام التكاثر غير ذلك ، ويحاول كل منهما أن يتغلب على الآخر ، وأن يعلو عليه . ولقد استقر الأمر على نظام واحد كما ترى وكما نعلم ، فدل هذا على أنه لو كان مع الله إله آخر ، لكان أحدهما غالباً والآخر مغلوباً ، والمغلوب لا يمكن أن يكون إلها ، وما نراه فى الكون كله من وحدة النظام فى الخلق ، يؤكد على وجود الخالق تعالى ووحدانيته .

فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (المؤمنون : ٩١ ، ٩٢) .



ـ أخرج البخارى عن علقمة أن رسول الله ﷺ قال :«**لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى**» .

ـ أخرج الإمام البخارى عن سفيان قال سمعت عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه قال : سمعت عائشة رضى الله عنها تقول : **قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت بقرام لى ، على سهوة لى فيها تماثيل ، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه وقال : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله»** .

قرام : أى ثوب من صوف ملون .   **على سهوة** : أى على رف .   **هتكه** : أى نزعه .

الذين يضاهون بخلق الله : أى يشبهون ما يصنعونه بما يصنعه الله .

ـ وأخرج الإمام مسلم عن المجاشعى أن رسول الله ﷺ قال يحكى عن ربه عز وجل : «**خلقت عبادى حنفاء كلهم وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم ، فحرمت عليهم ما أحللت ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ،وأمرتهم أن يغيروا من خلقى**» ، أى يغيروا فطرة الله التى فطر الناس عليها كما قال تعالى : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ (الروم : ٣٠) وهؤلاء يبدلون خلق الله ويغيرون فطرة خلق الأنعام وخلق الإنسان .

ـ أخرج الأئمة البخارى وأحمد والترمذى عن حسان بن أبى سفيان مرفوعاً :

«**ما رأيت شيئاً أهون من الورع . دع ما يُريبُك إلى ما لا يُريبُك**» وقال : «**ما عالجت شيئاً أهون علىّ من الورع» قيل لهَ : كيف؟ قال : «تركت ما يُريبُنى إلى ما لا يُريبُنى فاسترحت**» ويتسع معنى الريبة للاستنساخ .

مقدمة عن الفكر الإنسانى فى العلوم التجريبية:

كثير من الاكتشافات العلمية فى عصر العلم الحالى ، استعملها بعض العلماء فيما لايفيد تارة ، وفيما يضر تارة أخرى . ومثال ذلك اخترع ألفريد نوبل البارود فى أوائل القرن الماضى ، وطور صناعته فى السويد . وبذلك فتح اختراع ألفريد نوبل الباب أمام استعمال القوة الكامنة فى البارود ، فى كل ما من شأنه رفاهية الإنسان وزيادة الأرزاق فى الأرض . . وقد تم هذا بالفعل ، إلا أن بعض العلماء فكر أول ما فكر فى استخدام البارود فى صناعة طلقات الرصاص والقنابل ، لقتل الناس وإزهاق أرواحهم . ولقد أوقف ألفريد نوبل ربع ثروته على جوائز تمنح لمن يخدم الإنسانية فى مختلف مجالات العلم ، وذلك كل عام فى ذكرى وفاته فى ٢١ / ١٠ / ١٨٣٣ .

واكتشف الإنسان القوة الكامنة الهائلة فى نواة الذرة ، وكان هذا الاكتشاف فتحا كبيرًا فى طريق التقدم الصناعى والتكنولوجى أكثر من أى تقدم حدث من قبل ، إلا أن الإنسان استعمل القوة الهائلة الناتجة من انشطار الذرة فى صنع قنبلة ذرية ، دُمِّرت بها مدينتان فى اليابان سنة ١٩٤٥ وقتلت مئات الآلاف من البشر . وأهلكت الحرث والنسل .

وتسابقت الدول فى صناعة الأسلحة الذرية وتطويرها وتخزينها ، وأنفقت فى ذلك مئات المليارات من

الدولارات ، حتى صار المخزون منها الآن كافيا لتدمير العالم بأسره عدة مرات . ولو صُرفت تلك الأموال على إقامة مصانع لإنتاج الغذاء والكساء ، لعمت الرفاهية العالم كله . وما إن تعرف الإنسان على كيفية خلق الأجنة ، وعلى بعض أسرار علم الوراثة ، حتى فكر بعض العلماء فى التلقيح الصناعى ، وطرق الإنجاب غير الأخلاقية والتى لا يقبلها عرف ولا دين .

ومن أمثلة ذلك:

١ - **الرحم الظئر**: رحم امرأة ينمو بداخله جنين تكون فى أنبوبة اختبار فى المعمل ، من بويضة زوجة ملقحة بحيوان منوى من زوجها . ويوضع الجنين فى رحم امرأة أخرى حتى يتم نموه وتلده . وذلك بسبب عدم صلاحية رحم الزوجة صاحبة البويضة لنمو الجنين فيه . أو بسبب استئصاله . وبذلك تلد المرأة الأخرى طفلاً ليس ابنًا لها . . وليس هذا مراد الله تعالى فى خلقه ، وبالتالى لابد أن يكون مراد الشيطان .

٢ - **استخدام رحم الزوجة فى الحمل من رجل آخر بعلم الزوج ورضاه** : يحدث ذلك فى بعض المجتمعات غير الإسلامية . فما إن فتح الباب أمام طفل الأنابيب بواسطة تكوين جنين من أب وأم شرعيين فى أنبوبة اختبار فى المعمل ، ثم إدخاله فى رحم أمه بعد ذلك ليتعلق به ، وتتم مراحل خلقه بعد ذلك حتى يولد من بطنها طفلا . وكل هذا الإجراء فى طفل الإنابيب ، هو بسبب حائل يمنع وصول البويضة من مبيض الأم إلى رحمها . ما أن فتح الباب أمام طفل الأنابيب حتى دخل الفكر الشيطانى فى الموضوع ، ففكر بعض العلماء فى تلقيح بويضة من امرأة بحيوان منوى من رجل غير زوجها ، وقد لا تعرفه وهو لا يعرفها ، من بنك للمنى : وتتكون المراحل الأولى من خلق الجنين فى أنبوبة اختبار فى المعمل . ثم يدخلونه فى رحم الأم فيتعلق به ، وتتم مراحل الحمل العادية . ويحدث ذلك عادةً إذا كان الزوج عقيما . . فيخرج الطفل من بطنها وهى أمه أما أبوه فمجهول .

٣ - **إقامة بنوك للحيوانات المنوية من رجال مختلفين** تستعمل فى التلقيح الصناعى .

٤ ـ **إقامة بنوك للأجنة** .

٥ - **استنساخ مخلوق طبق الأصل من مخلوق آخر** ، دون الحاجة لأب ، ودون الحاجة لزواج أصلاً .

بداية التفكير فى عمليات الاستنساخ:

أعلن عن موضوع الاستنساخ لنعجة فى أسكتلندا ، وظن كثير من الناس أن هذا موضوع جديد بدأ فى أسكتلندا ، وما علموا أن له جذورا تمتد إلى أواخر الخمسينيات فى هذا القرن . فلقد سبق استنساخ هذه النعجة ، تجارب استنساخ فى أمريكا ، فقد شرع بعض الباحثين فى أمريكا فى استخلاص عدة أنوية من خلايا من أمعاء ضفدع ، ثم أدخلوها فى بويضات غير مخصبة من ضفدعة أزيلت نواتها . . وبعد عدد من المحاولات ظهر من هذه البويضات ضفادع طبق الأصل من الضفدع الذى استخلصت الأنوية من خلايا أمعائه . . ثم جربوا نفس الموضوع على الفئران فنجحوا .

والحيوانات الناتجة قالوا إنها توائم الأب (والأب التوأم فى الاستنساخ قد يكون ذكرا وقد يكون أنثى) . ولا دخل لالتقاء الذكر بالأنثى فى تكوين تلك الأجنة المستنسخة . ولا حاجة للذكر فى تلك العملية . ورُفعت قضية ضد أحد العلماء فى بريطانيا سنة ١٩٧٦ بسبب عملية استنساخ لحصان تمت هناك . وأخيرا حفظتها المحكمة ؛ لأن خطورة الاستنساخ لم تكن واضحة بعد ، ولم تصدر أى تشريعات قانونية بشأنها فى ذلك الزمن .

والذى أثار قضية الاستنساخ هذه الأيام هو زيادة نشاط العلماء فى هذا الموضوع ، وظهور أطفال مستنسخين فى هذه الأيام وزيادة الدراسات والأبحاث . وبدأت إثارة القضية بظهور النعجة فى أسكتلندا . فقد قام فريق من العلماء فى معهد روزالين هناك بإعادة التجارب القديمة فى الاستنساخ ، وقاموا بنسخ جنين طبق الأصل من نعجة حية سليمة ، دون التقاء ذكر بأنثى ، ودون الحاجة للحيوان المنوى أصلا . لأن الاستنساخ يتم بواسطة «النقل النووى للخلايا» .

والتجربة لعملية الاستنساخ باختصار كالآتى:

أخذوا خلية من ضرع نعجة حية سليمة ، واستخرجوا نواتها . ثم حصلوا على بويضة من مبيض نعجة أخرى ، وأخرجوا نواتها وتخلصوا منها ، وزرعوا بدلا منها النواة المأخوذة من خلية ضرع النعجة ، وبذلك صارت البويضة مجرد وعاء حيوى مناسب لنمو النواة الكاملة الجديدة ، والتى بها عوامل الوراثة كاملة ، ونقلوها إلى رحم نعجة أخرى ، فتكون فيها الجنين ونما ، حتى صار جنينا متكاملاً ، ووُلدت نعجة صورة طبق الأصل من النعجة صاحبة النواة . ومثل هذا الأسلوب يستعمل فى الهندسة الوراثية فى النبات .

الأساس العلمى لعملية الاستنساخ:*

فى أجسام الكائنات الحية جميعا توجد خلايا جنسية : (البويضة ، والحيوان المنوى) البويضة توجد فى مبيض الأم ، وبها نصف عدد الكروموسومات (الصبغيات) . . والحيوان المنوى يتكون فى قنوات خصية الأب ، وبه نصف عدد الكروموسومات (الصبغيات) . وباتحادهما معا تتكون البويضة الملقحة ، التى تحتوى على كل الكروموسومات الموجودة فى الخلية الحية فى جسم ذلك المخلوق الحى . فالبويضة الملقحة هى أول خلية فى الجنين الذى سيتكون منها بعد ذلك بالانقسام الثنائى .

وفى جسم الإنسان مثلا : الخلية تحتوى على ٤٦ كروموسوم . أما الخلايا الجنسية (البويضة والحيوان المنوى) فكل منها يحتوى على نصف عدد الكروموسومات أى ٢٣ كروموسومًا . والكروموسوم مكون من الحامض النووى الذى يحمل عوامل الوراثة المميزة للكائن الحى .

والخلايا فى النطفة الأولى (البويضة الملقحة تنقسم انقساما ثنائيا أزواجا أزواجا) هذه الخلايا فى النطفة الأولى خلايا غير متخصصة ، بمعنى أنها لا تحمل صفة أى عضو معين فى الجسم . ولكن عندما تتكون أعضاء الجسم بالجنين مثل العينين أو الكبد أو القلب أو الجهاز العصبى ؛ فإن الصفات الوراثية فى أنوية الخلايا تختفى ، ما عدا الصفات الوراثية الخاصة بالعضو الذى تعمل فيه الخلية . فالخلية فى الكبد فيها العوامل الوراثية الخاصة بالكبد ، فتنقسم أزواجًا أزواجًا بنفس الصفات الوراثية للكبد . . وكذلك الخلايا فى الكلى تنقسم إلى خلايا كلوية ، وليست خلايا كبدية أو عصبية . . وكذلك باقى أعضاء الجسم . فعندما تتكون الأعضاء بالجنين ، تختفى كل آثار الصفات الوراثية فى أنوية الخلايا أو يختفى مفعولها . . هى موجودة ؛ ولكنها خامدة تماما لاتعمل ، ماعدا الصفات الوراثية الخاصة بالعضو الذى تعمل فيه الخلية .

واكتشف العلماء أنهم إذا نجحوا فى وقف انقسام الخلايا الموجودة فى أى عضو من أعضاء الجسم لمدة من الزمن ؛ فإنها تفقد تخصصها الوراثى ، وتنشط فيها العوامل الوراثية الخامدة ، وتكون مستعدة للعمل على تكوين جنين بنفس طريقة البويضة الملقحة الأولى . أى إن الخلية المتخصصة تصير خلية غير متخصصة . وهذا ما يتبعه العلماء فى عمليات الاستنساخ التى حدثت حتى الآن : فقد أخذ العلماء خلية من ضرع نعجة ، ثم وضعوا تلك

* لمزيد من البحث العلمى . راجع كتاب : (دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن) للدكتور كريم حسنين .

الخلية فى مجال غذائى مناسب لها فى المعمل تحت حرارة منخفضة ، ولمدة أسبوع . فتوقف تكاثرها ، وصارت خلية تحمل مقومات الانقسام الحيادى غير المتخصص – أى إن العوامل الوراثية تعمل كلها فى وقت واحد وليست العوامل الوراثية المتخصصة فقط – فصار بالإمكان بعد ذلك استنساخ جنين حى من أى خلية فى الجسم – غير الخلايا الجنسية – وبدون تزاوج بين الذكر والأنثى . وهنا ظهرت خطورة الموضوع ؛ فإن هذه التجارب لو طبقت على الإنسان لصار من الممكن استنساخ أطفال دون الحاجة لرجل . كل المطلوب هو الحصول على خلية بدنية من جسم رجل ، أو جسم امرأة ، لايهم ، ورحم أى امرأة . ومعمل أجنة أنابيب . وقد حدث هذا بالفعل وظهر أطفال مستنسخون .

والخطر فى ذلك يكمن فى أن التكنولوجيا المستعملة فى ذلك متوافرة فى العالم بأسره . . وفى أى معمل تتوافر فيه المواد المستعملة فى إيقاف انقسام الخلايا . لذلك بدأ العلماء فى أمريكا يحذرون الناس من مغبة هذه التجارب ، ويطالبون وبإلحاح وتصميم ، بالعودة إلى التزاوج بالفطرة السليمة .

هل يمكن استخدام الاستنساخ فى العلاج من الأمراض؟

استطاع بعض العلماء فى أمريكا ، بعد عشرين سنة من التجارب والدراسات ، أن يصلوا إلى استخلاص الخلايا الأم التى تسمى Emberionic Stem cells من النطفة البشرية الأولى . ومن ثم زرعها فى المعامل فى وسط كيميائى معين . من شأنه أن تتكاثر تلك الخلايا الأم إلى أعداد لا حصر لها من نفس الخلايا . . ويمكن توجيه نشاط الخلية الأم إلى التكاثر بصفات جديدة متخصصة مثل خلايا الجلد ، أو خلايا الكبد ، أو القلب ، أو الكلى ، أو الخلايا العصبية . ففى جامعتى ويسكو نسين ماديسون وجوتز هوبكنز الأمريكيتين ، أخذ العلماء النطفة المخصّبة من رجل وامرأة ، والتى بدأت فى الانقسام حتى صار عمرها نحو أسبوع . وتسمى النطفة البشرية فى هذه المرحلة Blasto cyst بلا ستوسيست . وتحتوى على عدد من الخلايا غير المتخصصة ، تتجمع على شكل كتلة داخلية من الخلايا ، تحتوى بداخلها على هذه الخلايا الأم Emberionic stem cells واستخلصوا الخلايا الأم هذه من البلاستوسيست ، وزرعوها فى وسط معين لتعطى عددًا كبيرًا من خلايا مماثلة لها طبق الأصل . ويمكن أن يوجهوا نمو هذه الخلايا غير المتخصصة إلى خلايا متخصصة بعينها مثل الكبد والكلى والقلب والخلايا العصبية . وبالتالى يمكن علاج كثير من الأمراض ، وإيجاد الحل الجذرى لها ، ثم نقل الأعضاء البشرية التى تحتاجها مثل : حالات الفشل الكبدى ، والفشل الكلوى ، وعمليات نقل القلب ، وحقن خلايا عصبية فى المخ لتقضى نهائيا على أمراض عصبية مثل الشلل الرعاش ، والزهايمر (خرف الشيخوخة) ومرض تليف الأعصاب . وهذه المرحلة من التجارب والدراسات والنتائج لم يصل إليها العلماء بعد ، إلا أن هذا الاتجاه العلمى سيغنى العالم عن عمليات نقل الأعضاء من إنسان إلى إنسان .

إلا أن الحكومات لم تشجع موضوع اكتشاف الخلايا الأم Stem cells التى تستخلص من جنين بشرى عمره نحو أسبوع ، والتى يمكن زرعها فى المعمل لإنتاج عدد هائل منها ، ثم يحولونها إلى خلايا متخصصة . وتوجه بعد ذلك لاستنساخ أعضاء بشرية معينة ومطلوبة لعلاج المرضى . . لم تشجع الحكومات أية دراسات فى موضوع الاستنساخ . فقد أصدرت اللجنة العليا للقيم والأخلاقيات الحيوية بأمريكا قرارا بمنع تمويل أية أبحاث تتعامل مع الأجنة البشرية ، خوفا من الاتجاه إلى استنساخ الإنسان نفسه . كما أصدرت نحو خمس عشرة دولة أوربية قرارًا بحظر استنساخ الأجنة البشرية ، وعدم تمويل أية أبحاث فى هذا الموضوع .

إلا أن من العلماء من يسأل : ما الضرر فى أخذ بعض الخلايا التى لاتُرى بالعين المجردة من نطفة مخصبة فى

المعمل عمرها أقل من أسبوع لم يتكون بها أى عضو من الأعضاء ، لكى نوجهها بشكل معين لتنتج عضوًا بشريًا معينًا ، مطلوباً زراعته فى جسم إنسان مشرف على الموت ؟

إن هذه العملية تنقذ إنسانًا من الموت دون أن تحدث أى ضرر لأى إنسان . أليس هذا أفضل كثيرًا من أن أستنسخ إنسانًا كاملاً وحيّاً ، ثم أقتطع منه الأعضاء لنقلها إلى مرضى مشرفين على الموت؟ ثم أليس استنساخ أعضاء بشرية من الخلايا الأم Emberionic stem cells هو الحل الأمثل والأسلم لعمليات نقل الأعضاء ، وإنقاذ ملايين المرضى كل عام ، دون أن أحمل إنسانًا آخر عملية نقل عضو من جسده؟

ألم يأمرنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نلتمس العلاج للمريض «**تداووا عباد الله ، فما أنزل اللهُ داءً إلا وأنزل له دواء إلا الهرم**» (أى الشيخوخة) .

ولاشك أن هذا رأى فى ظاهره مقنع ولا يعترض عليه أحد . إلا أن الحكومات لو مولت تلك التجارب والأبحاث العلمية ، فمن يضمن ألا ينحرف كثير من العلماء إلى عمليات استنساخ أجنة بشرية فى الخفاء ، وما يؤدى ذلك إلى كثير من الكوارث البشرية ، التى لا يمكن بعد ذلك أن يرجع عنها العلماء . ونفس الإنسان كما هو معروف تنزع دائما إلى الفساد كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾(يوسف : ٥٣) . فليس الخوف من هذه الأبحاث ونتائجها التى يقوم بها العلماء ، ففيها الحل السعيد لمشكلة نقل الأعضاء ، ولكن الخوف من العلماء أنفسهم ومن انحرافهم عن الطريق الصحيح . . وتاريخ الإنسان مع أى تقدم أو اكتشاف علمى جديد ، لايُطمئن .

ملخص سلبيات هذه التجارب كالآتى:

١ – فتح الباب أمام الإنجاب بدون زوج ، وبدون زواج ، بل بدون الحاجة إلى رجل .

٢ – تدمير العلاقات الإنسانية بين الناس .

٣ – إنتاج إنسان مستنسخ مدمر نفسيّاً ، فلا أب له ولا أم ، بل إنه توأم إنسان آخر رجلاً كان أو امرأة . فهو إنسان بلا نسب وبلا هوية . لا مكان له فى عالمنا الذى نعيش فيه . ولا مكان له فى نظام المواريث ، ولا مكان فى قلبه لمودة أو رحمة .

٤ – شيوع الرذائل وشيوع الكفر والضلال . حتى أنك لاتعرف الإنسان الذى أمامك هل هو الإنسان الذى تعرفه ، أم هو إنسان مستنسخ منه .

٥ – شيوع الجريمة فى المجتمع ، لعدم الاستدلال على أى مجرم ، فربما يكون الجانى إنسانا مستنسخاً منه . وبالتالى لايمكن التعرف على الجناة . . وشيوع الجريمة أمر يدمر المجتمع تدميرًا تامًا .

٦ – فتح الباب أمام هذه الأبحاث والدراسات كالرصاصات الطائشة ؛ لأنها ستقع حتمًا فى أيادٍ لاتؤمن بالله ، ولا تقيم وزنًا لدين أو خلق ، وسيدخل كثير من العلماء فى تلك الأبحاث فى شطحات مجنونةً ، لاتتفق مع الدين فى شىء .

وإذا كان فى هذه الأبحاث منفعة ؛ فإنها تجر وراءها أضرارًا بعيدة المدى . ومن المعروف أن دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة .

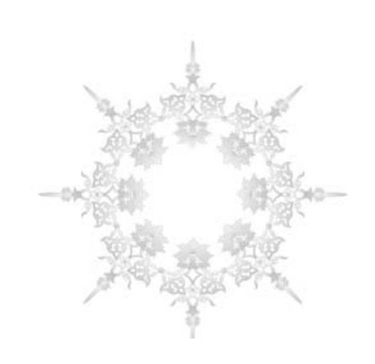
ونذكر قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ (يوسف : ٥٣) وصدق الله العظيم

وحديث سيدنا رسول الله ﷺ : «**دع مايريبك إلى مالا يريبك**» وصدق رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ (النساء : ١١٩) .

الآية تحكى عما يقوله الشيطان . والمعنى : سأضل الناس وسأغويهم وأصرفهم عن طريق الهدى ولأمرنهم فليقطعن آذان الأنعام ﴿ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ أى يغيرون من فطرة الخلق التى فطر الناس عليها كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم : ٣٠) .

وآية سورة الأنعام تتحدث بخصوص تغيير خلق الأنعام ، وبعموم تغيير خلق الله ، إنها آية تتحدث عن فطرة الله فى خلقه فى كل خلق ، وأن الفطرة تتطابق مع الدين . بل هى الدين نفسه . فالإسلام دين الفطرة وتغيير فطرة الخلق . ويتسع المعنى لتغيير فطرة الخلق فى عمليات استنساخ الإنسان . . فالذى يستخدم عمليات الاستنساخ فى استنساخ إنسان يكون قد خرج عن مراد الله فى التكاثر والتناسل ، وبالتالى يكون قد خرج عن فطرة الخلق التى فطر اللهُ خلقه عليها ، فهى إذن من وحى الشيطان للإنسان .



٦ هل الرحم المستأجر والاستنساخ البشرى من علامات قيام الساعة؟؟

أخرج الأئمة البخارى ومسلم وأحمد وأصحاب السنن عن عبدالله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما أن رجلا أتى رسول الله ﷺ يسأله عن قيام الساعة . فقال ﷺ : «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**» . فسأله عن أماراتها فقال النبى ﷺ : «**إذا الحفاة العراة يتطاولون فى البنيان ، وإذا ولدت المرأة ربتها**» وفى رواية «ربها» أى سيدها .

ذكر «الإنسان» فى القرآن الكريم فى خمس وستين آية ، وما وصفه خالقه إلا بأسوأ الصفات . كما قال تعالى : ﴿ **وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ (إبراهيم : ٣٤) . وكما قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا** ﴾ (الإسراء : ٨٣) . وقال أيضا : ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ (عبس : ١٧) وقال تعالى : ﴿ **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)** ﴾ (سورة العصر) .

ومنذ ظهور الإنسان على هذه الأرض ، وهو يمارس تلك الصفات السيئة ، تدفعه إليها نفسه الإمارة بالسوء . وظهرت تلك الصفات السيئة فى الإنسان ، فى عصر النهضة الصناعية الحديثة . فما أن اكتشف قوة البارود ، والطاقة الكبيرة التى يمكنه أن يحصل عليها منه ، حتى استعملها أول ما استعملها فى صناعة طلقات البنادق والمدافع ؛ ليقتل الإنسان أخاه الإنسان . وما أن اكتشف الطاقة الكامنة فى الذرة ، حتى فكر أول ما فكر فى استخدامها فى صناعة قنبلة ذرية أهلكت الحرث والنسل فى لحظات ، وراح يصرف أموالاً طائلة فى تكديس قنابل ذرية تكفى لإبادة الجنس البشرى عشر مرات! ولا ندرى ما الداعى لعشر مرات . . ألا تكفى مرة واحدة؟؟! وبدأ الإنسان فى بناء المصانع الحديثة . . ولكنه لم يراع نظافة البيئة ، فتسبب فى تلوث موارد المياه والأنهار والبحار ، وتلوث الهواء ، وتلوث التربة وإفساد النباتات والثمرات . . وفى عالم الطب ، لم يكن الإنسان أقل سوءاً وظلمًا وفسادًا . ففى أسكتلندا فى أواخر السبعينيات من القرن العشرين ، بدأ ما يُعرف بطفل الأنابيب ، وحدث ذلك لامرأة سدت أنبوبتا رحمها ، وبذلك تعذر أن تحمل بالطريقة الطبيعية ، ففكر الأطباء فى شفط بويضة من مبيض المرأة ، وتلقيح تلك البويضة بمنى زوجها خارج الرحم ونجحوا فى ذلك . . وتكونت النطفة الأولى فى أنبوبة اختبار فى المعمل ، وأدخلوا النطفة الأولى بعد ذلك إلى رحم الزوجة صاحبة البويضة ، فتعلقت به . . واستمر الحمل ، وولدت طفلة بعد ذلك .

ولقد استبشرنا خيرًا ، ولكن فى توجس وخوف ، لأن تاريخ الإنسان لا يبعث على الاطمئنان . فما يتدخل الإنسان فى شىء إلا ويفسده . وحدث ما توقعناه ، ففكر الإنسان فيما يُعرف (بالرحم المستأجر) . . فشفطت بويضة من مبيض امرأة ، ولقحت فى المعمل بمنى زوجها ، وبذلك تخلقت النطفة الأولى فى أنبوبة اختبار فى المعمل . كما حدث فى طفل الأنابيب من قبل . إلا أن الأمر هنا اختلف ، فقد تدخل الشيطان ، وجعل الإنسان يفكر فى زرع النطفة الأولى ، ليس فى رحم الزوجة ، ولكن فى رحم امرأة أخرى! وحملت المرأة الأخرى . . وولدت طفلاً . . وهنا ثارت قضايا عديدة ، منها قضية نسب ذلك الطفل . . واختلف العلماء . . وأصر علماء الوراثة على أن أم الطفل ليست المرأة التى حملت به وولدته ، بل هى المرأة صاحبة البويضة . . وأصروا على ذلك

إصرارًا ، وكأن ما وصل إليه علم الوراثة الحديث هو الكلمة الأخيرة فى العلم . . وما علموا أن الكلمة الأخيرة فى أى علم لاتكون إلا فى الوحى الإلهى فى القرآن والسنة ، وليس فى علوم البشر .

أما علماء الدين فأصروا على أن أم الطفل هى المرأة التى حملت وولدت ، وأن الولد للفراش ، ولا اجتهاد مع نص . فقد أخرج الإمام البخارى عن مالك عن شهاب عن عروة عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**» أى للعاهر الخيبة . . والولد ينسب لمن ولدته ، ولصاحب الفراش أى زوجها . . وليت الأمر اقتصر على ذلك ، فقد وردت أخبار تؤكد ما هو أشد ألماً وعجبًا ، سيدات ثريات – ربات أسر فى بعض البلاد الغنية – أردن أن ينجبن ولكن بدون متاعب حمل ، ومتاعب ولادة . . فاستأجرت الواحدة منهن رحم خادمة فقيرة عندها ، ووضعت النطفة الأولى (التى تكونت فى المعمل من بويضة السيدة ومنى زوجها) فى رحم الخادمة . . فحملت . . وولدت مولودًا . . هذا المولود هو ابن ربتها أو بنت ربتها . . وعندما يكبر أو تكبر ، سيصير أو ستصير ربها أو ربتها . فهل تحققت بذلك علامة من علامات قيام الساعة؟؟

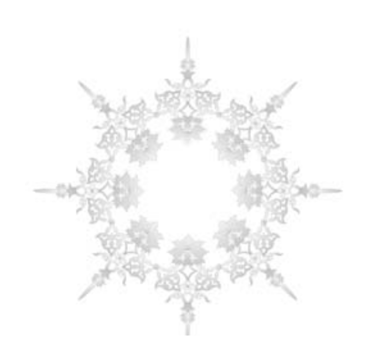
فقد أخرج الأئمة البخارى ومسلم وأحمد وأصحاب السنن ، عن عبدالله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما ، أن رجلا أتى رسول الله ﷺ يسأله عن قيام الساعة فقال : «**ليس المسئول عنها بأعلم من السائل**» فسأله عن أماراتها ، قال النبى ﷺ : «**إذا العراة الحفاة يتطولون فى البنيان، وإذا ولدت الأمة ربتها**» . وفى رواية أخرى : ربها أى سيدها . ومرت الأيام واشتط الإنسان فى كفره وضلاله . ففكر فيما يعرف بالاستنساخ البشرى ، وتحدثت الجرائد والمجلات بأن ذلك حدث فعلاً فى أكثر من بلد فى العالم الغربى ، والاستنساخ البشرى يتم بواسطة النقل النووى من خلية إلى بويضة مفرغة من نواتها ، وهكذا حصلوا على بويضة فى داخلها نواة ، فيها كل عوامل الوراثة وكل الشفرة الوراثية . وبذلك حصلوا على خلية أو نطفة أولى ، تكونت فى المعمل ، ودون الاستعانة بزوج أو زواج . . . ثم وضعوا تلك النطفة الأولى فى الرحم . . واستمر الحمل وتمت الولادة . . وقد تشفط البويضة من جسم صاحبة نواة الخلية ، وبذلك تحمل المرأة من نفسها ، وتلد توأمها ، أو تكون من مبيض امرأة أخرى . . لا يهم! . . تفرغ البويضة من نواتها . . وتوضع بدلا منها نواة خلية بشرية أخرى . . وتتكون النطفة الأولى فى المعمل . . بدون الحاجة إلى حيوان منوى . . وتعالج هذه النطفة بطرق عديدة . وتوضع بعد ذلك فى أى رحم! وتلد الحامل بنتا ، إذا كانت صاحبة النواة امرأة ، أو تلد ولدًا إذا كان صاحب النواة رجلاً ، والمولود المستنسخ من صاحب النواة ، أو صاحبة النواة .

وهكذا لم يصبح للزواج أية ضرورة فى هذا النوع من الإنجاب ، وليس للرجل أى دور ، والأدهى من كل ذلك ، قرأناه أخيرًا فى الصحف ما حدث فى هولندا ، أن امرأتين من الشواذ ، إحداهما تعاشر خادمتها ، أرادت المرأة الشاذة وهى سيدة المرأة الأخرى وربتها أن تشبع رغبتها الشاذة فى أن تستولدها طفلة . فاتفقت مع المختصين فى عمليات الاستنساخ أن يأخذوا منها خلية ويستخرجوا نواتها فى المعمل ، ثم يدخلوها فى بويضة من مبيض خادمتها ، وقد فرغوها من نواتها ، وما أن تتكون النطفة الأولى حتى يبدأ التعامل معها . . وما أن تتم معالجتها حتى توضع فى رحم الخادمة . . واستمر الحمل وولدت الخادمة طفلة مستنسخة من المرأة الشاذة . . وبذلك تكون المرأة الشاذة التى تعاشر خادمتها قد استولدتها طفلة ، وبذلك أيضا تكون الخادمة قد ولدت ربتها! . . وتحققت بذلك علامة من علامات قيام الساعة .

وهناك فرق بين طفل الأنابيب ، والطفل المولود من رحم مستأجر ، الطفل المولود مستنسخا ، الطفل المولود بواسطة (عمليات طفل الأنابيب) ناتج من نطفة من زوج وزوجة ، فهو طفل شرعى ومعلوم النسب ، أما الطفل

المولود من رحم مستأجر ، فهو معلوم النسب . إلا أن هناك خلافًا فى الرأى . . الأب صاحب المنى معروف ، والأم صاحبة البويضة معروفة ، والأم الوالدة معروفة . والاختلاف ناتج من أن علماء الوراثة مصممون على أن علم الوراثة قال كلمته الأخيرة . . وما علموا أن الكلمة الأخيرة لن تكون فى أى علم بشرى . أما الذى قال كلمته الأخيرة فهو الحق المطلق فى القرآن والحديث النبوى . أما الاستنساخ البشرى ونتائجه ، فهو داهية الدواهى . . المولود ليس له أب ، وليس له أم ، وليس له نسب ، فهو إنسان خرج إلى حياة لا مكان له فيها ، فهو بدون هوية ، مدمر نفسيا ، وليس له مكان فى نظام المواريث . . وكل من صاحبة الرحم المستأجر ، وصاحبة الرحم فى الاستنساخ البشرى ، قد تلد ربها أو تلد ربتها ، وبذلك تحققت علامة من علامات قيام الساعة ، كما أخبرنا رسول الله ﷺ . . وهنا نتذكر قول الله عز وجل : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ** ﴾ (يونس : ٢٤) .

فهل الرحم المستأجر والاستنساخ البشرى من علامات الساعة؟! .





مراحل الخلق

الباب السادس

مراحل الخلق

١ خلق النطفة

أخرج الإمام أحمد عن عطاء بن السائب ، عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله قال : مر يهودى برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه . فقالت قريش يا يهودى ، إن هذا يزعم أنه نبى . فقال : لأسألنه عن شىء لا يعلمه إلا نبى . قال : فجاء حتى جلس ثم قال : يا محمد ، م خُلق الإنسان؟ قال : «**يا يهودى ، من كلٍّ يُخلق ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**» .

في دراستنا فى تاريخ العلوم ، نقابل الكثير من النظريات العلمية التى آمن العلماء بصحتها زمنًا طويلاً ، وخالفت ما جاء بالقرآن والسنة ، وجاء الزمن بعد ذلك الذى اكتشف العلماء فيه ، أن تلك النظريات لم تكن صحيحة ألبتة ، وأن ما جاء بالقرآن والسنة كان الحق والصدق واليقين . ونضرب مثلاً على ذلك خلق النطفة الأولى .

كان الرأى السائد لدى العلماء قديمًا عن خلق الجنين ، نظرية أرسطو ، وفلاسفة الإغريق من بعده ؛ أن الجنين يخلق فى رحم أمه من نقطة دم ، إذا وصلها ماء الرجل منحها الحياة ، فتدب فيها الحياة والنمو ، ويبدأ تكون الجنين بعد ذلك شيئًا فشيئًا . ومن العجيب أن تلك النظرية المخطئة ظلت قائمة ومعترفًا بصحتها عشرين قرنًا من الزمان ، من القرن الثالث ق .م إلى القرن السابع عشر الميلادى .

ولكن لماذا لم يكتشف العلماء الحقائق العلمية الصحيحة عن خلق الأجنة ، قبل القرن السابع عشر الميلادى؟ . . ذلك لأن معظم الحقائق العلمية عن خلق الأجنة لا ترى إلا بالميكروسكوب ، ويستحيل رؤيتها بالعين المجردة . . والميكروسكوب العلمى لم يخترع إلا فى القرن السابع عشر وما بعده ، حتى الميكروسكوب الإليكترونى لم يخترع إلا فى أواخر القرن العشرين ، لذلك لم يكن بمقدور العلماء معرفة كيفية تكوّن النطفة الأولى قبل القرن السابع عشر ، ومعرفة كيفية مراحل تكون الجنين كلها ، على أساس علمى صحيح قبل القرن العشرين . ومن هنا نعطى العذر للعلماء الذين عاشوا قبل القرن السابع عشر الميلادى ، فى جهلهم بحقائق علم الأجنة . ومن هنا أيضًا نفهم أن ما قاله العلماء القدامى عن خلق النطفة كان مجرد نظريات وظنون ، وليست حقائق علمية ثابتة .

لذلك ذكرت أمهات كتب التفسير القديمة ، التى ألفت قبل القرن السابع عشر أن خلق النطفة كان من نقطة دم فى رحم الأم ؛ لأنهم كانوا يأخذون العلم ـ فى مختلف فروع العلم الإنسانى فى الآيات الكونية ـ من علماء عصورهم ، كما فعلوا فى نقل آراء علماء الطب عن خلق النطفة فى تلك العصور .

وذكرت كلمة النطفة فى القرآن الكريم فى اثنتى عشرة آية ، وصفت النطفة وسر خلقها بما كان يعتقده العلماء فى تلك العصور . وفى وسط جهل العلماء قديمًا بحقائق علم الأجنة ، نزل القرآن الكريم ، ونزل الوحى على رسول الله ﷺ أيضًا بالحق ، لذلك نجد الحقائق العلمية الصحيحة عن خلق الأجنة مذكورة فى القرآن والحديث النبوى

ـ وهى حقائق ميكروسكوبية ـ من قبل أن يعلم العلماء عنها شيئًا صحيحًا ، إلا بعد نزول القرآن الكريم ، وصدور الأحاديث النبوية بأكثر من ألف عام . مما يعد إعجازًا علميًا عجيبًا .

ولسنا فى حاجة إلى كثير من التفكير لندرك أن القرآن الكريم لو كان من عند بشر ، ولو كان الحديث النبوى الشريف من علم رسول الله ﷺ كبشر ، وليس وحيًا من الله تعالى له ، لذكر القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ما كان يتناقله العلماء فى عصر نزول القرآن من أخطاء علمية ، أما أن يرفض القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف كل تلك الأخطاء العلمية ، ويذكر الحقائق العلمية الصحيحة ، والتى لم يكتشفها العلماء إلا بعد نزول القرآن بأكثر من ألف عام ؛ فإن ذلك يضع أى متشكك أمام حقيقة لا تقبل جدلاً ، ألا وهى أن خالق الأجنة ، هو الذى أنزل هذا القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ وليس هناك احتمال علمى آخر ، ومحال أن يكون القرآن من كلام البشر ؛ والاستحالة هنا استحالة عقلية ، وليست استحالة إيمانية فحسب .

وفى عصرنا هذا ظهر بعض غير المتخصصين ، الذين يتحدثون فى الإعجاز العلمى ، فإذا جاء ذكر خلق الأجنة ، قالوا : إنها خلقت من نقطة دم فى رحم الأم ، وذلك نقلاً عما ذكر فى كتب التفسير القديمة . ومن حقائق علم الأجنة التى يذكرها الأطباء فى الكتب الطبية فى عصرنا هذا ، أن الجنين ابتدأ خلقه من اتحاد أمشاج الذكر والأنثى .

والأمشاج فى اللغة : الأخلاط ؛ لأن من طبيعة الأمشاج الاختلاط ، سواء كانت من الذكر أو الأنثى ، وإذا اختلطا ، تكونت النطفة الأولى ، وإذا لم تختلط الأمشاج وتتحد ، فإنها تموت ، فلا حياة لها إلا بالاختلاط ، لذلك سميت أمشاجًا أى أخلاطًا . والمشيج يحتوى على نصف عدد الكروموسومات ، وبالتالى نصف الجينات (الثلاثة والعشرين كرموسوم) التى تحمل عوامل الوراثة . . وباتحاد الأمشاج تتكون النطفة الأولى التى تحتوى على ستة وأربعين كرموسومًا ، هى مجموع عوامل الوراثة فى الخلية البشرية .

إن خلق الجنين ابتدئ بخلق النطفة الأولى ، التى تكونت باتحاد أمشاج الذكر والأنثى .

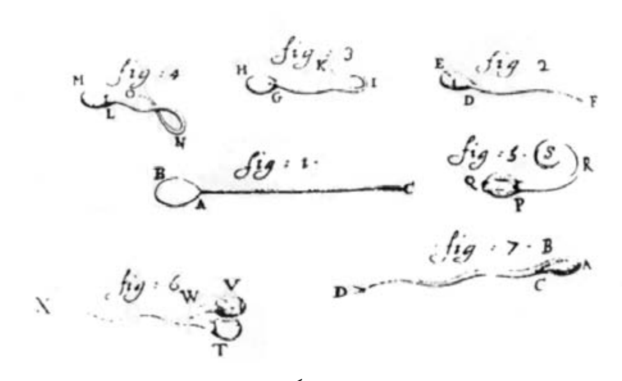
إنها حقيقة علمية ثابتة ، لم تكتشف إلا بالاستعانة بالميكروسكوب العلمى حديثًا جدًا ، ولكن الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى ، ذكرها كما فى قول اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ : ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ (الإنسان : ٢ ، ٣) .

ومن الواضح أن هذه الآية الكريمة تدل على إعجاز علمى مبين ، يؤكد أن الذى خلق الإنسان من أمشاج ، هو الذى أنزل هذا القرآن العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ وليس هناك أى احتمال عقلى آخر .

الخلية الذكرية (الحيوان المنوى)

إن فيها إعجازًا فى الخلق عجيبًا . فهى من أعجب خلايا الجسم ، فلها شكل عجيب ، ولها حركات عجيبة أيضًا . . و تشبه يرقات الضفدعة المعروفة بأبى ذنيبة (مع الفارق الهائل فى الحجم) فحجم الحيوان المنوى $\frac{٤٠}{\text{مليون}}$ من السنتيمترات ولما شاهده ليفانهوك العالم الهولندى الذى كان أول من اخترع العدسات دهش دهشة بالغة وأطلق عليه اسم (الحيوان المنوى) ، فقد ظن أن بماء الرجل حيوانات تسبح! . وظل هذا الاسم غير الصحيح ملتحقًا بها حتى اليوم ، ووضع هارتسوكر رسمًا للحيوان المنوى سنة ١٦٩٤م ، بعد أن اخترعوا الميكروسكوب بسنوات عديدة على اعتقاد أن الحيوان المنوى يحمل إنسانًا قزمًا ضئيلاً للغاية ، وإذا وصل إلى الرحم تغذى ونما وكبر وصار جنينًا كبيرًا ويولد من بطن أمه طفلاً .

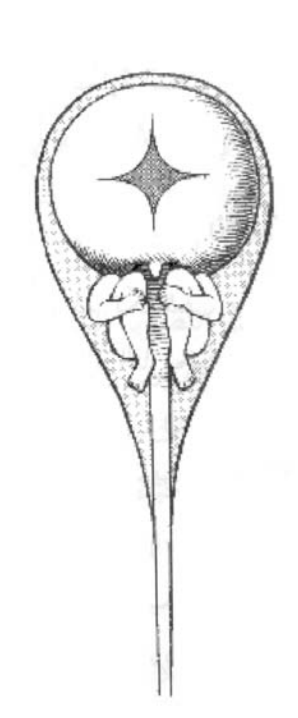
ومن هذه الصورة نفهم أن الميكروسكوب فى القرن السابع عشر لم يكن كافيًا لبيان تفاصيل خلق الحيوان المنوى ، واضطر العلماء إلى إكمال الصورة من خيالهم ، ونظرياتهم التى بنوها بعد مشاهدتهم للحيوانات المنوية ، ولم يكونوا على علم بأطوار خلق الجنين فى رحم أمه ، تلك الأطوار التى ذكرها القرآن الكريم ، وذكرها الحديث النبوى الشريف تفصيلاً ، مما يدل على أن الوحى الإلهى فى القرآن والسنة سابق بالحق دائمًا ، وأن علم الإنسان بجانب علم اللّه لا يعد شيئًا مذكورًا .

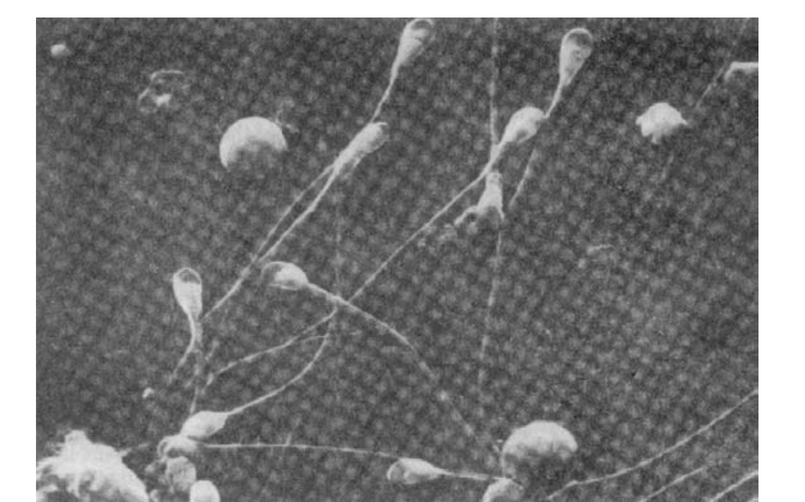


الحيوان المنوى وفقًا للعالم ليفانهوك

وكان اعتقاد العلماء حتى القرن السابع عشر أن الجنين يتكون من نقطة دم فى رحم الأم يأتيها ماء الرجل الذى يأتى من الدم مباشرة ، يأتيها بسر الحياة ، فتدب فيها الحياة وتخلق النطفة . . إلا أن القرآن الكريم ذكر حقيقة خلق النطفة ، وحسم الحديث النبوى الشريف قضية خلق الجنين بأنه بالتقاء نطفة الرجل بنطفة المرأة ، الأمر الذى لم يكتشف إلا بعد القرن السابع عشر .

فقد أخرج الإمام أحمد عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله قال : مر يهودى برسول الله ﷺ . . . إلى قوله : فقال لأسألنه عن شىء لا يعلمه إلا نبى . قال : يا محمد ، مم خلق الإنسان؟ قال: «**يا يهودى، من كلٍّ يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة الأنثى**» . وبذلك ذكر الحديث النبوى الشريف حقيقة بدء خلق الجنين ، تلك الحقيقة التى لم يكتشفها العلماء إلا بعد القرن السابع عشر الميلادى ، مما يدل على أن الحديث النبوى كان وحيًا من الله تعالى لرسوله . وليس اجتهادا منه كبشر .


رسم وضعه هارتسوكر للحيوان المنوى البشرى محتويًا على قزم

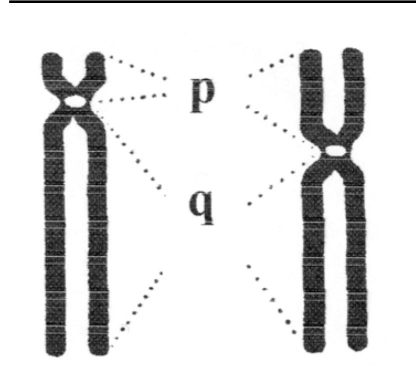

الحيوانات المنوية تحت المجهر الإليكترونى

٢ الإعجاز في خلق النطفة

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى أن رسول الله ﷺ قال : **«يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول : يارب أشقى أو سعيد؟ فيكتبان . فيقول : أى رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان . ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه . ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص»** .

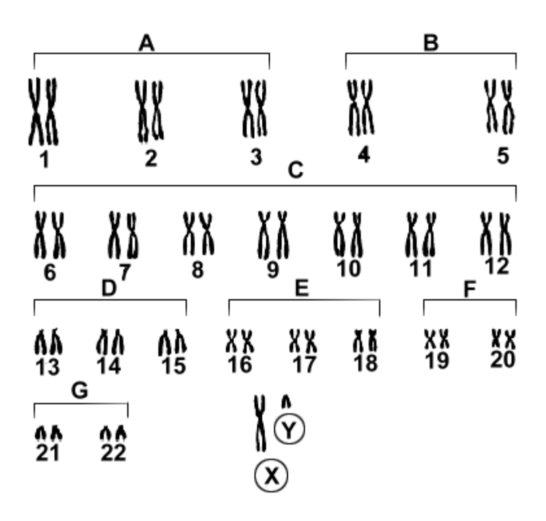
يبدأ خلق الجنين ببويضة ملقحة وذلك نتيجة التقاء حيوان منوى من الرجل ببويضة من الأنثى ، وكل من الحيوان المنوى والبويضة قبل أن يلتحما يحمل نصف عدد الكروموسومات «الصبغيات» وهى أجسام مكونة من الحامض الأمينى D.N.A ولها تركيب مدهش وعجيب ، سنصفه بشىء من التفصيل فى باب (الزوجية فى الخلق) . ويكفى أن نعلم هنا أن الكرموسومات و عددها فى نواة الخلية



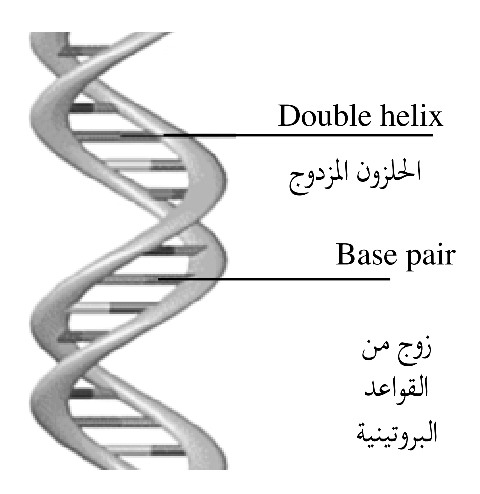


الأشكال المختلفة للصبغيات

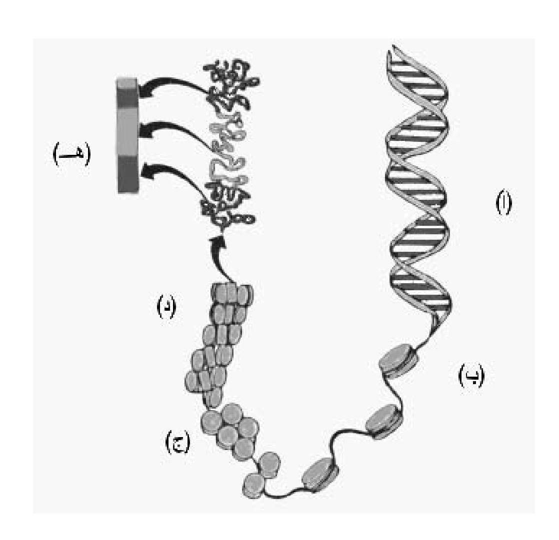
البشرية ستة وأربعون (ثلاثة وعشرون زوجًا) تحمل كل الجينات المميزة لخلق الإنسان . . ووظيفة الجينات إظهار الصفات الوراثية الخَلْقية والخُلُقية فى الإنسان . البويضة من الأم تحمل نصف عدد الكروموسومات وبالتالى نصف الجينات ، والحيوان المنوى من الأب يحمل نصف عدد الكرموسومات . . و باتحادهما معًا فى عملية التلقيح تتكون البويضة الملقحة الأولى ـ وهى الخلية البشرية الأولى ـ والتى منها سيخلق الجنين بواسطة انقسام الخلية البشرية الأولى أزواجًا أزواجًا . . وعندما تخلق الخلية الأولى فى الجنين ، تكون كل الصفات الوراثية الخَلْقية والخُلُقية قد تمت . ولا يزاد فيها ولا ينقص ، اللهم إلا بعض التغيرات الوراثية المفاجئة التى تحدث أحيانا وتسمى (الطفرات الوراثية) ، والتى تغير من بعض الصفات الوراثية ، ولكنها لا تغير من نظام الشفرة الوراثية شيئًا . .



الشفرة الوراثية البشرية



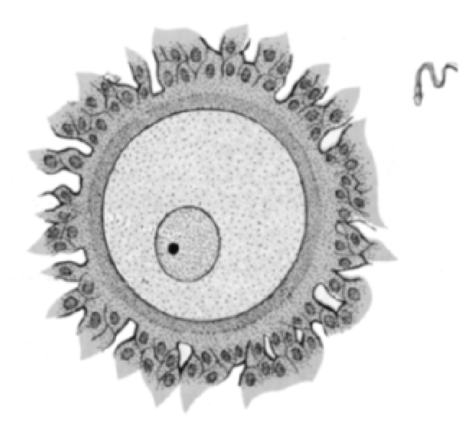
حلزونى الحياة (جزء من الحامض النووى)



رسم تخطيطى للحامض النووى

ونجد فى الحديث النبوى الشريف إعجازًا علميًا عجيبًا فى قوله ﷺ : «**ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص**» وهى حقيقة لم تكتشف إلا فى أوائل القرن العشرين . وما أن تتكون الخلية البشرية الأولى فى اللحظة الأولى من الحمل حتى تتحدد عوامل الوراثة ، ويتحدد جنس الجنين و صفاته الوراثية جميعًا ، وتنقسم خلايا الجنين أزواجًا أزواجًا . . والخلايا الجديدة صورة طبق الأصل من الخلايا التى انقسمت منها . . وهى تنقل الصفات الوراثية من الأبوين إلى الأبناء والذرية ولا تتغير . . مثلها مثل الختم . . يختم ملايين المرات بنفس الصورة ، ونفس الرسم طبق الأصل ، لايزاد فيه ولا ينقص . . لذلك لما ذكرت هذا الحديث النبوى الشريف للمرحوم الدكتور أحمد الكباريتى و كان يعمل أستاذًا لعلم الوراثة والخلية بجامعة بون بألمانيا ، دهش دهشة عظيمة وقال : ما هذا الإعجاز العلمى العظيم . . هل هذا ما قاله رسول الله ﷺ حقا؟! إننا لم نصل إلى العلم بذلك إلا فى القرن العشرين ، ولم يكن أحد قبلنا من العلماء يعلم شيئًا عن ذلك . . لاشك أن ما قاله رسول الله ﷺ كان وحيًا من الله تعالى له ومحال أن يكون من قول البشر .

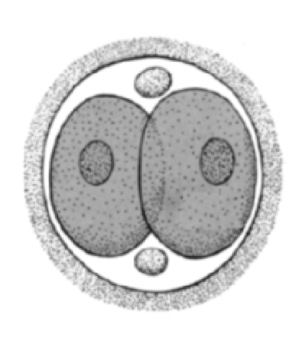
صور للأطوار الأولى فى خلق الجنين (النطفة)



جرثومة التناسل
(بييضة أو حيمن منوى)



اللاقحة
(البييضة المخصبة)



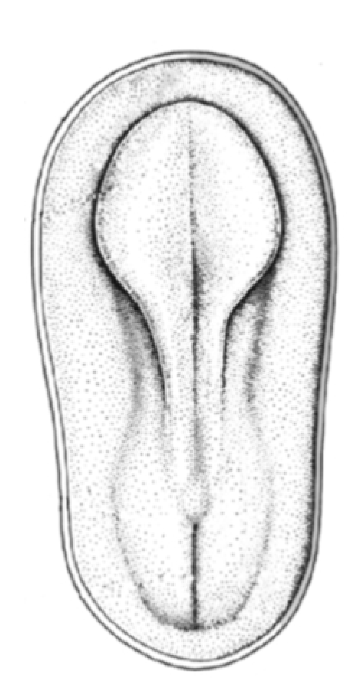
طور الخليتين



طور التوتة



انغراس الكيس
الأرومى



طور ما قبل
الفلقات

٣ خلق الله خلقـــه فى ظلمـــة ونور

ـ أخرج الإمام أحمد فى المسند عن على بن زيد عن أبى عبيدة بن عبد الله عن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال :

«إن النطفة تكون فى الرحم أربعين يومًا . ثم تكون علقة مثل ذلك ، ثم تكون مضغة مثل ذلك ، ثم عظامًا كذلك . فإذا أراد الله أن يسوى خلقه بعث إليها ملكًا . فيقول الملك الذى يليه . . أى رب أذكر أم أنثى . . أشقى أم سعيد . . أقصير أم طويل . . أناقص أم زائد . أصحيح أم سقيم؟ قال : فيكتب ذلك كله . . ثم تطوى الصحف فلايزاد فيها ولا ينقص» .

ـ أخرج الإمامان أحمد فى المسند ، والترمذى فى سننه ، عن عبدالله بن الديلمى ، عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

«خلق الله خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل . فلذلك أقول : جف القلم على علم الله» .

وفى رواية أخرى : **«إن الله خلق خلقه ثم جعلهم فى ظلمة . ثم أخذ من نوره ما شاء فألقاه عليهم ، فأصاب النور من شاء أن يصيبه ، وأخطأ من شاء . فمن أصابه النور يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه يومئذ ضل ؛ فلذلك قلت : جف القلم بما هو كائن»** .

من رحمة الله بعباده أن خلق الإنسان وهو جنين ، فى مكان محمى أمين فى رحم أمه ، وفى قرار مكين . وبذلك جعله كائنًا حيًا محميًا ومحفوظًا ؛ لذلك يسمى «جنينًا» والجنين فى اللغة : من الجُنّة وهى الحفظ والحماية والسِتْر . فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⁽٢٠⁾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ⁽٢١⁾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ⁽٢٢⁾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ** ﴾ (المرسلات : ٢٠ : ٢٣)

وما معنى القرار المكين؟

القرار: يتعلق بالمكان ونقول : أقره فى مكانه فاستقر فيه . . فالقرار صفة للمكان والسكن الذى استقر الشىء فيه وسكن .

كما قال تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ (البقرة :٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** ﴾ (الأحزاب : ٣٣) .

وما معنى المكين؟ أى المكانة والمنزلة ، ويقال مكُنَ مكانةً ، فهو مكين . أى متمكن . وأمكنه الله فهو مكين .

إذن القرار المكين: هو المكان والمُستقر المنيع الذى أمكنه الله فهو مكين .

والجنين فى أول خلقه يكون مخلوقًا ضعيفًا ، أى ضربة تؤذيه ، وأى اهتزاز يضره ، لذلك جعله الله تعالى فى قرار مكين فى بطن أمه ؛ فى أكثر أماكن الجسم حماية له وحفظًا ، إنه داخل الرحم ، والرحم محمى بعظام الحوض القوية من كل اتجاه . . وهو فى مركز الجسم وأقل أماكن الجسم حركة .

وبعد ذلك جعل الله تعالى حول الجنين كيساً مملوءاً بالماء ـ هو الكيس الأمنيوسى ـ وهذا يحمى الجنين من أى ضربة من الخارج .

● وإذا بلغ الجنين أكثر من أربعة أشهر رحمية ، ابتدأ الرحم يظهر خارج عظام الحوض القوية ، حينئذ يجد الجنين حماية أخرى فى جدار الرحم ، الذى يكون قد تضخم أضعافًا مضاعفة وازداد قوة .

● والجزء السفلى من الرحم الموجود داخل عظام الحوض رقيق العضلات أما الجزء العلوى منه الذى هو خارج عظام الحوض ، فهو ذو عضلات سميكة قوية ، حتى يعوض الجنين عن فقدانه حماية عظام الحوض من كل اتجاه ، الأمر الذى يدل على أن خلق الجنين إنما أُسس على علم وحكمة وإبداع ومقدرة . وفى الأشهر الأخيرة من الحمل ، يجد الجنين والرحم حماية لهما فى عضلات البطن القوية . . وهى ثلاث طبقات ـ بعضها فوق بعض ، أما من الخلف فيجدان حماية قوية من عظام الظهر وعضلاته القوية . وهى ثلاث طبقات أيضاً .

وهكذا جعل الله تعالى الجنين فى كل طور من أطوار خلقه ، فى مكان حافظ له ، وفى قرار مكين ، وهذا ما ذكره القرآن الكريم تماماً .

خلق الجنين فى ظلمات ثلاث

ومن تقدير العزيز الحكيم أنه خلق خلقه جميعاً فى ظلمات . . ما من خَلْق إلا خلقه الله فى ظلمة .

ففى البحار ، خلق الله تعالى الكائنات الحية فى ظلمة البحر . . فكلما نزلنا تحت سطح الماء فى البحار وجدنا أنفسنا فى ظلمات . . حتى أن الغواص يجد نفسه فى حاجة إلى مصباح كهربائى ليبدد الظلمات من حوله . . فالله خلق الكائنات البحرية فى ظلمة البحر ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ** ﴾ (النور : ٤٠) ، وكلُ نبات بدأ خلقه من حبة فى ظلمة التربة . . فكل المملكة النباتية إنما خلقت فى ظلمة التربة . وذكر فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الأنعام : ٥٩) .

وكل الدواب والإنسان ، إنما بدأ خَلْقُ كل منها فى (ظلمة الرحم) . وحتى الفضاء الكونى حيث الكواكب والنجوم ، فى ظلمة تامة . . وكل خلق فى الفضاء الكونى يسبح فى ظلمة ﴿ **وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴾ (النازعات : ٢٩) . هذا ما توصل إليه العلماء حديثاً ؛ علماء النبات وعلماء البحار ، وعلماء الفيزياء الكونية . وعلماء الأجنة . . ولم يكن كل ذلك معروفاً من قبل ، إلا أن الله تعالى ذكره فى القرآن العظيم .

. . ونتذكر قول الله عز وجل : ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ** ﴾ (الزمر : ٦) .

وقال رسول الله ﷺ : «**خلق الله عزوجل خلقه فى ظلمة**» . .

الحديث النبوى الشريف يحدثنا عن الظلمة الحسية فى الخلق ، والظلمة المعنوية فيهم أيضاً . نجد الظلمة الحسية فى ظلمات الرحم ، وظلمات البحر ، وظلمات التربة . وينشأ الخلق بكل أنواعهم فى تلك الظلمات . أما

الظلمة المعنوية فهى ظلمة الضلال والكفر . والنور المعنوى هو فطرة الله تعالى فى خلقه ، وبالفطرة يهتدى كل خلق إلى سبل حياته ، والنور المعنوى أيضاً هو نور الهداية والإيمان . .

وكل مخلوق حى يمر بظلمة الرحم ، وبعد ذلك قد يمر فى ظلمة معنوية أشد من الظلمة الحسية وأقسى ، وهى ظلمة الضلال والكفر ، أو يمر بنور الهداية والإيمان ، فمن أصابه نور الهداية اهتدى ومن أخطأه ضل .

وإذا تدبرنا آية سورة الزمر ، لوجدنا أنها تشير إلى أن الجنين فى كل طور من أطوار خلقه فى ظلمات حسية ثلاث . . فما هى هذه الظلمات الثلاث فى كل طور من أطوار خلق الجنين؟

فى الطور الأول: تكون النطفة صغيرة جداً ، وتكون داخل الرحم . فهى فى ظلمات ثلاث : ظلمة الرحم . والرحم فى ظلمة عظام الحوض ، والحوض فى ظلمة البطن .

فى الطور المتوسط: يكون الجنين فى ظلمات ثلاث أخرى : ظلمة كيس الماء . والكيس والجنين بداخله ، فى ظلمة الرحم . والرحم بكل ما فيه فى ظلمة البطن .

وفى الطور الأخير: يصير الجنين فى ظلمات ثلاث أخرى هى : طبقات الرحم الثلاث وقد تضخمت وازدادت سمكاً . والرحم بظلماته فى ثلاث ظلمات أخرى هى ظلمة جدار البطن بطبقاته الثلاث .

وهكذا نجد أن الجنين خُلق خلقاً من بعد خلق . وفى كل طور من أطوار الخلق هو فى ظلمات ثلاث .

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾ (الزمر : ٦) . أى : فكيف تصرفون عن الحق .

وهكذا قدر الله تعالى أن يخلق الأجنة فى ظلمات ثلاث وأن يجعلها فى قرار مكين .

ونجد كل ذلك فى أجنة الإنسان . وأجنة المملكة الحيوانية كلها . . كلها على نفس النظام فى الخلق . . ووحدة النظام فى الخلق تدل على وحدانية الخالق . وأنه لا إله إلا الله .

وإذا وصلنا إلى بيان هذا الإعجاز العلمى المدهش فى خلق الأجنة ، وتعجبنا من إتقان صنع الله وإبداع خلقه ، سهل علينا أن نفهم ما عقبت به الآية الكريمة بالقول :

﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾

وما عقبت به الآية الكريمة من حق ، هو الهدف من بيان الآية الكريمة للإعجاز العلمى المدهش فى خلق الأجنة . . لأن الإعجاز العلمى فى خلق الأجنة أدهشنا وجعلنا نستدل به على عظمة الخالق ، وأنه هو الحق ، وأنَّ له المُلك ، وأنه لا إله إلا اللهُ ، فذلك ما عقبت به الآية : ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾ .

وهذا هو سبب ذكر الإعجاز العلمى فى مطلع الآية الكريمة .

ونفس الشىء فى كل آيات القرآن العظيم .

فألقى عليهم من نوره:

كما أن الظلمة نوعان فكذلك النور نوعان: نور حسى مثل نور القمر . . كما قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً** ﴾ . (يونس : ٥) .

ونور معنوى هو نور الهداية والإيمان . . كما قال تعالى : ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ** ﴾ (المائدة : ٤٦) .

ونجد فى الحديث النبوى الشريف أن اللهَ عز وجل خلق خلقه فى ظلمة حسية وظلمة معنوية ، ثم ألقى عليهم

من نوره ، وهو نور معنوى هو نور الهداية والإيمان ، والنور المعنوى يسهل فهمه . . ولكن كيف خلق الله تعالى خلقه فى ظلمة حسية؟ لقد حمل لنا التقدم العلمى الجواب عن ذلك . . فقد تبين للعلماء فى عصر العلم الحالى أن كل خلق فى السماء إنما خلق فى ظلمة ، وأن أى خلق فى الأرض إنما خلق فى ظلمة أيضاً .

السماء فى ظلمة تامة وليل دائم . . هذه حقيقة اكتشفها العلماء حديثاً . . وذكرها القرآن الكريم حيث قال : ﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴾ (النازعات : ٢٧ ـ ٢٩) . أغطش ليلها . أى : جعل السماء فى ليل مظلم . . إذن فكل خلق فى السماء إنما خلق فى ظلمة .

وخلق المخلوقات البحرية فى ظلمة البحار . . كما قال تعالى : ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ (النور : ٤٠) .

والمملكة النباتية: كل نبات وكل شجرة . ابتدأ خلقها فى ظلمة التربة . كما قال تعالى : ﴿ **وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الأنعام : ٥٩) .

وخلق الله تعالى الدواب جميعاً فى ظلمة أرحام أمهاتها . . مثلها مثل الإنسان . . لقد خلق الله الجنين فى ظلمات . . كما ذكرنا من قبل .

ومن رحمة الله بعباده أن خلق الإنسان وهو جنين فى بطن أمه ، فى مكان محمى أمين فى رحم أمه ، وفى قرار مكين . . وبذلك جعله كائناً حياً محمياً ومحفوظاً ؛ لذلك يسمى «جنيناً» والجنين فى اللغة من الجُنّة ، وهى الحفظ والحماية والستر . فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ** ﴾ (المرسلات : ٢٠- ٢٣) .

وهكذا جعل الله تعالى الجنين فى كل طور من أطوار خلقه فى مكان حافظ له ، وفى قرار مكين . . وهذا ما ذكره القرآن الكريم تماماً .

ومن تقدير العزيز الحكيم أنه خلق خلقه جميعاً فى ظلمات . . ما من خَلْق إلا خلقه الله ، فى ظلمة ، ففى البحار خلق الله تعالى الكائنات الحية فى ظلمة البحر . . فكلما نزلنا تحت سطح الماء فى البحار كلما وجدنا أنفسنا فى ظلمات . . حتى أن الغواص يجد نفسه فى حاجة إلى مصباح كهربائى ليبدد الظلمات من حوله . . فالله خلق الكائنات البحرية فى ظلمة البحر .

وكل نبات بدأ خلقه من حبة فى ظلمة التربة . . فكل المملكة النباتية إنما خلقت فى ظلمة التربة . وكل الدواب والإنسان ، إنما بدأ خلق كل منها فى ظلمة الرحم . وحتى الفضاء الكونى حيث الكواكب والنجوم ، فى ظلمة تامة . . وكل خلق فى الفضاء الكونى يسبح فى ظلمة .

هذا ما توصل إليه العلماء حديثاً ، علماء النبات وعلماء البحار ، وعلماء الفيزياء الكونية ، وعلماء الأجنة . . ولم يكن كل ذلك معروفاً من قبل ، إلا أن الله تعالى ذكره فى القرآن العظيم . .

٤ الجـــبـــر والاخـــتـــيـــار

ـ أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى عبدالرحمن السُّلَمِىِّ عن على قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما منكم من نفس إلا وقد عُلِمَ منزلُها من الجنة أو النار**» قالوا : يا رسول الله . فَلِمَ نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال : «**لا.. اعملوا.. فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له**» ثم قرأ : ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ**﴾ (الليل : ٥ - ١٠) .

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر قال : جاء سراقةُ بن مالك بن جُعْشُم قال : يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنّا خُلقنا الآن . . فيما العملُ اليوم . أفيما جفت به الأقلام (أى سبق فى علم الله وتمت كتابته فى اللوح المحفوظ وجف القلم الذى كتب به ، وجرت به المقادير) أم فيما نَسْتقبل؟

قال : «**لا . بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**» قال : ففيم العمل؟ قال ﷺ : «**اعملوا فكل ميسرٌ لما خُلق له**» .

ـ أخرج الإمام أحمد عن يزيد بن أبى منصور عن الكلابى سئل رسول الله ﷺ : أنعمل فى أمر مستأنف أو أمر قد فرغ منه؟ قال : «**لا بل فى أمر قد فرغ منه**» قال : ففيم العمل إذن؟ قال ﷺ : «**اعملوا فكل ميسر لما خُلق له**» .

ـ أخرج الشيخان عن سعد بن عبيدة عن أبى عبدالرحمن السلمى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بقيع الغرقد فى جنازة فقال : «**ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة**» فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله؟ قال : «**لا . . اعملوا فكل ميسر**» وقرأ : ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ...**﴾ .

ـ وأخرج الشيخان عن سفيان عن شعبة قال سراقة بن مالك فقال : «يارسول الله ، أنعمل اليوم فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أو فيما يُستقبل؟ قال : «**بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**» . فقال : ففيم العمل؟ قال : «**اعملوا فكل مُيَسرٌ لما خُلق له**» .

لو تدبر العلماء على مر العصور هذا الحديث النبوى الشريف ، ولو تدبروا القرآن العظيم ما اختلفوا فى موضوع الجبر والاختيار زمناً طويلاً ، ولوفروا على أنفسهم عناء الجدل فى هذا الموضوع ، ولأدركوا أن الحديث النبوى الشريف أوضح لهم الحقيقة فى قضية الجبر والاختيار ، والجبر هو نفى إرادة الفعل عن العبد وإضافته إلى الرب .

والجبرية أنواع: منهم الجبرية الخالصة ، وهى التى تنفى عن العبد أى فعل أو عمل أو قدرة . ومنهم الجبرية المتوسطة ، وهى التى تثبت للعبد قدرة . . ولكنها غير مؤثرة بفعل العقل . وسموا ذلك كسباً وليس بجبرى .

ويقول الجبرية: إن الإنسان مجبر لا مخير ، فلا اختيار له ولا قدرة ، وأن الله تعالى قدّر كل الأعمال أزلاً . . والجبرية طائفة ظهرت فى القرن الأول الهجرى وكان على رأسهم «جهم بن صفوان» لذلك تسمى (الجبرية) أحياناً ، و(الجهمية) أحياناً أخرى . . والجبرية ضد القدرية .

وعارضهم فريق من المعتزلة وقالوا : إن الإنسان مخير فى كل أفعاله ، لذلك يحاسب عن أعماله .

فأيهما أصح: الجبرية أم القدرية؟ نقول : الاثنان على خطأ . . ولا أدرى لماذا اختلفوا والرسول ﷺ علمهم

وأرشدهم إلى الحق . إنه لم يقل : (اعملوا فكل مجبر لما خُلق له) . ولم يقل : (اعملوا فكل مخيّر فيما خُلق له) . وإنما قال : «**اعملوا فكل ميسر لما خُلق له**» أى إن الإنسان مخير فى نطاق الجبرية ، ومسير فى نطاق القدرية . . فالإنسان مخيّر ومجبر فى نفس الوقت .

نفهم ذلك إذا علمنا المغزى العلمى فى قول الله عز وجل فى سورة الإنسان :

﴿ **فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ .

إننا إذا فهمنا المغزى العلمى فى هاتين الآيتين الكريمتين ، أدركنا المغزى العلمى فى الحديث النبوى الشريف «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» . إلا أنه حدث قديماً شد وجذب بين العلماء فى تفسير هاتين الآيتين ، فى مشكلة الجبر والاختيار .

أهل الاختيار متمسكون بالآية الأولى : ﴿ **فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾ . وهذه الآية الكريمة تدل على أن مشيئة العبد ملزمةٌ لفعله . وعلى هذا الأساس يحاسب العبد على أعماله .

أما أهل الجبر فإنهم يتمسكون بالآية التالية : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ . وهذه الآية الكريمة تدل على أن مشيئة الله تعالى ملزمة لمشيئة العبد .

إلا أن الذى يتدبر الآيتين معاً ، يدرك أن مشيئة الله تعالى ملزمة لمشيئة العبد ومهيمنة عليها ، إلا أن للعبد مشيئة أيضاً ، ملزمة لفعله ، وله اختيار فى أن يفعل الخير أو يفعل الشر . . أى إن العبد مختار فى أفعاله ، وغير مختار فى اختياره الذى قدره الله تعالى عليه .

وحتى نوضح الأمر ، نضرب مثلاً بجندى فى ميدان القتال . . إنه لم يذهب مجنداً إلى ميدان القتال باختياره فهو مجبر ، لا اختيار له فى تجنيده وإرساله إلى ميدان القتال . ولكنه فى ميدان الحرب يعمل باختياره ، فهو مجبر لا اختيار له فى تجنيده وإرساله إلى ميدان القتال ، ولكنه فى ميدان الحرب له اختيار فى أفعاله ، كيف يقتل عدوه ، بأن يتحرى دقة التصويب ، وكيف يتفادى أن يصيبه عدوه بأذى ، بأن يحتمى وراء صخرة أو جدار . . فهو مختار فى أفعاله فى ميدان القتال ، فى نطاق الخطة الحربية الموضوعة . ولأنه مختار فى أفعاله فى ميدان القتال ، فإنه إذا أحسن العمل المكلف به ، كوفئ ـ وإذا أساء العمل ، عوقب . ولن يكون مسئولا إذا هزم الجيش أو انتصر ، لأن هزيمة الجيش أو انتصاره ، خارج حدود الأعمال التى كلف بها ، وخارج حدود مشيئته واختياره .

من هذا المثل نفهم أن الإنسان مختار فى أفعاله ، إلا أنه غير مختار فى اختياره «الذى قدره الله عليه» فإن مشيئة الله تعالى مهيمنة على مشيئة العبد . إذن فقوله تعالى : ﴿ **فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾ قول كريم يدل على أن الإنسان له اختيار فيما يفعل . . وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ . قول كريم يدل على هيمنة مشيئة الله تعالى على مشيئة العبد ، بمعنى أن العبد مختار فى أفعاله ، وغير مختار فى قدر الله عليه . لقد منح الله تعالى الإنسان العقل ، يزن به الأمور ، ويختار بين البدائل ، ويفعل هذا ولا يفعل هذا ، ويأخذ هذا ويدع هذا تبعاً لمشيئته واختياره هو ، وعلى هذا الأساس سيحاسب ، إلا أنه مجبر فى اختياره دون أن يشعر ، لأن اختياره ومشيئته هى فى نطاق قدر الله تعالى عليه ، وهيمنته عليه . فالإنسان ليس مخيراً مطلقاً ، وليس مجبراً مطلقاً . المجبر مطلقاً هى الدواب والجماد ، وهى مخلوقات لم تمنح طاقة العقل . . أما الإنسان فالله تعالى ميزه عن باقى خلقه بطاقة العقل ، وبالعقل كان للإنسان طاقة اختيار ومشيئة ، فالإنسان يعمل فى حياته الدنيا وقد يسر الله تعالى له السبيل فذلك حديث رسول الله ﷺ : «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» . وهو حديث شريف يفسر قوله تعالى :

﴿ **مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ** ﴾ (عبس : ١٨ - ٢١) .

٥ الشـــيــــخــــوخـــة

روى الإمام البخارى أن رسول الله ﷺ كان يدعو ربه يقول : «**اللهم إنى أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر**» .

ـ روى الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «**مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية ، إن أخطأته المنايا وقع فى الهرم حتى يموت**» .

ـ روى الإمام البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**لا يزال قلب الكبير شاباً فى اثنتين : حب الدنيا وطول الأمل**» .

ـ روى الإمام مسلم عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة . أن رسول الله ﷺ قال : «**قلب الشيخ شاب على حب اثنتين : طول الحياة وحب المال**» .

ـ وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «**قلب الشيخ شاب فى اثنتين : طول الحياة وكثرة المال**» .

ـ روى الإمام مسلم والإمام أحمد والأئمة أصحاب السنن عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : «**قلب الشيخ شاب على حب اثنتين : حب العيش والمال**» . وفى رواية (حب الدنيا وطول الأمل)

ـ روى الترمذى وأبو داود وابن ماجه عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك أن رسول الله ﷺ قال : «**عباد الله تداووا فإن الله عزوجل لم يضع داء إلا ووضع له دواء إلا داء واحداً هو الهرم**» . أى : الشيخوخة .

ـ روى الإمام أحمد عن عمرو بن عبسه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : فى حديث له : «**من شاب شيبة فى سبيل الله كان له نوراً يوم القيامة**» .

ـ روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : «**لا تنتفوا الشيب ، فإنه نور المسلم . ما من مسلم يشيب شيبة فى الإسلام إلا كتب له حسنة ، ورفع بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة**» . وقال : «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا**» .

الشيخوخة بين القرآن والسنة والعلم الحديث

يمر جسم الإنسان فى حياته الدنيا بأطوار مختلفة من أطوار الخلق فهو يخرج من بطن أمه طفلاً . . لا يعلم شيئاً من أمر الدنيا . ثم ينمو جسمه شيئاً فشيئاً وتبدأ حواسه فى العمل . . فذلك قول الله عزوجل : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (النحل : ٧٨) .

ثم يكبر الجسم ويصير الإنسان شاباً قوياً ، ثم يصير كهلاً . . ويمضى به الزمن ـ إن طال به العمر ـ إلى آخر طور من أطوار خلق جسم الإنسان فى الدنيا ، وهو طور الشيخوخة . .

وفى طور الشيخوخة يضعف الجسم شيئاً فشيئاً ، وتهاجمه الأمراض البدنية المختلفة فى كل مكان . . فيضعف من بعد قوة . وإذا امتدت الشيخوخة ، وصل الجسم إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة ، التى هى أشد وطأة على الجسم والنفس معاً . . وأكثر ألماً وضعفاً وأكثر عجزاً . ذلك أن عوامل الهدم فى الجسم تصير أكثر من عوامل البناء . ويصاحب ذلك تغيرات بيولوجية فى خلايا الجسم تقلل من كفاءتها كثيراً . . لذلك ما أن تدب الشيخوخة فى الجسم حتى يصاحبها الشعور بالضعف ، ويتحول الجسم إلى مرعى خصيب لكثير من العلل

والأمراض ، التى ربما تطول إقامتها فيه وقد لا تبرحه قط . فالجسم فى الطفولة يكون ضعيفاً ، لذلك يعتمد الإنسان فى طور الطفولة على غيره فى القيام بشئونه . ثم هو يكبر ويصير شاباً قوياً يساعد الآخرين . ثم كهلاً فيه بقية من قوة تساعده على القيام بشئونه كلها وشئون غيره أيضاً . . أما بعد ذلك فيدخل فى طور الشيخوخة ، وهى مرحلة الضعف التدريجى الذى يضطر الإنسان فيها إلى الاعتماد على مساعدة غيره فى القيام بشئون نفسه . . ويصير مرة أخرى ضعيفاً كما كان فى طور الطفولة . فالإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً . وعندما يدخل فى طور الشيخوخة المتأخرة يدخل فى طور من الخلق لا يعلم فيه شيئاً كما قال الله عزوجل ﴿ **يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾ (الحج : ٥) . إنها دورة الحياة وأطوارها التى يمر بها جسم الإنسان إذا امتد به العمر . . ضعف ثم قوة ثم ضعف وشيبة . . وهذا يذكرنا بقول الله عز وجل :

﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾ (الروم : ٥٤) . . ذكر حقيقة اختلاف أطوار خلق جسم الإنسان . . ليستدل بها القارئ على المشيئة الإلهية وعلى علم الله وقدرته ، لذلك عقبت الآية الكريمة بالقول ﴿ **يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾ (الروم : ٥٤) .

ولماذا قدم المشيئة على العلم ، وقدم العلم على القدرة؟ لأن المشيئة سابقة على الخلق . والخلق إنما بنى على العلم ، وعلم الله عز وجل أظهر لنا من القدرة . . لأن علم الله تعالى حاصل وظاهر فى كل طور من أطوار الخلق . . فالله تعالى ينبه إلى أنه عالم بالإنسان فى كل أحواله . . وهو قادر بعد ذلك على الثواب والعقاب ، لذلك ذكر العلم بأطوار خلق الإنسان ، قبل ذكر القدرة عليه . فقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾ لأن مشيئة الله أزلية . . ولأن القدرة فى الخلق مؤسسة على العلم .

وذكرت الحقيقة العلمية عن أطوار الشيخوخة ﴿ **وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾ بنفس الكلمات والحروف فى سورتى النحل والحج (٥) . . وإذا كان هناك تكرار فى الكلمات فليس هناك تكرار فى المعنى . . وهذه قاعدة عامة فى القرآن العظيم كله . نزلت أولاً فى مكة المكرمة فى سورة النحل (٧٠) فى قوله تعالى ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴾ إنها حقائق علمية ثابتة ساقها دليلاً واضحاً على علم الله فى خلقه وقدرته فى ملكوته .

وبعد ذلك ذكر هذه الحقيقة العلمية ، لتكون دليلاً على حقيقة أخرى غيبية ، هى حقيقة البعث بعد الموت ، وذلك فى سورة الحج ، وهى سورة مدنية ، ونزلت بعد سورة النور ، قال الله عزوجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ** ﴾ ولماذا لم يوجه الحديث للمؤمنين؟ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ذلك لأن الذين آمنوا ليسوا فى ريب من البعث . قال الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ (الحج : ٥) ذكرت سورتا النحل والحج

أطوار خلق الإنسان فبعد الإجمال فى سورة النحل ، نزل التفصيل فى سورة الحج . وأورد حقيقة ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلاً يعلم من بعد علم شيئاً﴾ فى سياق الحديث عن الاستدلال بحقائقٍ غيبية متعددة وليست متكررة (فليس هناك تكرار فى القرآن بمعنى التكرار . . تكرار فى اللفظ وليس تكرارًا فى المعنى ، إلا إذا أراد به التأكيد مثل ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ . . وأرذل العمر مرحلة لا يتمناها أحد لنفسه أبداً ، لذلك علمتنا سنة رسول الله ﷺ أن نستعيذ بالله منها فقد روى البخارى أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يدعو ربه فيقول : «**اللهم إنى أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أردّ إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر**» والرسول ﷺ يعلم أن الله تعالى عصمه من كل ذلك ، و لكنه كان يناجى ربه أمام الناس تعليماً للناس وإرشاداً لهم ، كيف يدعون ربهم ؛ لأن الله عزوجل بعثه هادياً للأمة ، ومعلماً لها من يوم أن بعث ، وإلى يوم القيامة . .

الشيخوخة من سنن الله الكونية

إن الذى ينظر إلى سنن الله الكونية ، يجد أن الشيخوخة طور زمنى حتمى ، فى دورة حياة كل مخلوق ، فالشيخوخة من فطرة الخالق فى هذا الكون ، من أول الخلية الحية التى لا ترى إلا بالمجهر ، إلى خلق المجرة الهائلة فى الفضاء الكونى . كل شىء فى الكون يبدأ خلقه بطور الطفولة وينتهى إلى طور الشيخوخة . . نجد ذلك فى الإنسان والنبات والحيوان والطير وحتى الجماد كالجبال والبحار . وحتى الكواكب والنجوم . وتبدأ كل خلية فى الجسم فى طور شبابها ثم بعد ذلك تظهر عليها أعراض الشيخوخة . ومع أن زمن الخلية البيولوجى ـ وهو ما يسمى بالعمر الافتراضى ـ موجود بها منذ بدء خلقها . إلا أن عوامل البيئة المحيطة بها قد تؤثر عليها ، فكل خلية بالجسم تعيش فى توازن فسيولوجى فى منتهى الدقة ، ويصيب الخلل هذا التوازن الفسيولوجى مع تقدم العمر . . وذلك بسبب تغيرات بالبيئة الداخلية المحيطة بالخلية مما يعجّل بحلول الشيخوخة فيها . ومهما يكن من أمر ، فإن الشيخوخة طور حتمى من أطوار حياة الجسم ، لا يمكن منعه ، فالزمن يسوق الجسم إلى الشيخوخة سوقاً ويدفعه إليها دفعاً . . وتجرى الحياة والموت جنباً إلى جنب فى جسم الإنسان : ملايين الخلايا تموت كل ثانية من الثوانى ، وملايين أخرى من الخلايا تحيا . . ففى جسم الإنسان منايا وحياة . . حتى إذا جاءت الشيخوخة زادت عمليتا الموت والهدم على عمليات الحياة والبناء ، وبذلك تحل الشيخوخة فى الجسم ولا يمكن إعادة الشباب فى خلايا الجسم أبداً . . نجد ذلك فى بعض المعانى فى الحديث النبوى الذى رواه الإمام الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال :

«**مثل ابن آدم وفى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع فى الهرم حتى يموت**» .

فالحياة والموت يجريان فى جسم الإنسان جنباً إلى جنب . . ولابد للجسم من أن يصل إلى الشيخوخة إن أخطأته المنايا وطال به العمر . . ولن يجد الإنسان من شيخوخة الجسم مفراً ، ولن يجد منها مهرباً .

والإنسان يخشى الشيخوخة إذا كانت مقبلة عليه . . ويشكو منها إذا حل فيها ، كما قال الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

وقال آخر : **ذهب الشباب فماله من عودة وأتى المشيب فأين منه المهرب**

وما يحدث فى خلايا جسم الإنسان يحدث فى خلايا كل كائن حى . . فكل كائن حى يمر بأطوار الطفولة والشباب والشيخوخة . . ففى عالم النبات مثلاً نجد هذه الأطوار فى كل نبتة وكل شجرة ، ونقرأ عن هذه الحقائق فى قول الله عزوجل .

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ (الزمر : ٢١) لما وصف الله تعالى أحوال المتقين فى الجنة فى الآية السابقة فى قوله تعالى : ﴿ **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** ﴾(الزمر : ٢٠) ذكر أحوال الدنيا بعد ذلك بصفات تنفر الإنسان منها ؛ لأنها إلى زوال ، والإنسان فيها مثل النبات مصيره إلى الضعف والشيخوخة . . وعقبت الآية بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ . أى إن من يشاهد هذه الأطوار فى النبات يقارنها بما يحدث له فى بدنه ، فإذا هى تماماً ما يحدث للإنسان ومصيره إلى شيخوخة ، ثم إلى موت . فالذين يتذكرون ذلك يزهدون فى الدنيا ويرغبون فى الآخرة ؛ لما فيها من نعيم . وقدم الترغيب فى الجنة على التنفير من أحوال الدنيا ، لأن الترغيب فى الجنة مقصود بالذات . . والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض . . والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض .

فالشيخوخة تحدث فى النبات كما تحدث فى الإنسان والحيوان . ذلك أن الشيخوخة من سنن الله الكونية . . وساقها الله مثالاً فى آية سورة الزمر لتكون ذكرى لأولى الألباب ونجد حقيقة الشيخوخة فى النبات مذكورة أيضًا فى قول الله عزوجل ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾(الحديد : ٢٠) ساق الله تعالى حقيقة أطوار خلق النبات وأن مصيرها إلى زوال ، تشبيها بما يحدث للإنسان الغافل عن ربه ، وعن الحساب فى الآخرة .

اللعب : هو ما رغب فى الدنيا ، واللهو : ما ألهى عن الآخرة وشغل الإنسان عنها .

والزينة : هى زينة الدنيا وما يتزين به الإنسان لغير الله فى الدنيا . . وكل هذا مصيره إلى زوال . كما ترون فى أطوار خلق النبات من شباب ثم إلى شيخوخة وحطام . إن الدارس لأطوار الخلق التى تنتهى بالشيخوخة يوقن تماماً أن الحياة الدنيا هى بمثابة لحظة فى تاريخ الإنسان الطويل . وأنها دار ممر وأن الآخرة هى الحياة الحقة ودار المقر الدائم . كما قال سيدنا رسول الله ﷺ : «**يا عبدالله كن فى الدنيا كعابر سبيل**» . . فشبه رسول الله ﷺ الإنسان فى الدنيا ليس كسائر فى طريق . . وإنما كعابر لطريق ، إشارة إلى قصر الحياة الدنيا ، ولاشك أن الشيخوخة تعطى الدليل على حقيقة البعث بعد الموت ، نقرأ سورة الحج فى قول الله تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ** ﴾(الحج : ٥) هذه حقيقة أولى .

﴿ **وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ وهذه حقيقة ثانية .

﴿ **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾ وهذه حقيقة ثالثة .

وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ وهذه حقيقة رابعة .

إنها أربع حقائق علمية نستدل بها على أربع حقائق غيبية :

الأولى: ذلك أن الله هو الحق .

الثانية: وأنه يحيى الموتى .

الثالثة: وأنه على كل شىء قدير .

الرابعة: وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . . وجاء ذكر الأرض بوصفها هامدة فى الآية الكريمة لأن ذلك أنسب فى سياق الحديث عن خلق الإنسان منذ بدء خلقه نطفة ، وأنه قد يتوفى ، وقد يرد إلى أرذل العمر . وجاء ذكر الأرض بوصفها خاشعة فى سورة فصلت : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ (فصلت : ٣٩) : لأن ذلك أنسب فى سياق الحديث عن سجود الكون ومن فيه لله عزوجل ، قال تعالى :

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (فصلت : ٣٧ ـ ٣٩) .

إذن فالحقائق العلمية تذكر فى القرآن الكريم لتؤدى قصداً معيناً ، ولنستدل بها على حقائق أخرى لانحسها بحواسنا . . فتستقر الحقيقة الغيبية فى القلب عن طريق العقل وهذا أفضل الإيمان . . وما ذكرت الشيخوخة كحقيقة علمية فى آى القرآن العظيم والحديث النبوى الشريف لمجرد الإعجاز العلمى ، وإنما لنستمد منها تربية نفسية ، ونستدل بها على حقائق غيبية أخرى عن طريق الاستنباط والقياس .

شيخوخة جسم الإنسان

يمضى الجسم الربع الأول من حياته فى نمو وزيادة . . بينما يمضى الأرباع الثلاثة الأخرى فى شيخوخة تدريجية ومستمرة . وليس للشيخوخة عمر محدد . فبعض الأجسام تشيخ فى عمر مبكر ، وبعض الأجسام لا تشيخ إلا بعد عمر طويل . . فليست الشيخوخة معتمدة على العمر فقط ، وإنما على عوامل أخرى كالوراثة ، والبيئة ، والأمراض العضوية التى تصيب الجسم ، كما تعتمد على صحة الشرايين .

ولا يعانى بعض الناس فى الشيخوخة كثيراً . . ويظل نشيطاً واسع الإدراك ، حاضر الذهن ، وقادراً على الحكم على الأمور ، بحكمة وبعد نظر ، بناء على خبرة طويلة ، يفتقر إليها من هو أقل منه عمراً . .

وتحدث تغيرات بيولوجية وفسيولوجية فى أعضاء الجسم فى طور الشيخوخة .

فمثلاً شرايين الجسم : يحدث لها فى الشيخوخة ما يسمى بتصلب الشرايين ، الذى يؤدى إلى ضيق سعتها ، وبالتالى قلة كمية الدم التى تجرى فيها . . وقلة توارد الدم إلى أعضاء الجسم المختلفة ، يؤدى بالتالى إلى ضعف تدريجى فى الجسم عموماً ، وضعف بالقدرة الذهنية . .

إلا أن بعض المسنين يظل نشاطهم الذهنى حاداً وذكاؤهم شديداً ، كما فى القادة والمفكرين والمخترعين والعلماء . . فكثير من العلماء لم يكتشفوا اكتشافاتهم العلمية العظيمة ولم يبدعوا إلا فى طور الشيخوخة . . ذلك أن صحة الجسم من صحة شرايينه فما دامت الشرايين سليمة ، فمهما طال عمر الإنسان ، فإنه سيظل قوياً ونشيطاً وحاضر الذهن .

وماذا عن العضلات والجلد والشعر؟

مع تقدم العمر تحدث تغيرات بيولوجية فى خلايا الجسم ، ومن ذلك خلايا العضلات ، فالعضلة مكونة من خيوط عضلية كثيرة مثل حزمة من الخيط . . كل خيط لايزيد قطره عن ١٠/١ مللى متر . . وفى كل خيط نظام

دقيق وعجيب ، من شأنه تقلص العضلة وارتخاؤها بقوة وسهولة . . ومع تقدم العمر يضعف ذلك النظام داخل الخيوط العضلية فتتصلب العضلة ، ويقل حجمها ، وتتضاءل قوتها ، الأمر الذى يؤدى إلى حالة الضعف العضلى .

فالعضلات فى طور الطفولة تكون ضعيفة ، ثم تنمو وتكبر وتقوى فى الشباب ، ثم بعد ذلك تضعف شيئاً فشيئاً كلما دخل الجسم فى طور الشيخوخة . . إنها ثلاث مراحل : ضعف ، ثم قوة ، ثم عودة إلى الضعف مرة أخرى .

وكذلك شعر الجسم يتغير مع تقدم العمر . . ونلاحظ ذلك بوضوح فى شعر الرأس ولعوامل الوراثة دور كبير فى ذلك . . فالشعر فى صغر السن يكون مرناً وقوياً كثيفاً ، ومع تقدم العمر تقل مرونة الشعر وتضعف قوته وتقل كثافته ، ويزداد جفافه ، ويتساقط الشعر أكثر من ذى قبل خاصة فى الرجال . . ويبيض الشعر ويشيب الرأس .

نقرأ فى سورة الروم قول الله عزوجل .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (الروم : ٥٤) .

الشيخوخة والإنجاب:

مع مرور الزمن ، تصل المرأة إلى منتصف العمر الذى هو بين الأربعين والخمسين ، وفى آخر هذه المرحلة ينقطع الطمث فى كثير من النساء ، وذلك بسبب عجز المبيضين عن إفراز الهرمونات (الاستروجين والبروجستيرون) وقد يصاحب ذلك أعراض تشعر بها المرأة ، مثل الإحساس بالسخونة فى الجسم ، و الضيق النفسى ، والتوتر العصبى ، ونزول العرق ، وهذا ما يسمى Menopausal syndrome وتفقد المرأة القدرة على الإنجاب . . أما الرجل فلا تتوقف القدرة على الإنجاب فيه إلا بعد أن يدخل فى الشيخوخة ، ومثلاً على ذلك فى سياق الحديث عن قصة النبى إبراهيم عليه السلام وزوجه فى سورة (هود : ٧١ ـ ٧٢) :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ .

قال بعض المفسرين : فضحكت : أى حاضت تحقيقاً لبشارة الملائكة لها ، التى أخبر الله عنها فى قوله تعالى **﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾**(هود : ٦٩ ـ ٧٢) **وقال بعض المفسرين** : فضحكت أى ضحكت فعلاً ، ضحكت تعجباً . . أو ضحكت من خوف زوجها النبى إبراهيم من ثلاثة نفر ، وهو فى خدمه وحشمه. ولا نتفق فى تفسير الآية الكريمة مع هؤلاء ، ولا مع هؤلاء . فليس معنى ضحكت حاضت ، وإن كان ذلك صحيحاً لغوياً ـ كما أنه من غير المعقول أن تضحك من اضطراب زوجها وخوفه من قوم قدموا إليه زائرين ، فهذا لا يكون من امرأة نبى . ولكنها ضحكت فعلاً تعجباً ودهشة . . وهى عجوز عقيم لاتحيض . . وقد أحست بتحرك الجنين فى بطنها . . لو كان المعنى أنها حاضت تحقيقاً للبشارة ، لسألت عما هو بعد الحيض وهو الحمل ، ولقالت (ياويلتا أأحمل وأنا عجوز) ، ولكنها وقد أحست بتحرك

الجنين فى بطنها سألت ضاحكة مندهشة عما سيكون بعد الحمل وهو الولادة . . قال تعالى يحكى على لسانها ﴿ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** ﴾ (هود : ٧٢) قولها (هذا) إشارة إلى موجود بيّن ﴿وهذا بعلى شيخاً﴾ أى : إن زوجى هذا الذى أمامى شيخ لاينجب . (إن هذا لشىء عجيب) . أى إن حدوث الحمل هذا الذى أحس به شىء عجيب .

ولا أدرى لماذا غاب عن بعض المفسرين هذا المعنى فى الآية الكريمة ، مع وضوحه ووضوح السياق فى الآية الكريمة وفى سورة الذاريات : (٢٩ ـ ٣٠) قال الله عزوجل ﴿ **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** ﴾ (فى صرة) أى : فى تأوه وتعجب . . فلما شعرت بالحمل ضربت وجهها بيدها ـ على عادة النساء عند التعجب والمفاجأة وقالت : كيف ألد وأنا عجوز عقيم؟ .

ولماذا لم تذكر آية سورة الذاريات قولها (أألد وأنا عجوز عقيم) واكتفت بالقول ﴿ **فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ** ﴾ .

ذلك لأن عجبها من أمر الولادة ، جاء ذكره والإشارة إليه فى آية سورة هود من قبل . . وسورة هود نزلت قبل سورة الذاريات بزمن طويل : فترتيب نزول سورة هود (٥٢) وترتيب سورة الذاريات (٦٧) .

ووصفت امرأة النبى «بالعجوز العقيم» فى سورة الذاريات ، لأنها لم توصف من قبل «بالعقيم» فى سورة هود . . وعكس العقم : الحمل وليس الحيض .

وما حدث من إعجاز فى الحمل من بعد عقم ، هو أمر الله عز وجل الذى بيده الخلق والأمر ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ . . ونجد الحكمة فيه أظهر من العلم وأعجب ، لذلك عقبت الآية الكريمة بالحكمة قبل العلم قال الله عز وجل : ﴿**إنه هو الحكيم العليم**﴾ ﴿**قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم**﴾ قال ربك ، أى أمر ربك وقضى . . وإذا قال الله تعالى لشىء ﴿**كن فيكون**﴾ أى أمر وقضى . . وهذا ما عقبت به آية سورة هود قال تعالى : ﴿ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ** ﴾ (هود ٧٢ ، ٧٣) . . وقول الله فى هذا المقام عن الحمل والخلق وليس الحيض . . ومثل ذلك فى سورة مريم قول الله عز وجل : ﴿ **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا** ﴾ (مريم : ٨ ، ٩) (قال الله) أى أمر الله وقضى .

وماذا عن شيخوخة الجلد والشعر؟

مع تقدم العمر تحدث تغيرات بيولوجية فى خلايا الجسم ، ومن ذلك الجلد والشعر ، فتقل مرونة الجلد ويضمر ويرتخى ، ولذلك تتغير ملامح الوجه . . كما أن الشعر يجف ويتساقط ، ويشيب الرأس ، ويقول الله عزوجل يحكى عن النبى زكريا : ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ (مريم : ٢ ، ٣) .

ولقد أشارت الآية الكريمة إلى ضعف العظام فى جسم الإنسان فى طور الشيخوخة ، ونفهم أن تضعف العضلات

وتضعف الذاكرة ويضعف الجلد . . ولكن كيف يضعف العظم؟ وهو جسم صلب لا يلين إلا إذا مرض بمرض لين العظام ، وهو مرض غير متعلق بالشيخوخة . . جاء لنا التقدم العلمى بتفسير قوله تعالى : ﴿ **وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾ : ففى أثناء الشيخوخة يحدث ما يسمى بتخلخل العظام أو هشاشة العظام ، فتتناقص كتلة الأنسجة البروتينية فى العظام تدريجيا . . فإذا أقبلت الشيخوخة قلت تلك الهرمونات . . وبالتالى يقل بناء تلك الأنسجة البروتينية فى العظام ، فيحدث تخلخل بالعظام وضعف بها . . وتصير سريعة الكسر . . فإذا وقع شاب على الأرض على علو نصف متر مثلا ، ووقع إنسان فى سن الشيخوخة ، فإن الشاب يقوم وعظامه سليمة عادة ؛ لأن أنسجتها البروتينية تقوى العظم . أما فى الشيخوخة فغالبًا ما يحدث كسر بالعظام . وإذا شبهنا عظام الشباب والشيخوخة ، فإننا نشبهها بساق نبات ، إذا كان أخضر لاينكسر إذا دفعناه فى كل الاتجاهات ، وإذا يبس فإنه ينكسر من أقل حركة .

وفى الشيخوخة يحدث ضعف آخر فى العظام بسبب تآكل الغضاريف ، وما يصاحبه من التهاب مزمن بالمفاصل ويسمى فى الطب (الاعتلال العظمى المفصلى) . . وتصاب المفاصل الكبرى والصغيرة على سواء ، كما تصاب مفاصل العمود الفقرى . . وتآكل الغضاريف كثيرًا ما تصاحبه الآلام العضلية ؛ أو ما يسمى الآلام العضلية العظمية . والحديث فى هذا الموضوع يطول ، ليس هذا مجال بيان أى تفصيلات فيه . . فالمهم أن نفهم أن مع الشيخوخة تضعف عظام الجسم جميعًا وبلا استثناء . كما قال الله عزوجل : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾(مريم : ٣) أى عظم الجسم كله . . وهذه حقيقة علمية أن الهيكل العظمى فى الجسم جهاز واحد . إذا دب الضعف فى بعض العظام أثناء الشيخوخة ، فإن جميع عظام الجسم يكون قد دب الضعف فيها أيضًا . . وقد يصيب الضعف بعض العظام أكثر من عظام أخرى ، إلا أن الضعف يشمل العظم كله ، وإن كان بدرجات متفاوتة قليلاً . . وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ ونجد التشبيه لانتشار شيب الشعر فى الرأس بالنار فى انتشارها فى الهشيم ، فأخرجه مخرج الاستعارة . . وأسند التعبير القرآنى الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته ، وهو الرأس فلم يقل «**واشتعل الشعر شيباً**» ولكنه قال : ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ وبذلك وصل وصف الشيب فى الشيخوخة إلى قمة الإعجاز البلاغى .

هل للشيخوخة شفاء؟ وهل لها دواء؟

لاشك أن الشيخوخة طور من أطوار العمر تزعج الإنسان المقبل عليها وتكدر الإنسان الذى هو فيها . . وعبر الشاعر العربى عن ذلك بقوله :

ذهب الشباب فما له من عودة وأتى المشيب فأين منه المهرب

وشاعر آخر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

لذلك اهتم الناس منذ آلاف السنين بهذا الموضوع . وبذلوا الكثير من الجهد فى البحث عن شفاء للشيخوخة ، أو حتى علاج يعيد جانباً من شباب الجسم ، أو يدفع عجز الشيخوخة . وكان ذلك جهدًا منطقيًا نابعًا من غريزة حب الدنيا وطول الأمل . وطول العمر مطلب للإنسان لكنه مشروط بتوافر الصحة والعافية . . لذلك كان الجهد الذى بذله الناس منذ فجر التاريخ فى البحث عن علاج للشيخوخة ، ولايزال مستمرًا حتى اليوم . . ولكن تبين أن الجهد كان بدون جدوى . وكان الناس فى بحثهم عن شفاء من الشيخوخة ، إنما كانوا يسعون وراء سراب . .

والإنسان فى هذه المحاولات يريد أن يخرج من نسق التغير إلى نسق الثبات ، ويحيا فى شباب دائم بلا شيخوخة .

وهذا أمرمستحيل الوقوع . لأن ذلك لو تحقق لتوقف الزمن . ولا يتوقف الزمن أبدًا فى الحياة الدنيا . وإنما يتوقف فى الحياة الآخرة . فذلك حديث رسول الله ﷺ عن الجنة : «**إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً .. وإن لكم أن تشبوا لا تهرموا أبداً**» .
وروى مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن الأعراب سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة ، فنظر إلى أحدث إنسان فيهم وقال : «**إن يعش هذا لا يدركه الهرم، قامت عليكم ساعتكم**» وإذا عاش إنسان ولم يدركه الهرم ، فإن هذا يدل على أنه يعيش فى اللازمن . . ولا يكون ذلك فى عالمنا هذا ، وإنما فى العالم الآخر حيث تقوم الساعة . . ونفهم من الحديث النبوى الشريف أيضًا أن كل إنسان إذا طال به العمر ، لابد أن يدركه الهرم ، لأن الزمن يجرى فى الإنسان والإنسان يجرى فى الزمن ، لا يتوقف أبدًا فى هذه الدنيا . . ولا يتوقف الزمن إلا فى الحياة الأخرى . لذلك فإن فيها الخلود ولا يهرم الناس فيها أبدًا .

وكان سبب بحث الناس عبر العصور عن شفاء للشيخوخة ، هو شعورهم الداخلى بالخوف من الموت ، ورغبتهم فى البقاء أحياء . . ونسمع من أساطير الأولين عن رحلة البحث عن سر الخلود وأكسير الشباب الدائم . . واعتقد فريق من الناس قديمًا أن نباتًا فى قاع البحر إذا أكل منه المسنون عادوا إلى الشباب . . وتبين أنها نباتات بحرية لاتفيد شيئًا فى ذلك . . وفى مصر القديمة كان الإنسان المصرى القديم لايهاب الموت ولكنه كان يخاف الحساب بعد الموت . . وكانوا يعتقدون أن الموت رحلة من الحياة الدنيا إلى حياة أخرى ، وإلى عالم سفلى . . وكانوا يكررون دائماً قولهم «إن الموتى يعيشون» ، (إنك لم ترحل ميتًا إنك رحلت حيًا) . . وربما نقل المصريون القدماء عقيدتهم هذه عن رسالة سيدنا إدريس عليه السلام ، الذى عاش فى منف (ميت رهينة حاليًا) قبل العصر الفرعونى . . واعتنق المصريون عقيدة التوحيد . ولما جاء العصر الفرعونى قيل إنهم حرفوا اسم إدريس إلى أزوريس ، والله أعلم .

وتدل أوراق البردى فى الآثار المصرية القديمة ، على أن قدماء المصريين قاموا عبر عصورهم بمحاولات كثيرة لاسترداد الشباب . . ولكنهم لم ينجحوا . . وحاول الهنود القدامى ، ولكنهم لم يكونوا أسعد حظًا من المصريين القدماء . . وكذلك فعلت الأمم السابقة فى الصين وغيرها من أمم الشرق الأدنى والأقصى .

أما فى أوربا فقد اهتمت شعوبها عبر القرون بالبحث عن شفاء أو علاج للشيخوخة . . فمنذ عهد الإغريق كان اهتمام الناس بهذا الموضوع . . فمادام الأمر يخص صحة الإنسان ، فإنه يمثل من تفكير الإنسان المقام الأول . . وتحكى لنا أساطير الإغريق العديد من المحاولات فى هذا الموضوع ، مثل محاولة يوسانيانس . وكيف اعتقد أن «ينبوعاً للشباب» موجودٌ فى مكان ما فى العالم . واعتقد أن أى إنسان يعانى من الشيخوخة إذا نزل فى ذلك الينبوع ، فسوف يخرج منه شاباً . . فثار فضول الناس ، وراحوا يبحثون عن ذلك الينبوع . . وصار البحث عن ينبوع الشباب شغلهم الشاغل . . ومرت العصور والناس لا تكف عن البحث عنه حتى العصور الوسطى . . وكانت آخر المحاولات فى البحث ؛ تلك الرحلة التى قام بها بونس دى ليون Ponce dE lion سنة ١٥١٢م فى المحيط الأطلسى . وسار غربًا حتى وصل إلى العالم الجديد .

ولكنه لم يكتشف أثرًا من ينبوع الشباب . ولكنه اكتشف ما هو أهم من ينبوع الشباب ، اكتشف قارة أمريكا الشمالية .

وظل العلماء حتى العصر الحالى يبحثون عن علاج للشيخوخة واستعادة الشباب ، ولكنهم لم ينجحوا . ولعل آخر المحاولات كانت محاولة الدكتورة أنا أصلان من رومانيا فى منتصف القرن العشرين . . وصاحبتها ضجة إعلامية كبيرة ، إلا أنه فى النهاية لم يكتب لها النجاح . وأخيرًا تأكد لدى العلماء أنه لا يوجد أى دواء يشفى من الشيخوخة . . فالشيخوخة هى نتيجة تغير بيولوجى حتمى فى جسم الإنسان لايوقفه دواء ، ولا يفيده علاج . . و لطالما أضاع الناس من جهد ومال ودراسة وراء البحث عن دواء لعلاج الشيخوخة فما وجدوا شيئًا .

ولو تدبر الناس ما جاء فى الحديث النبوى فى هذا الموضوع ما أضاعوا كل ذلك الجهد ، وما خسروا كل تلك الأموال فى البحث فيما لاطائل من ورائه . . فقد أخرج أبو داود والترمذى عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شُرَيْك

قال : قالت الأعراب : يا رسول الله : أنتداوى؟ قال : «**نعم عباد الله تداووا . فإن الله عزوجل لم يضع داء إلا ووضع له دواء إلا داءً واحدًا**» قالوا : وما هو قال : «**الهرم**» (أى الشيخوخة لا دواء لها) . . وروى الترمذى عن أبى هريرة ﵁ أن النبى ﷺ قال : «**مثلُ ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية، إن أخطأته المنايا وقع فى الهرم حتى يموت**» قوله ﷺ «**وقع فى الهرم حتى يموت**» يشير إلى أن الذى يقع فى الشيخوخة لايشفيه دواء ولا ينفعه علاج ، وفى هذا الحديث النبوى الشريف الكثير من الحقائق العلمية سنتطرق إليها فيما بعد .

بعض مظاهر الشيخوخة فى الجسم:

ذكرنا من قبل مظاهر الشيخوخة ، وآثارها فى عظام الجسم والجلد والشعر والقدرة على الإنجاب ، وعن تأثير الشيخوخة على شرايين الجسم .

ويخشى الناس ضيق الشرايين فى القلب ؛ لأنها تؤدى إلى حدوث الذبحة الصدرية وإلى جلطة الشرايين التاجية ، وما يؤدى ذلك إلى أخطار صحية كبيرة . . إلا أن ضيق الشرايين يسبب انحطاطًا بوظائف الأعضاء الأخرى . . فضيق شرايين الكلى يؤدى إلى ارتفاع ضغط الدم وفشل كلوى . وضيق شرايين المخ يحدث تدهورًا بوظائف المخ تدريجيًا ، وتضعف الذاكرة تدريجيًا للأحداث القريبة وتظل قوية للأحداث البعيدة . . ويفقد الإنسان القدرة على التكيف مع الظروف المحيطة به . . ويظهر عدم التناسب فى سلوكه واضحًا مع رد الفعل المطلوب والمناسب . . ويحدث تغير فى عواطفه و فى شخصيته . . وأخيرًا يدخل فى حالة العته الشيخوخى . . ويعيش فى الماضى ويرفض التغيير والتكيف مع الحياة الحديثة . . وهناك أيضًا شيخوخة الرئتين والعين والسمع . وأجهزة الجسم الأخرى . . وليست الشيخوخة متعلقة بالسن وحده فهناك ما يسمى بشيخوخة الأطفال :

وشيخوخة الأطفال مرض نادر . . ويكون الطفل طبيعيًا بعد ولادته ، ولكن نموه البدنى يتباطأ بعد السنة الأولى من عمره ، حتى يصير نحيل الجسم قزمًا ، إلا أن ملامح وجهه تنم على كبر السن ، ويدب الصلع فى الرأس بعد خمس سنوات وتبدو العينان جاحظتين ، ويضمر الجلد وتقل طبقة الدهن تحته فيترهل ، ويتأخر ظهور الأسنان . أما العظام فهى مثل عظام المسنين ، هشة وضعيفة . وتعانى مفاصل الطفل من شيخوخة المفاصل وتتصلب الشرايين فى جسده ، وقد تحدث له ذبحات صدرية وجلطات بالقلب فى سن دون العاشرة . ويموت هؤلاء الشيوخ من الأطفال غالبًا قبل سن العشرين .

وما سبب الشيخوخة؟

ما زال سر الشيخوخة غامضًا ومعقدًا . . وهناك نظريات كثيرة تشير إلى أسباب تتعلق بالخلية ، وأسباب تتعلق بالنظام الوراثى وعوامل الوراثة ، وأسباب تتعلق بالزمن البيولوجى فى الأجسام . . و تؤثر على كل هذه العوامل عوامل البيئة ، وعوامل المرض ، وعوامل معاناة الحياة ، وأغلب الظن أن سر الشيخوخة يكمن فى كل تلك الأسباب مجتمعة . . لكن ما هو علاج الشيخوخة؟ لا يوجد للشيخوخة شفاء ، ولكن لها أنواعًا كثيرة من العلاج التى تخفف من آلامها وتحافظ على صحة أعضاء الجسم أثناءها .

المبادئ الأساسية فى علاج أمراض المسنين:

١ ـ محاولة تقليل المدة التى يقضيها الإنسان المسن فى الفراش فى حالة استرخاء عضلى كامل . لأن ذلك يترتب عليه ظهور أمراض فيه ، فضلاً عما يصيبه من ضعف وضمور فى العضلات والعظام . . ولابد من الرياضة البدنية الخفيفة مثل المشى . . وهذا يؤجل شيخوخة العضلات والعظام .

٢ ـ عدم إعطاء أدوية كثيرة للإنسان المسن للأسباب الآتية :

(أ) قد ينسى الجرعة المناسبة أو يتناول الدواء فى غير مواعيده . . وثبت أن ٦٠٪ من المسنين يقعون فى أخطاء فى تناول الأدوية . . وقد يؤدى ذلك بحياتهم .

(ب) بعض الآثار الجانبية لايتحملها الجسم فى الشيخوخة .

٣ ـ العلاج الغذائى : الإكثار من تناول الفاكهة والخضراوات والفيتامينات (خاصة ج ، هـ) والتقليل ما أمكن من اللحوم والدهون الحيوانية . . وعقدت الأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية على مدى ثلاثة أيام مؤتمرًا دوليًا عن الشيخوخة فى أوائل شهر مايو ١٩٩٦ ، وذلك لدراسة كل ما من شأنه الحفاظ على صحة المسنين دون تعرضهم لأمراض الشيخوخة ، التى تمثل عبئًا ضخمًا على الخدمات الصحية والاجتماعية . خاصة أن عدد المسنين هناك فى ازدياد . . لاشك أن هناك أنواعا من العلاج والدواء ، ولكن لايوجد شفاء من الشيخوخة قط . هذا هو آخر ما توصل إليه العلم فى عصرنا هذا . . وهذا ما لم يفهمه الناس عبر العصور الماضية . . ولو درسوا السنّة النبوية المشرفة لعلموا ما لم يكونوا يعلمون ولوفروا على أنفسهم أموالاً كثيرة بذلت ، وجهودًا مضنية استنفدت .

فقد روى الترمذى وأبو داود وابن ماجه عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك عن رسول الله ﷺ قال : «**عباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا ووضع له دواءً إلا داءً واحداً هو الهرم**» أى الشيخوخة ليس لها دواء .

وهل تشيخ نفسية الإنسان؟

يشيخ الجسم ولكن لا تشيخ النفس . إلا أن الإنسان فى الشيخوخة يشعر بمتع أخرى لم تكن تستهويه من قبل . . ويصير أكثر نضجًا وتعقلاً ، ولا يستجيب لاندفاعات الشباب وحماسه غير المبنى على مبرر معقول ، ويصير أكثر حرصًا على المال ، وأكثر ميلاً إلى البخل ، وأكثر تؤدة فى التفكير ، وأقل اندفاعًا فى تصرفاته ، وأكثر روية وأبعد نظرًا .

وكثير من المسنين تزداد فيهم هذه الميول إلى درجة هى أقرب إلى البخل من الحرص على المال ، وأقرب إلى العجز من الروية . . وأقرب إلى الجبن من بعد النظر ، والاتزان فى التفكير ، فذلك حديث رسول الله ﷺ : «**اللهم إنى اعوذ بك من العجز والكسل.. وأعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهرم**» .

الرسول ﷺ فى هذا الحديث الشريف ، يستعيذ بربه من خمسة أحوال : العجز والكسل والبخل والجبن والهرم . واستعاذة رسول الله ﷺ بربه ليست مثل استعاذة أحد من الناس . فهو إذ يدعو ربه ، إنما يعلم الناس كيف يستعيذون بالله . فهو الأسوة الحسنة لكل أمته . فاستعاذة الرسول هنا ليست لنفسه فحسب ، وإنما ليعلم الأمة كيف تكون الاستعاذة بالله تعالى ، وفيما تكون .

ويكبر الإنسان فى السن ويكبر حرصه معه على المال والولد . . وهما زينة الحياة الدنيا . . ويكبر معهم حب الدنيا وطول الأمل فى الحياة . حتى أن الأمل يسبق العمر بكثير . إذن الجسم يشيخ ولكن النفس لا تشيخ . . وهذا قصارى ما وصل إليه علماء النفس فى هذا الموضوع ، إلا أن رسول الله ﷺ أخبرنا عن أسرار النفس البشرية فى الشيخوخة . . فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«**لايزال قلب الكبير شابًا فى اثنتين: حب الدنيا وطول الأمل**» .

ونتوقف عند قوله ﷺ «حب الدنيا» : ونفكر فنجد أن متع الإنسان فى شيخوخته ، تختلف تبعًا لميوله ودرجة الإيمان والتقوى فيه . . فالإنسان المؤمن يحب فى الدنيا أن يقضى أيامه فى الصلاة والعبادة والتقرب إلى الله تعالى . . وغير المؤمن فى شيخوخته يود أن يقضى ما بقى له فى الدنيا من أيام ، فى جمع المال والحصول على متع الدنيا التى تستهويه ، لذلك ذكر الحديث النبوى كلمة «حب الدنيا» مطلقة ليتسع التعبير اللغوى لكل الاتجاهات النفسية للإنسان فى شيخوخته .

وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «**قلب الشيخ شاب فى اثنتين: طول الحياة وكثرة المال**» .

ويشكو الإنسان من الضعف والعجز فى الشيخوخة كما قال الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوما   فأخبره بما فعل المشيب



الذات الإنسانية

الباب السابع

الذات الإنسانية

١ النفس

ـ أخرج الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**كل ابن آدم أصاب من الزنا لا محالة ، فالعين زناها النظر ، واليد زناها اللمس ، والنفس تهوى وتحدث ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**» .

ـ أخرج الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله اجعلنى على شىء أعيش به . فقال رسول الله ﷺ : «**نفس تحييها أحب إليك أم نفس تميتها**» قال : بل نفس أحييها . قال ﷺ : «**عليك بنفسك**» .

ـ أخرج الإمامان مسلم وأحمد عن أبى هذيل عن عبدالله بن عمر قال : كان النبى ﷺ يتعوذ من علم لا ينفع ، ودعاء لا يُسمع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع .

ـ أخرج الإمام أحمد عن الخشنى قال : قلت يا رسول الله أخبرنى بما يحل لى ويحرم على . فقال ﷺ : «**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . الإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب**» .

ـ أخرج الإمامان البخارى ومسلم عن ابن عباس عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة . فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**» .

ـ أخرج الأئمة مسلم وأصحاب السنن عن أبى عثمان النهدى ، عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ كان يقول : «**اللهم إنى أعوذبك من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهرم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها . اللهم أنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها**» .

النفس البشرية

النفس غيب ، وهى جزء لا يتجزأ من الذات البشرية (النفس والعقل والروح) . . خلق الله آدم جسدًا من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، فصار بذلك بشرًا كما قال تعالى : ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ (ص : ٧١ ، ٧٢) ، فالتسوية هى بالتقاء النفس بالجسم ، فيصير حيًا ، وبعد ذلك تنفخ فيه الروح فيكون بشرًا . فسر الحياة بالنفس وسر البشرية بالروح . وسجود الملائكة لآدم كان سجود تكريم للروح ، فهو سجود تكريم لا سجود عبادة . ودائمًا تعقب الخلق تسويته ، نجد ذلك فى آيات كثيرة :

قال الله عز وجل : ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ**﴾ (القيامة ٢٦ - ٢٨) .

وكما قال تعالى : ﴿ **الَّذي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴾ (الأعلى : ٢ ، ٣) .

وكما قال تعالى : ﴿ **الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ** ﴾(السجدة : ٧ ـ ٩) .

فبعد الخلق تكون التسوية ، وبعد التسوية يكون نفخ الروح .

وذكرت النفس فى القرآن الكريم فى ٢٩٥ موضعًا . والنفس ليست مادية وهى سر حياة الجسم ، وإذا فارقت الجسم فارقته الحياة . . كما قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ (الفجر : ٢٧ - ٣٠) ، وقال أيضًا : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً** ﴾ (آل عمران : ١٤٥) . النفس غير مادية ولا تدرك بالحواس ، وما لايدرك بالحواس بأية صورة من الصور لا يخضع للعلوم الإنسانية التجريبية . . وليس له من مصدر للعلم عنه إلا مصدر واحد ، هو وحى خالق الإنسان وهو الله عز وجل .

اختلاف رأى الفلاسفة والعلماء على مر التاريخ فى رأيهم عن النفس والروح:

تكلم عن النفس والروح كل من سقراط وأرسطو وأفلاطون وتكلم أيضاً الفلاسفة العرب .

قال سقراط «فى القرن الخامس ق .م .» : إن النفس جوهر روحى . . وإن النفس البشرية أسمى النفوس منزلةً .

وقال أرسطو «فى القرن الرابع ق .م .» : إن النفس هى ماهية الإنسان وفكره وتمييزه .

وقال أفلاطون : «إن النفس وسط بين عالمين : عالم علوى وهو عالم الخير والفضيلة ، وعالم سفلى هو عالم الشهوة والشر . وإن الحكمة هى سمة النفس العاقلة . . وهكذا نجد أن فلاسفة الإغريق خلطوا بين النفس والعقل والروح ، واختلط عليهم الأمر .

أما الفلاسفة المسلمون فقد ذهبوا مذاهب شتى ، إلا أن معظمهم تأثر بالفلسفة اليونانية .

ابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١هـ قال : إن الإنسان إذا أخطأ قامت النفس بتصحيح ما أخطأ فيه . وبذلك خلط بين النفس والعقل .

أما ابن سينا : فقد توصل إلى بعض الأفكار الصحيحة عن النفس فقال : إن النفس لا تموت بموت الجسم ، وإن النفس سر الحياة فى الجسم ، وإن الجسم هو الذى يحيز النفس أثناء الحياة الدنيا .

أما أبو حامد الغزالى فقال : إن النفس هى الأصل الجامع للصفات المذمومة فى الإنسان ، واستدل على ذلك بالحديث الشريف : «**أعدى عدوك ، نفسك التى بين جنبيك**» وفرق بين النفس والعقل والروح ، إلا أنه اعتقد أنها صفات مترادفة للنفس . . وتطلق على النفس باختلاف أحوالها .

أما ابن رشد : فاعتبر النفس والروح شيئًا واحدًا ، ولكنه مَيَّز بين النفس والعقل .

لذلك قال الكسبس كاريل المتوفى سنة ١٩٤٤م إن معلوماتنا عن الإنسان معلومات بدائية . وقال أحد فلاسفة العلمانية : «سيظل جهلنا بالإنسان إلى الأبد» . وهكذا وجدنا أن الفلاسفة أخطأوا ، وتحدث كل واحد منهم من خياله .

أما إذا تدبرنا القرآن والسنة ، فسنجد أن النفس غير العقل . . وهما معاً غير الروح .

النفس سر الحياة ، والروح سر بشرية الإنسان وسر وعيه وإدراكه . . والعقل هو الذى يسير النفس . فالإنسان يعلو على جسمه بنفسه ، ويعلو على جسمه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات : ٤٠ ، ٤١) .

من الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى؟ . إنه العقل .

ـ النفس هى التى تأمر بالخير أو بالشر ، تحت وصاية العقل . . والنفس التى تحت وصاية العقل هى التى تجادل عن نفسها يوم الحساب أيضاً . ولا دخل فى ذلك للروح ؛ لأنها من أمر الله . أما الجسم فهو طائع ساجد لله تعالى .

ماهى النفس؟!

ذكرت النفس ومشتقاتها فى القرآن الكريم فى ٣٩٩ موضعاً .

للنفس ثلاثة معان:

١ ـ **المعنى الأول للنفس** (Self) : نفس الإنسان ذاته ، كما قال تعالى فى سورة البقرة (٤٤) : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ ، وفى سورة القصص (١٦) : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي** ﴾ ، وفى سورة يوسف ٦٨ : ﴿ **إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا** ﴾ ، ولقمان (٣٤) : ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ﴾ ، والنحل(١١١) : ﴿ **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ .

٢ ـ **المعنى الثانى للنفس** (Soul) : نفس الحياة ، والتى هى جزء من الذات الإنسانية ، كما قال تعالى فى سورة الزمر (٤٢) : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ﴾ .

وكما فى سورة آل عمران (١٨٥) ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ .

وكما فى سورة يوسف (٥٣) ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ .

وكما فى سورة السجدة (١٣) ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** ﴾ .

وكما فى سورة النجم (٢٣) ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى** ﴾ .

وكما فى سورة القيامة (٢) ﴿ **وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ .

وكما فى سورة النازعات (٤٠) ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾ .

وكما فى سورة الفجر (٢٧ ، ٢٨) ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً** ﴾ .

وكما فى سورة الشمس (٧ ، ٨) ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ .

والنفس سر الحياة فى الجسم ، وتتصل بكل خلاياه ، وتغادر الجسم عند الموتة الكبرى . ولقد أثارت طبيعة النفس ومصيرها جدلاً كبيرًا بين المفكرين . وشغل بها الفلاسفة وعلماء الدين . وتؤكد كل الرسالات التى أرسلت على الرسل ، وجود النفس وخلودها . إلا أن الفلسفات المادية تنكر وجودها .

ويقول الإمام أبو حامد الغزالى : إن النفس لها معنيان : **الأول** ما يراد به الصفات المذمومة فى الإنسان وصفات الشهوة والغضب . ويقول أهل التصوف : (لابد من مجاهدة النفس وكسرها) ، وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : «**المجاهد من جاهد نفسه**» .

وقال رسول الله ﷺ : «**أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك**» .

وبعد الفتح قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «**خرجتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» قالوا : وما هو . قال : «**جهاد النفس**» .

المعنى الثانى : هى الإنسان على الحقيقة وهى الذات الإنسانية (الإنسان الحقيقى) .

٣ ـ **المعنى الثالث للنفس** : هى التى يسميها علماء النفس والأطباء النفسيون Internal ومجال الطب النفسى Psychiatry وعلم النفس Psychology .

ونظرة الطب النفسى للإنسان نظرة شاملة ، فهو كائن لايتجزأ من جسم ونفس وعقل وروح .

وللجسم أمراض هى الأمراض العضوية .

وللنفس أمراض هى الأمراض النفسية .

وللعقل أمراض هى الأمراض العقلية .

أما الروح : فلا تتعرض لأى مرض ؛ لأنها من أمر الله .

وتؤثر الأمراض النفسية على الجسم فتحدث به أمراضًا بدنية Psychosomatic diseases وتؤثر الأمراض البدنية على النفس فتحدث بها إحباطًا نفسيًا Depression .

وتختلف النفس عن الروح

١ ـ النفس قد تكون أمَّارة بالسوء . أما الروح فلا . . فهى خير مطلق .

٢ ـ النفس تتعرض للمرض أما الروح فلا .

٣ ـ النفس تسعد لملذات الدنيا . والروح تسعد للحرمان من ملذات الدنيا وتتألق .

٤ ـ النفس يقع عليها الخوف أما الروح فلا .

٥ ـ النفس لاتغادر الجسم قط إلا عند الموت الأكبر . أما الروح فتغادره أثناء النوم .

٦ ـ النفس سر حياة الجسم . أما الروح فهى سر بشرية الإنسان وسر خلوده .

وتختلف النفس عن الجسم

١ ـ النفس سر حياة الجسم . . فلا يحيا الجسم إلا بوجودها .

٢ ـ الجسم يخضع للزمن ويمر بأطوار الخلق : الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة . أما النفس فلا تخضع لزمن ، ولا تمر بأطوار مختلفة من الخلق ، ولا تحدث لها شيخوخة ، ولكن تحدث لها تغيرات إلى الأفضل كلما تقدم العمر .

وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «**قلب الشيخ شاب فى اثنتين: طول الحياة وكثرة المال**» .

والنفس البشرية على ثلاثة أحوال :

١ ـ نفس أمّارة بالسوء .   ٢ ـ نفس لوامة .   ٣ ـ نفس مطمئنة .

١ ـ **نفس أمّارة بالسوء** : هى التى تسعى للإضرار بالناس والإفساد فى الأرض ويكون الشيطان قرينها ، يلهيها

ويزين لها الحرام ويكرّه لها الحلال . فى سورة يوسف يحكى الله تعالى عما قالته امرأة العزيز : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ (يوسف : ٥٣) .

٢ ـ **نفس لوامة** : هى التى تلوم صاحبها كما قال تعالى : ﴿ **وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ (القيامة : ٢) وهى من أشرف النفوس ؛ لأنها تلوم صاحبها إذا انحرف عن طاعة الله . . والنفس التى لا تلوم صاحبها إن أخطأ فإن الله يلومها .

٣ ـ **نفس مطمئنة** : هى التى تجد لذتها فى فعل الخير . وهى مطمئنة إلى قضاء الله وقدره وواثقة بربها . قال تعالى : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾(الفجر : ٢٧ - ٣٠) .

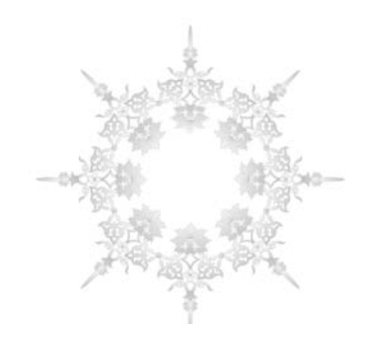
فالنفس البشرية على درجات ، وتختلف باختلاف أحوالها ، فقد تسمو النفس الأمّارة بالسوء فتصير نفسًا مطمئنة يوما ، وقد تكون نفسا لوامة يوما آخر ، وقد تظل كما هى أمارة بالسوء ، فلا تثبت النفس البشرية على حال إلا إذا أراد الله لها الثبات . وقال الإمام الغزالى : إن للنفس الأمارة بالسوء أربعة ميول مختلفة ، تؤدى إلى اختلاف تصرفات الناس واختلاف ردود أفعالهم وهذه الميول هى :

١ ـ **نفس لها ميول عدوانية** : تميل إلى العدوان على الغير وسرعة الغضب ، وإذا لم تستطع العدوان تثور وتغضب . . وإذا استطاعت استراحت .

٢ ـ **نفس لها ميول بهيمية** : تميل إلى إشباع غرائزها الحسية البهيمية ، وإذا لم يتحقق لها ذلك تثور وتغضب ، وإذا تحقق لها ذلك ترضى وتسعد .

٣ ـ **نفس لها ميول تسلطية** : تميل إلى الغطرسة وحب الرياسة والتسلط . . وإذا لم يتحقق لها ذلك تثور وتغضب . وإذا تحقق لها ذلك تستريح .

٤ ـ **نفس لها ميول شيطانية** : تميل إلى الكراهية والبغضاء وتتمنى الضرر لكل الناس . . وهى نفس فى غضب دائم وتوتر مستمر . . ولن تهدأ يومًا ، ولن تستريح .



٢ العـــــــــقــل

– أخرج الإمام أحمد أن امرأة أتت النبى ﷺ بابن لها . فقالت يا رسول الله : إن ابنى هذا ذاهب العقل فادع الله له . فدعا له فبرئ .

– أخرج الإمام أحمد عن زرعة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «**الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له**» .

– أخرج الإمام أحمد عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ يقول : «**إن بين يدى الساعة فتنًا كأنها قطع الليل المظلم فيصبح فيها الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا، أو يمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا**» .

– أخرج الإمام أحمد عن النعمان الغفارى عن أبى ذر أن النبى ﷺ قال له : «**اعقل ما أقول لك يا أبا ذر، إن المكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال كذا وكذا**» .

– أخرج الإمام أحمد فى المسند عن أبى ذر رضي الله عنه قال : رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان، **فقال: يا أبا ذر «هل تدرى فيم تنتطحان؟ قال: لا. قال: ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما»** .

– أخرج الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أن أبا بكر أرسل إليه ، فجاءه فإذا عمر عنده جالس وقال أبو بكر : يا زيد بن ثابت ، إنك غلام شاب عاقل . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه .

– أخرج الإمام أحمد فى المسند عن قيس بن أبى حازم أن أبا هريرة قال له : صحبت رسول الله ﷺ ثلاث سنين ، ما كنت سنوات قط أعقل منى فيهن ، ولا أحب إلىَّ أن أعى ما يقول رسول الله ، ﷺ فيهن .

– أخرج الإمام ابن ماجه فى سننه عن سليمان بن عمر الأحوص عن أم جندب قالت : رأيت رسول الله ﷺ يوم النحر وقد انصرف ، فتبعته امرأة من خثعم ومعها صبى لها به بلاء ، لايتكلم . فقالت : يا رسول الله ، إن هذا ابنى ، وبقية أهلى . وإن به بلاءً ، لايتكلم . فقال رسول الله ﷺ : «**ائتونى بشىء من ماء**» . فأتى به ، فغسل يديه ومضمض فاه . ثم أعطاها إياه فقال : «**اسقيه منه، وصبّى عليه منه**» واستشفى الله له . قالت : فلقيت المرأة فقلت : لو وهبت لى منه (أى من ذلك الماء) فقالت : إنما هو لهذا الصبى المبتلى . قالت : فلقيت المرأة فى الحول (يعنى بعد عام) فسألتها عن الغلام فقالت : برئ وعَقَل عقلاً ليس كعقول الناس .

وأخرج زيد فى مسنده ، والترمذى فى الجامع الصحيح ، وأبو داود فى سننه ، عن زيد بن على زين العابدين عن جده الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

«**أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: لتخطّ كل شىء إلى يوم القيامة، من خَلْق أو أجل، أو رزق أو عمل. إلى ما هو صائر إليه من جنة أو نار. ثم خلق العقل، فاستنطقه فأجابه**» . فقال الله تعالى : «**وعزتى وجلالى، ما خلقت خلقا هو أحب إلىّ منك. بك آخذ، وبك أعطى، وعزتى لأكملنّك فيمن أحببت، ولانقصنّك فيمن أبغضت. فأكمل الناس عقلاً أخوفهم لله عز وجل، وأطوعهم له. وأنقص الناس عقلاً أخوفهم للشيطان وأطوعهم له**» .

يقول الإمام أبو حامد الغزالى : (إن مقصد الشارع الحكيم منحصر فى الضرورات الخمس للإنسان وهى : الدين والنفس والعقل والمال والبدن . وكل ما يحفظ هذه الضرورات الخمس فهو مصلحة ، وكل ما لايحفظها فهو مفسدة) .

ومـا أهم الضـرورات الخـمس لـلإنسـان؟ إنه العـقل ، لأن العـقل مناط التكليف فى العـبـادات والمعـامـلات ، والإنسان بغير عقل هو والحيوان سواء ، ولايكمل إيمانه ودينه ، ولاتسمو نفسه ، ولا يحافظ على ماله ، ولا يرعى صحته . من هنا ندرك أنه لا وجود لكل الضرورات الأربع الأخرى بدون كمال العقل . من هنا كانت المحافظة على العقل أمرًا جوهريًا فى الإسلام ، لذلك كان تحريم الخمر والمسكرات ؛ لأنها تذهب بالعقل . إن العقل جوهر منحه الله تعـالى للإنسـان . وهو طاقـة هائلة من القـدرة على الفـهم والإدراك والفكر والتـعلم ، وبواسطتـه يعـرف الإنسـان خالقه وبواسطته أيضا يعبر الإنسان عن نفسه ، ونخاطب النفس البشرية من خلاله . وإذا ذهب عقل الإنسان لايكون عن أعماله مسئولا . . وذكر الله تعالى نعمة العقل وأنه منحها للإنسان فقط دون سائر الخلق حيث قال : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ (الأحزاب : ٧٢) ، وهذه الأمانة هى العقل .

وأين يوجد العقل فى الإنسان ؟

العقل طاقة غير مادية ، وهو جزء من الذات الإنسانية غير المادية ، وهى النفس والعقل والروح . . وقد يقال إن العقل يوجد فى الدماغ ؛ لأن الإنسان إذا شرب مسكرا وخامر مخه ذهب عقله ، نقول : لا . . العقل لايوجد بالمخ ولكن له اتصال به . . والإنسان يتصل بعقله عن طريق مخه . وإذا حدث سكر للمخ ، انقطع اتصال الإنسان بعقله .

وتحت عنوان «العلاقة بين العقل والمخ» كتب راجى عنايت* :

(مع مرور الزمن تزداد وضوحًا حقيقة مهمة ، وهى أن العقل والمخ ليسا مترادفين ومن الأبحاث التى حسمت هذا بشكل كبير ، ما قاله جراح المخ الدكتور «ويلدر بينفيلد» أنه دهش كثيرا عندما اكتشف أنه أيا كان قدر المادة التى يستأصلها من المخ ، فإن ذلك لايؤثر على قدرة المريض العقلية . ولقد صار واضحا أن العقل لا يوجد داخل المخ**) .

ويجد جراحو المخ الآن أنهم إذا استأصلوا نصف المخ فإن قدرة العقل فى ذلك المريض لاتتأثر . . مما يدل على أن العقل ليس موجودا فى المخ ، وإلا لفقد الإنسان نصف عقله! . .

ودليل آخر أن الدواب قد خلق الله فيها أدمغة تشبه دماغ الإنسان تماما من الناحية التشريحية والفسيولوجية ، ولكن لم يمنحها الله تعالى أمانة العقل . . وبالتالى فهى غير مكلفة بالقيام بمنهج الله فى الأرض . فالدواب تعيش على الفطرة ، وتوجهها الغرائز . . وإذا ظهر من الدواب ما يدل على ذكاء ، فإنما هو ذكاء فطرى ، وليس ذكاء عقليًا . حديث أبى ذر : رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان فقال : «**أتدرى يا أبا ذر لم تنتطحان**؟» قال : لا أدرى يا رسول الله قال : «**ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما**» وقد يقال : إذا كانت الدواب لم تمنح طاقة العقل . . فلماذا ذكر فى القرآن الكريم أنها ستحشر؟

قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ** ﴾ (التكوير : ٥) . . والوحوش هى كل الدواب ، حشرت أى جمعت . وقال العلماء : إن المعنى أن الدواب جميعا ستجمع كلها عند النفخة الأولى فيفصل الله تعالى بين بعضها البعض . ثم يقول لها : موتى وكونى تراباً . فتموت وتكون ترابًا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : (حشرها) جمعها للموت . ولكنها لا تحاسب ؛ لأنها لم تمنح طاقة العقل وبالتالى فهى غير مكلفة . هنالك ينظر الكافر إليها ، ويتمنى أن

---

* من عجائب العقل البشرى : راجى عنايت .

** معجزات العلاج : راجى عنايت .

يكون ترابًا مثلها فلا يحاسب . فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا** ﴾ (النبأ : ٤٠) .

وهل يموت العقل ؟

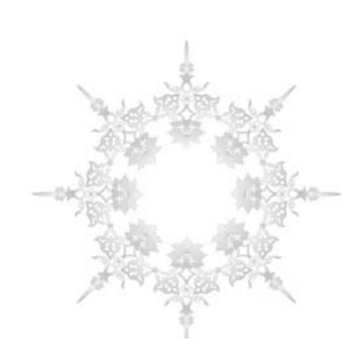
العقل هو جزء من الذات الإنسانية التى لا تموت بموت الجسم ، وإنما تعود إلى الله تعالى . . والدليل على أن العقل لايموت : سؤال القبر ، فالإنسان إذا تحدث وتجادل مع غيره إنما يستعمل طاقة العقل . . والإنسان يجادل عن نفسه يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا** ﴾ (النحل : ١١١) . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يوما فى نفر من أصحابه فضحك . فقال : «**أتدرون مم أضحك؟**» قالوا : الله ورسوله أعلم. **قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول يا رب ألم تجرنى من الظلم، فيقول الله تعالى: بلى. فيقول العبد: فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى. فيقول الله تعالى: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودًا. ثم يختم على فيه. ويقال لأركانه انطقى. فتنطق بأعماله. ثم يخلّى بينه وبين الكلام. فيقول «العبد لأركانه»: بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل»** .

والعقل يدخل مع صاحبه فى الجنة أو النار . . لذلك فأصحاب الجنة يتناقشون ويستعملون عقولهم :﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ (الطور : ٢٥ - ٢٨) .

وأهل النار يتجادلون أيضا كما قال الله تعالى : ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ** ﴾ (الأعراف : ٣٨) .

وأهل الجنة يتحدثون مع أصحاب النار كما قال الله تعالى : ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ** ﴾ (الأعراف : ٤٤) .

وأهل النار يتحدثون مع أصحاب الجنة كما قال تعالى : ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ (الأعراف : ٥٠) . والعقل يدخل مع صاحبه فى الجنة أو النار . . أهل الجنة يتخاطبون مع بعضهم البعض ، ونفهم من الآية الكريمة والحديث النبوى الشريف أن العقل مع صاحبه يوم القيامة ، وسيكون معه أينما ذهب فى الجنة أو فى النار .



٣ نقصان عقل المرأة ونقصان دينها

أخرج الإمامان البخارى ومسلم حديثا رواه أبو سعيد الخدرى ﵁ قال : خرج رسول الله ﷺ إلى المصلى فمر على النساء فقال : «**يامعشر النساء، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟.. قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان دينها**» .

الحديث الشريف ذكر حقيقتين :

١ ـ النساء ناقصات عقل ودين .

٢ ـ شهادة المرأة نصف شهادة الرجل .

ولقد اختلط فهم المعنى الصحيح على عقول كثير من الناس . وفيما يلى نوضح التفسير الصحيح لهاتين الحقيقتين :

النساء ناقصات عقل ودين

فسر بعض الناس تفسيرات خاطئة للحديث النبوى الشريف ، الذى تحدث عن نقص النساء فى العقل والدين . وحتى نفهم التفسير الصحيح للحديث النبوى الشريف ينبغى أن نفهم الأسس التالية :

الأول : أن الحديث الشريف يخاطب فئة من النساء . ولايشرع شريعة عامة لكل النساء . فهو حديث شريف يتحدث عن «واقع» . ومثل هذا الحديث قابل للتغير والتطور . وهو يختلف عن حكم الحديث عن الثوابت فى العبادات والمعاملات .

ومثال الحديث عن «واقع» ما رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال : «**إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب**» . فهو حديث يصف «واقعا» . ولايشرع لتأييد الجهل بالقراءة والكتابة وعلم الحساب والعلوم الأخرى ؛ لأن القرآن بدأ نزوله بالأمر بالقراءة والكتابة والعلم وذلك فى أول سورة العلق ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ ، وقال أيضا : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ (يونس : ٥) .

ومثال ذلك إذا قلنا الآن (نحن أمة متخلفة) أو (نحن دول فقيرة) إنه وصف لواقع حالى ، ولايعنى مطلقا أننا **نؤيد** هذا الواقع أو لا **نؤيده** .

الثانى : هذا الحديث الشريف قصد به حالات خاصة من النساء لهن صفات خاصة . وصفهن رسول الله ﷺ بأن أكثر أهل النار من النساء ، وأنهن «**يكفرن العشير**» ، ولو أحسن هذا العشير إلى إحداهن الدهر كله ورأت منه خطأ واحدًا لقالت : «**ما رأيت منك خيرًا قط**» ، وذلك من معنى الحديث الشريف الذى رواه البخارى ومسلم ومالك . إنه حديث لحالة خاصة وليس لعموم النساء .

الثالث : الحديث الشريف يشير إلى غلبة العاطفة والرقة على المرأة ، وهى عاطفة ورقة صارت سلاحًا قويًا ، تغلب به المرأة أشد الرجال عقلاً وحزمًا كما قال ﷺ عنهن : «**ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**» . . وإذا قصدت ألفاظ الحديث النبوى نقص عقلهن بذلك ، فإنه وصف محبب لكل النساء والرجال معًا ، وليس صفة ذم للنساء . . كما أن المراد بنقص الدين ، وصف لواقع غير مذموم ؛ لأن النساء يشاركن الرجال فى كل الرخص ، مثل إفطار الصائم فى المرض والسفر وما إلى ذلك من رخص فى العبادات ، إلا أنهن يزدن عن الرجال فى رخص خاصة بهن ، وهذا وصف لواقع محمود غير مذموم .

الرابع : العقل ملكة منحها الله تعالى الإنسان . . والرجل والمرأة فيه يتساويان ، وسنتحدث عن هذه الحقيقة فيما بعد .

وقال الإمام محمد عبده : (إن حقوق الرجل والمرأة متبادلة ، وإنهما أكفاء ، ومتماثلان فى الحقوق والأعمال ، وإن كلا منهما بشر تام ، له عقل يتفكر فى مصالحه ، وقلب يحب ما يلائمه ، وينفر مما لا يلائمه) . ولا تفاضل بين النساء والرجال كما فى قوله تعالى : ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ** ﴾ (النساء : ٣٢) .

الخامس : إذا كانت المرأة لها مسئوليات خاصة فى أسرتها ، فهى مسئولة كالرجل سواء بسواء ، فيما يخص الدعوة التى أمر بها الإسلام من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . . إلخ . كما قال تعالى : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (التوبة : ٧١) .

كما تحدث القرآن الكريم عن صورة مشابهة للمنافقين والمنافقات ، فى سورة التوبة (٦٧ ، ٦٨) فللرجل دائرته ، وللمرأة دائرتها ، ولا تستقيم الحياة إلا بتلازم النوعين معًا . . ولقد رفع الله تعالى من شأن المرأة وأعطاها حقها كاملاً الذى سلبته إياها العقائد والمجتمعات الأخرى .

السادس : وظهرت دراسات علمية حديثة تحت عنوان (اختلاف صفات الرجل عن صفات المرأة لمصلحة كليهما) ، فالرجل العصبى حاد المزاج ، لا يستريح للحياة مع امرأة عصبية حادة المزاج ، وكل رجل يحب ألا يعيش مع امرأة متماثلة معه فى الصفات فى كل شىء . . فصفات الرجولة تختلف تماما عن صفات الأنوثة ، لذلك يستريح كل منهما للآخر . ولو كانا فى صفات واحدة ما استراح الرجل للمرأة ، وما استراحت المرأة للرجل . وما سكن كل منهما إلى الآخر .

أما رأينا نحن فى فهم الحديث النبوى الشريف فهو كالآتى:

الله تعالى يقول : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ (التين : ٤) .

والإنسان ذكر وأنثى أو رجل وامرأة ، فدل هذا على أن كلا من الرجل والمرأة فى أحسن تقويم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فما معنى نقصان عقل المرأة؟

لم يدرك المفسرون قديمًا المغزى العلمى من هذا ، وذلك لقصور علمهم عن ماهية العقل . . وقال بعض الفلاسفة العرب عن العقل : العقل عقلان :

١ ـ **عقل غريزى** : وهو الأصل ، ويتعلق بالتكاليف الشرعية والتحكم فى العاطفة .

٢ ـ **عقل مكتسب** : وهو الفرع ، ويتعلق بالذكاء والفهم والنبوغ .

وإذا اجتمع العقلان معًا اكتمل عقل الإنسان .

وقال الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن العقل :

رأيت العقل عقلين	فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع	إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس	وضوء العين ممنوع

والعقل الغريزى هو مناط التكليف والتحكم فى العاطفة ، لذلك عطف الحديث النبوى على نقصان عقل النساء بنقصان التكليف الشرعى لها ، وبنقصان طاقة التحكم فى العاطفة . وهذه أمور لادخل للمرأة فيها ، ولاتعتبر نقصًا فى خلقها ، بل كمالاً ؛ لأنها تختلف عن العقل الغريزى للرجل . . لذلك ينجذب كل منهما للآخر ويسكن إليه .

وفرط تأثر المرأة بالمواقف الإنسانية ، يجعل الرجل أفضل منها فى المواقف التى تستدعى الشهادة فى القضايا . . وفرط تأثير المرأة بالمواقف الإنسانية من سمات أنوثة المرأة وفطرة خلقها .

وإذا كان الرجل أكثر كفاءة من المرأة فى العقل الغريزى ، فإن المرأة قد تكون أكثر كفاءة من الرجل فى العقل المكتسب (الذى يتعلق بالذكاء والفهم والنبوغ) وبذلك يتساوى العقل فى كل من الرجل والمرأة . . فذلك قول الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ (التين : ٤) ، وما ذكره الحديث النبوى الشريف من نقصان عقل المرأة فهو فى العقل الغريزى (الذى يتعلق بالتكاليف الشرعية والتحكم فى العاطفة) .

فالمرأة أقل من الرجل فى التكاليف الشرعية ، وأقل منه فى التحكم فى العاطفة .

وهكذا لايوجد تعارض بين الآية الكريمة فى سورة التين والحديث النبوى الشريف .

ومن الباحثين العرب فى درجات الذكاء (الأبشيهى) صاحب كتاب (المستطرف فى كل فن مستظرف) قال : **إن العقل عقلان** :

١ ـ **العقل الغريزى** : هو مناط التكليف . وهو مشترك بين العقلاء ولايقبل الزيادة ، كما لايقبل النقصان .

٢ ـ **العقل المكتسب** : (العقل التجريبى) وهو قابل للزيادة بكثرة العلم والتجارب . وهو العقل الذى يقبل الزيادة فى الذكاء والنبوغ .

وقال العالم الإنجليزى سبيرمان : (إن الميدان الرئيسى الذى يتجلى فيه الذكاء ، هو استنباط العلاقات واستنباط أطرافها) ، وهذا يتعلق بالعقل التجريبى (العقل المكتسب) . وضرب العالم العربى (ابن الجوزى) مثلاً على شدة الذكاء ، بشدة ذكاء رسول الله ﷺ فقبل موقعة بدر وجد رجلاً هناك ، فسأله عن عدد أفراد جيش قريش ، فلم يخبره الرجل . فأعاد عليه السؤال فقال الرجل : (هم والله كثير عددهم ، شديد بأسهم) وأبى أن يخبر الرسول عن عددهم . فسأله النبى ﷺ : «**كم ينحرون من الإبل كل يوم؟**» قال الرجل : عشرًا كل يوم . فقال رسول الله ﷺ : «**القوم ألف . كل جزور لمائة من الرجال**» .

وكان ذلك مثلا على تجلى الذكاء العقلى فى استنباط العلاقات واستنباط أطرافها .

شهادة المرأة نصف شهادة الرجل

الحديث النبوى الشريف تفسير لقول الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**

فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة : ٢٨٢) . الآية الكريمة تتكلم عن الإشهاد . . ولقد خلط كثير من الناس بين (الشهادة) و(الإشهاد) الذى تتحدث عنه هذه الآية الكريمة . . أما الشهادة أمام القضاء فى القضايا المعروضة عليه فلا فرق بين الرجل والمرأة . . والمهم فيها اطمئنان القاضى لصدق الشهادة ، بصرف النظر عن جنس الشاهد ذكرًا كان أم أنثى ، وبصرف النظر عن عدد الشهود . وقد يطمئن القاضى إلى شهادة امرأة واحدة . . ويحكم فى القضية .

أما آية سورة البقرة ، والحديث النبوى فلا يتحدثان عن (الشهادة) فى قضية ما أمام القضاء ، وإنما يتحدثان عن (الإشهاد) الذى يلجأ إليه صاحب الدين فى الحفاظ على حقه فى ماله .

فالآية الكريمة موجهة لصاحب الحق «الدائن» وليس إلى القاضى الذى يحكم فى نزاع ما ، وليست تشريعا موجهًا له . كما أن الآية الكريمة ليست موجهة إلى كل دائن ، وإنما إلى دائن خاص ، وفى حالات خاصة من الدين ، ولها ظروف خاصة ذكرتها الآية الكريمة :

١ ـ فهو دَيْن إلى أجل مسمى .

٢ ـ ولابد من كتابته .

٣ ـ ولابد من عدالة الكاتب .

٤ ـ ويحرم امتناع الكاتب عن الكتابة .

٥ ـ ولابد من إملاء الذى عليه الحق أو وليه .

٦ ـ والإشهاد لابد أن يكون من رجلين أو رجل وامرأتين من المؤمنين .

٧ ـ ولايصح امتناع الشهود عن الشهادة .

٨ ـ وليست هذه الشروط مطلوبة فى التجارات والمبايعات والمعاملات الأخرى ، فالآية الكريمة والحديث الشريف يتحدثان عن الإشهاد فى دين خاص ، وليس عن الشهادة فى شىء آخر ، أو فى قضية ما أمام القضاء . .

وأخرج الأئمة البخارى والترمذى وابن ماجه ، عن ابن عباس قال : (لو يُعطى الناس بدعواهم ، لا دعى ناسٌ دماءَ رجالٍ وأموالهم . ولكن اليمين على المدعى عليه) .

وأخرج البخارى فى باب «**إذا اختلف الراهن والمرتهن ونحوه، فالبينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه**» .

عن نافع بن عمر عن ابن أبى مليكة قال : كتبت إلى ابن عباس فكتب إلىَّ أن النبى ﷺ قضى أن اليمين على المدعى عليه .

وفى رواية : كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال : «**شاهداك أو يمينه**» .

والبينة فى الشرع تارة تكون أربعة شهود ، وتارة ثلاثة ، وتارة شاهدين ، وتارة شاهدًا واحدًا ، وامرأة واحدة . فالبينة تقوم بشهادة رجل واحد وأكثر . وتقوم بشهادة امرأة واحدة فأكثر ، وفق معيار البينة التى يطمئن إليها القاضى .

وقال الإمام ابن تيمية: (إذا قيل إن ظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين بدل الشاهدين من الرجال ، وأنه لا يُقضى بهما إلا عند عدم وجود الشاهدين ، نقول إن القرآن لايدل على ذلك ، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم ، فأرشدهم الله تعالى إلى أقوى الطرق ، فإن لم يقدروا على أقواها انتقلوا إلى ما دونها . وهو سبحانه لم يذكر ما يحكم به الحاكم ، وإنما أرشدنا إلى ما يُحفظ به الحق . وطرق الحكم أوسع من الطرق التى تُحفظ بها الحقوق .

وأضاف الإمام ابن القيم : (قد يحكم القاضى بالشهادة بدون يمين ، أو بالمرأة الواحدة ، أو بالنساء المفردات لا رجل معهن . فطرق الحكم شىء ، وطرق حفظ الحقوق شىء آخر . وليس بينهما تلازم) .

وعلى هذا ، فطرق الإشهاد ـ فى آية سورة البقرة ـ التى تجعل شهادة المرأتين تعدل شهادة رجل واحد هى نصيحة لصاحب الدين ذى الطبيعة الخاصة ، وليست تشريعا موجها إلى القاضى . وتجوز شهادة امرأة واحدة فى الحيض والعدة والسقط والرضاع والولادة ، وكل ما لايطلع عليه إلا النساء .

وقال ابن تيمية : قول الله تعالى : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ** ﴾ .فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل واحد ، إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى ـ إذا ضلت . وهذا فيما فيه النسيان فى العادة .

وأكد ابن القيم فى كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين) أثناء حديثه عن «البينة» وحديث رسول الله ﷺ : «**البينة على المدعى واليمين على من أنكر**» قال : البينة اسم لكل ما يبين الحق ، ولم يختص لفظ البينة بالشاهدين إلا نصيحة لصاحب الحق بما يحفظ حقه به ، لا فى طرق الحكم بما يحكم به القاضى .

وعلل ابن تيمية حكمة كون شهادة امرأتين ـ فى هذه الحالة ـ تعدلان شهادة الرجل الواحد ، بأن المرأة ليست ممن يتحمل عادة مجالس وأنواع هذه المعاملات . ولكن إذا تطورت خبرتها وعلمها وممارساتها كانت شهادتها .

حتى فى الإشهاد على حفظ الحقوق والديون ـ مساوية لشهادة الرجل . والحديث النبوى الشريف يتحدث عن العموم فى النساء ، وليس عن الخصوص منهن .

وذكر الإمام محمد عبده أن النساء قديمًا كن بعيدات عن مجالس التجارات ، ومن ثم بعيدات عن الخبرات فى هذه الميادين ، وهو واقع تاريخى خاضع للتطور والتغير ، وليس طبيعة ولا جبلة فى جنس النساء على مر العصور .

وقال الشيخ محمود شلتوت : إن آية سورة البقرة تتحدث عن الاستيثاق على الحقوق ، لا على القضاء بها . وعن أفضل أنواع الاستيثاق الذى تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهم . وليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة نساء ليس معهن رجل ، لايثبت بها الحق ، ولايحكم بها القاضى ، فإن أقصى ما يطلبه القضاء هو «البينة» .

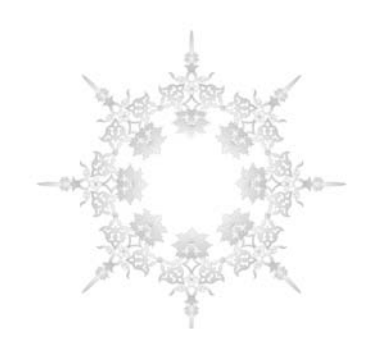
وقال الإمام ابن القيم : إن البينة فى الشرع أعم من الشهادة .

وقد نص القرآن الكريم على أن المرأة كالرجل ـ سواء بسواء ـ فى شهادات اللعان ، وهو ما شرعه القرآن بين

الزوجين ، إذا قـذف الرجل زوجـه ، وليس له على مـا يقـول شـهـود (وذلك فى سـورة النور الآيات : ٦ ـ ٩) أربع شهادات من الرجل ، تقابلها أربع شهادات من المرأة .

واستدل ابن القيم على أن المرأة كالرجل فى الشهادة بالآية القرآنية ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

فالمرأة كالرجل فى الشهادة على بلاغ الشريعة ، ورواية السنة النبوية . فالمرأة كالرجل فى «رواية الحديث» التى هى شهادة على سنة رسول الله ﷺ . فكيف تقبل الشهادة من المرأة على سنة الرسول ﷺ ولاتقبل على واحد من الناس؟! وقال الإمام ابن القيم : إن المرأة العدل كالرجل العدل ، فى الصدق والأمانة والديانة .



- أخرج الإمام مسلم والإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : كان النبى ﷺ «يتعوذ من علم لاينفع ، ودعاء لايُسمع ، وقلب لايخشع ، ونفس لاتشبع» .

أخرج الإمام أحمد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وكثرة المال**» .

- أخرج الإمام أحمد عن الحسن عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : «**القلب يزنى والعين تزنى، فزنا العين النظر، وزنا القلب التمنى، والفرج يصدق ماهنالك أو يكذبه**» .

- أخرج الإمام أحمد عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «**الشيخ يكبر ويضعف جسمه، وقلبه شاب على حب اثنين طول العمر والمال**» .

- أخرج الإمام أحمد عن مطرف بن عياض أن النبى ﷺ قال فى حديث له : «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم، ورجل فقير عفيف متصدق**» .

- أخرج الإمام أحمد عن أبى أمامة الباهلى أن رسول الله ﷺ قال : «**إن من المؤمنين من يلين لى قلبه**» .

- أخرج الإمام أحمد عن الخشنى أنه سأل رسول الله ﷺ بما يحل له ويحرم عليه فقال النبى ﷺ : «**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب**» .

- أخرج الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له : «**أن أردت تليين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم**» .

- أخرج الإمام أحمد أن عمرو بن العاص قال : لما ألقى الله عز وجل فى قلبى الإسلام أتيت رسول الله ﷺ ليبايعنى فبسط يده فقلت : لا أبايعك حتى تغفر لى ما تقدم من ذنبى فقال : «**أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله من الذنوب**» .

- أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس عن كعب أن رسول الله ﷺ قال : «**إن موسى عليه السلام ذكر الناس يوما حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب، ولى.. فأدركه رجل فقال يا رسول الله هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ قال لا**» . . . إلخ الحديث الشريف .

أخرج الإمامان البخارى ومسلم عن زكريا بن عامر ، عن النعمان بن بشير . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه. ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صَلَحَ الجسد كله. وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهى القلب**» .

ذكر القلب فى القرآن الكريم كناية عن العقل والإدراك . . إلا أن الحديث النبوى الشريف ذكر كلمة (قلب) على الحقيقة تارة ، وعلى الكناية تارة أخرى .

ذكر كناية عن العقل والإدراك كما فى سورة الشعراء ١٩٣ : ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ** ﴾ .

وفى سورة البقرة (٩٧) : ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

والقرآن الكريم نزل على رسول الله ﷺ فلماذا قال الله تعالى : (نزله على قلبك) خص القلب بالذكر إذ جعله كناية عن العقل ، أو كناية عن الذات البشرية كلها . . وفى ذلك إشارة إلى كمال عقله ﷺ وكمال فهمه .

وذكر القلب كناية فى آيات أخرى كثيرة . . ففى آل عمران (١٥٩) : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ .

وفى سورة ق (٣٧) قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ** ﴾ .

وفى سورة الرعد (٢٨) قال الله تعالى : ﴿ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ .

وفى سورة البقرة (١٠) قال الله تعالى : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ﴾ .

وفى سورة الأنفال (٦٣) قال الله تعالى : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** ﴾ .

وفى سورة الحشر (١٤) قال الله تعالى : ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى** ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : «**تنام عينى ولاينام قلبى**» العين كناية عن الجسم كله . والقلب كناية عن العقل والوعى والذات الإنسانية .

وفى سورة الحج (٤٦) قال الله عز وجل : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ .

القلوب : كناية عن العقول . والآية تشير إلى أنه لاعمى فى حواس أبصارهم ، فهم يرون بها . ولكن العمى فى بصيرتهم وعقولهم وأفكارهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه .

وأى فائدة لذكر (الصدور) والقلوب الحسية لاتكون إلا فى الصدور؟

المتعارف عليه أن العمى يكون فى البصر ، فلما أريد إثباته للقلب على خلاف المتعارف عليه ، احتاج الأسلوب اللغوى إلى زيادة بيان وتصوير ، كما نقول (ليست الحدة فى السيف ولكن الحدة فى لسانه الذى بين فكيه) . فالقول (لسانه الذى بين فكيه) زيادة فى بيان ما أدعيته للسانه ؛ لأن محل الحدة هو هو لايتغير . وكأننا نقول : (مانفيت الحدة عن السيف وأثبته للسانه سهوًا أو فلتة فى الكلام) ولكنى تعمدت ذلك تعمدا . وكذلك قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ أى ما نفيت العمى عن أبصارهم وأثبتها لقلوبهم سهوا أو فلتة لسان ، وإنما تعمدت ذلك تعمدا . واحتاج الأسلوب البلاغى إلى زيادة فى التصوير والبيان فقال : ﴿ **وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ والمعنى المراد من الآية أن العمى ليس عمى بصرهم ، ولكن العمى عمى بصيرتهم .

– وذكر الحديث النبوى كلمة (قلب) على الحقيقة ويعنى القلب العضوى قال ﷺ : «**ألا وإن فى الجسد مضغة ، إن صلحت صلح الجسد كله ، وإن فسدت فسد الجسد كله ، ألاَ وهى القلب**» . والحديث الشريف يشير إلى أن أهم عضو فى الجسم إن صلح صلح الجسم كله ، وبالتالى إذا صلح الراعى صلحت الرعية ، والحديث الشريف يتحدث عن حكم الشبهات ، والتحذير من الوقوع فيها لأن الوقوع فيها حرام .

– وذكر الحديث النبوى كلمة (قلب) على المجاز : فقد أخرج الإمام مسلم عن أبى الزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**قلب الشيخ شاب على حب اثنتين : حب العيش والمال**» قال المفسرون : للحديث النبوى (قلب الشيخ شاب) هذا مجاز واستعارة .

٥ الفـــــــــــــؤاد

- أخرج الإمام أحمد والإمام الترمذى عن الضحاك بن عبد الرحمن بن أبى موسى الأشعرى قال رسول الله ﷺ : «**قال الله تعالى يا ملك الموت قبضت ولد عبدى . قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده قال : نعم . قال : فما قال؟ قال : حمدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتا فى الجنة سموه بيت الحمد**» .

- أخرج الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«**أهل اليمن أرق قلوبا وألين أفئدة**» .

- أخرج الإمام أحمد عن على بن أبى طالب ﷺ قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا فقلت تبعثنى إلى قوم وأنا حدث السن لا علم لى بالقضاء ، فوضع يده على صدرى فقال : «**إن الله مثبت قلبك وهاد فؤادك**» .

- أخرج الإمام مسلم عن زياد بن الحصين أبى جهمة ، عن أبى العالية عن ابن عباس قال عن معنى قوله تعالى : ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾ (النجم : ١١) ، ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ (النجم : ١٣) . قال رآه بفؤاده مرتين .

ذكر «الفؤاد» فى القرآن الكريم فى خمس عشرة آية كريمة . والفؤاد هو مجموع ملكات العقل والإدراك وذكريات الأحداث والتجارب السابقة . لذلك لايعمل الفؤاد فى الأطفال حديثى الولادة ، ويبدأ عمله فيما بعد ، عندما يبتدئ العقل والوعى فى الطفل فى العمل ، وتبتدئ التجارب وذكريات الحواس فيه .

وارتبط السمع والبصر بالأفئدة فى ست آيات قرآنية فى سورة الإسراء ٣٦ ، والنحل ٧٨ ، والمؤمنون ٧٨ ، والسجدة ٢٩ ، والملك ٢٣ ، والأحقاف ٢٦ . كما قال الله عز وجل : ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (النحل : ٧٨) .

والأفئدة ملكات غير مادية فى الإنسان ، هى مجموع مدارك الإنسان وعلمه وطاقاته العقلية ، وتجاربه السابقة ، وذكريات حواسه . والحواس لاتعمل إلا من خلال مجموع تلك الملكات فى الإنسان . فحاسة السمع مثلا تستقبل موجات الصوت فى الأذن الوسطى ، أما الأذن الداخلية فتحول موجات الصوت إلى ومضات كهربائية ، تجرى فى عصب السمع حتى تصل إلى مركز الإحساس بالسمع فى الفص الصدغى فى المخ ، حينئذ يسمع الإنسان الصوت ولكنه لايفهم معناه إلا بواسطة الفؤاد .

وكذلك حاسة البصر ، تستقبل العين موجات الضوء من الجسم المرئى ، فتحولها شبكية العين إلى ومضات كهربائية تجرى فى العصب البصرى ، فتصل إلى مركز الإحساس البصرى فى الفص الخلفى فى المخ ، حينئذ يرى الإنسان الصورة ولكنه لايفهم معنى ما يرى إلا بواسطة الفؤاد . وكذلك باقى الحواس .

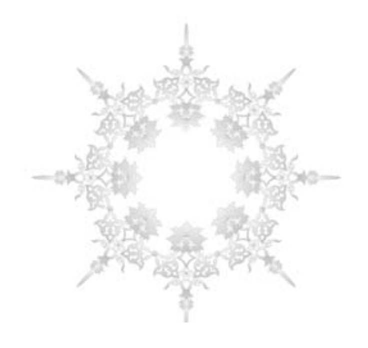
وليس الفؤاد مركزًا من مراكز المخ ، فهو طاقة لا مادية قوامها العقل . ودليل ذلك أن بعض الدواب فيها مخ يشبه مخ الإنسان من الناحية التشريحية والفسيولوجية شبها كبيرًا . . والدواب لاعقل فيها وبالتالى لا فؤاد فيها . وذكر الفؤاد كناية عن العقل والوعى والإدراك فى آيات كثيرة ، كما فى قوله تعالى : ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ**

فَارِغًا ﴾ (القصص : ١٠) . قال المفسرون من السلف الصالح : إن فراغ الفؤاد كناية عن ذهاب العقل . والمعنى أن أم موسى حين سمعت بوقوع ابنها فى يد فرعون ذهب عقلها من فرط الفزع .

وبواسطة الفؤاد يفهم الإنسان معنى ما يسمع كما قال تعالى : ﴿ **وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ** ﴾ (الأنعام : ١١٣) . وبواسطة الفؤاد يرى الإنسان ويفهم معنى ما يرى ، كما قال تعالى : ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى** ﴾ (النجم :١١)

والفؤاد فى اللغة القلب ، والقلب كناية عن العقل أيضا . . لذلك نقول إن العقل قوام الفؤاد . ونقرأ عن ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ** ﴾(إبراهيم : ٣٧) أى تميل عقولهم وأفكارهم إليهم . وقال تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ** ﴾ (الأنعام : ١١٠) ، والمعنى نقلب عقولهم وأفكارهم ؛ لأن كلمة (أبصارهم) تعنى طاقة علمهم وفكرهم كما قال تعالى يحكى عما قاله السامرى : ﴿ **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ** ﴾ (طه : ٩٦) أى (علمت بما لم يعلموا به) . وقال تعالى (عن الكفار يوم القيامة) : ﴿ **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾ (إبراهيم : ٤٣) . أى عقولهم خاوية لا فكر فيها من شدة الخوف . وقال تعالى يخاطب رسوله محمدًا ﷺ : ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ (هود : ١٢٠) أى ما نقوى به قلبك على القيام بمشاق الرسالة . وفى نفس المعنى قال رسول الله ﷺ : «**أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا**» .

فالفؤاد مجموع مدارك الإنسان العلمية والفكرية والعقلية . والقلب كناية عن الفؤاد .



أخرج الأئمة البخارى ومسلم وأحمد وأصحاب السنن عن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال : «سرنا مع رسول الله فى سفر ذات ليلة فقلنا يا رسول الله لو عرست بنا (أى نزلت بنا للراحة) فقال : «**أخاف أن تناموا ، فمن يوقظنا للصلاة**»؟ فقال بلال : أنا يا رسول الله . فاستراح القوم وناموا . واستند بلال إلى راحلته فغلبه النوم فنام . واستيقظ رسول الله ﷺ وقد طلعت الشمس . فقال : «يا بلال أين ما قلت لنا؟» فقال : والذى بعثك بالحق ما ألقيت علىَّ نومة مثلها . فقال رسول الله ﷺ : «**إن الله قبض أرواحكم حين شاء وَرَدَّها حين شاء**» .

تلاقى الأرواح : قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾(الزمر : ٤٢) ، حين موتها أى حين نومها . والأنفس هنا بمعنى الأرواح . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : (بلغنى أن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فيتساءلون بينهم ، فيمسك اللهُ أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها) والنوم موتة صغرى .

ومن ذلك ندرك أن أرواح الأحياء تلتقى مع أرواح الأموات . لذلك فإن الحى يرى الميت فى منامه فيستخبره . ويخبر الميت بما لايعلم الحى (وهذه هى الرؤى) . وكل هذه أمور غيبية لا يمكن للإنسان معرفتها إلا من الوحى الإلهى فى القرآن والسنة ، ونقرأ فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ كان يدعو ربه عندما يقوم من نومه فيقول : «**الحمد لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور، الحمد لله الذى رد إلىَّ روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره**» .

وقال المفسرون فى تفسير الحديث الشريف : «النوم موتة صغرى ؛ لأن الروح تغادر الجسم أثناء النوم ، أما النفس فلا تغادره» .

ما هى الروح وما طبيعتها ؟

قال هيرودوت المؤرخ الإغريقى : (إن المصريين القدماء هم أول الشعوب الذين اعتقدوا بخلود الروح . وورد فى النصوص المنقوشة على الأهرام : (أن الروح خالدة لاتموت أبدًا) . ونقش على تابوت أحد فراعنة الدولة القديمة (أبعنخوا) : (أيها المتوفى أبعنخوا قم قم عش وسر) ، وفى الفصل رقم ٤٤ من كتاب الموتى ذكر : (أنا لا أموت مرة أخرى فى العالم الثانى) . . وكانوا يعتقدون بخلود الروح وبوجود حياة بعد الموت ، حيث يحاسبهم أزوريس . وربما كانت عقيدتهم مستمدة من تعاليم النبى إدريس عليه السلام الذى عاش فى منطقة الفيوم قبل عصر الفراعنة . وآمن به المصريون القدماء . . ولعل اسم أزوريس مستمد من تحريف اسم (إدريس) . وكان المصريون القدماء يعتقدون أن الروح ، ويسمونها (با) تعود إلى جسم الميت وكانوا يسمونه (كا) بعد أربعين يوما من موته . وربما تعود عادة إقامة ذكرى الأربعين للميت فى مصر عبر العصور وإلى الآن إلى العقيدة الفرعونية القديمة عن عودة الروح إلى الجسم بعد أربعين يوما . وحاول العلماء على مر العصور التعرف على الروح وماهيتها ، وعن علاقتها بالجسم أثناء الحياة وبعد الموت ، فلم يستقروا على رأى صحيح . واختلط فهم الناس عن الروح حتى سموا الخمور «المشروبات الروحية» . إنه تعبير ينم عن جهلين : جهل بمعنى الروح ، وجهل بمعنى الدين . وروى الأئمة البخارى ومسلم والترمذى عن عبد الله أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ : ما هى الروح؟ فسكت رسول الله ولم يرد عليهم ، فعلمت أنه يُوحى إليه ثم نزل قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ (الإسراء : ٨٥)

قوله : ﴿قل الروح من أمر ربى﴾ يدل على أنه جوهر ليس من جنس الأجسام ، بل هو جوهر قدسى مجرد ، وقال أهل التأويل : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكها فى بدن الإنسان وكيفية امتزاجها بالجسم . . وهذا أمر لايعلمه كله إلا اللهُ عز وجل . . وهذا يدل على أن للروح شأنا عظيما وأنها من أمر الله تعالى . . فالروح غيب لايعلمه إلا الله . . وسر من أسراره القدسية أودعه **الإنسانَ** . . ومرت العصور وتقدم الإنسان فى العلم . . إلا أنه وقف عاجزا أمام سر الروح . . من أين جاءت؟ . وكيف تنفخ فى الجسم؟ . وكيف تتصل بالجسم؟ . وإلى أين تذهب؟

ماذا قال أئمة الصوفية عن الروح؟

قال الإمام الشعرانى : لم يبلغنا أن النبى ﷺ تكلم عن حقيقة الروح مع أنه سُئل عنها . فنمسك عن الكلام عنها أبدًا . ولانقول عن الروح إلا أنه موجود .

وقال الإمام الجنيد : الروح شىء استأثر الله بعلمه ، ولم يطلع أحدًا من خلقه عليه ، فلا يجوز البحث عنه بأكثر من أنه موجود .

قال الإمام الدهلوى : الآية الكريمة فى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ (الإسراء : ٨٥) . لا تمنع من إمكان معرفة بعض أسرار الروح . فليس كل ما سكت عنه الوحى لايمكن معرفته ألبتة ؛ لأن الكثير مما سكت عنه ليست للعامة ، ولكنه للخاصة وخاصة الخاصة .

وقال الإمام أبو حامد الغزالى : يمكن للخاصة من العلماء معرفة حقيقة الروح ، ويحرم على من له إلمام بشىء من ذلك التصريح به لغير أهله ـ فهو العلم المضنون به على غير أهله .

وقال كثير من الصوفية : الروح ليس بجسم ولا عرض . بل هو جوهر مجرد قائم بنفسه غير متحيز . وله تعلق خاص بالبدن ، لا هو داخل فيه ، ولا هو خارج عنه .

وذكرت الروح ومشتقاتها فى القرآن الكريم فى إحدى وعشرين آية . ولها أربعة معان مختلفة :

١ ـ الروح التى تنفخ فى الإنسان كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ (الحجر : ٢٩) .

٢ ـ الروح بمعنى جبريل عليه السلام كما فى قوله تعالى : ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴾ (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ **تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ** ﴾ (القدر : ٤) .

٣ ـ الروح بمعنى الوحى أو القرآن كما فى قوله تعالى : ﴿ **يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ (النحل : ٢) .

٤ ـ الروح بمعنى آية من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ** ﴾ (النساء : ١٧١) .

كلمته : أى بكلمة الله وأمره ، من غير واسطة ولانطفة .

وروح منه : أى إنما خلق بنفخ الروح فيه . . . وقوله : **(وروح منه)** تشريف لسيدنا عيسى . وأضاف الله تعالى الروح إلى نفسه للتفضل والتعظيم والتشريف – وقوله : ﴿منه﴾ . أى برحمة منه – فكان سيدنا عيسى

عليه السلام رحمة من الله لمن اتبعه . وذكرت الآية أن عيسى عليه السلام لا أب له ، فنسب إلى أمه ، ولما تكرر اسمه منسوبًا إلى أمه ونفى الأب عنه ، وجب تنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود ، لعنهم الله . فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ** ﴾ (النساء : ١٧١) .

أما الرَوْحُ فمعناه : (رحمة الله) نزلت فى ثلاث آيات : كما فى قول الله عز وجل : ﴿ **وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (النساء : ٨٧) .

ومن العلماء من حكم باستحالة معرفة الروح (كتاب الروح للإمام ابن القيم) .

ومنهم من اعتقد بأن ذلك بالإمكان (كتاب إحياء علوم الدين) للإمام أبى حامد الغزالى .

ولأئمة الصوفية الكثير من الآراء فى هذا الموضوع ومن قولهم : إن الروح ليس بجسم ولا بعرض ، بل هو جوهر مجرد قائم بنفسه ، غير متحيز ، وله تعلق خاص بالبدن ، لا هو داخل فيه ولا هو خارج عنه! والروح جوهر قدسى من أمر الله ليس من طبيعة الجسم ولا من طبيعة العالم المادى الذى نعيش فيه .

والأدلة على ذلك :

١ ـ الروح لا تحتاج إلى غذاء لبقائها ونموها كما يحدث لأى جسم مادى .

٢ ـ لا تمر بأطوار فى خلقها كما يمر الجسم من طفولة وشباب وكهولة وشيخوخة .

٣ ـ المجاهدات النفسية فى العبادات قد تحرم الجسم من النوم والطعام فيذبل ويضعف ، بينما تتألق الروح وتقوى .

٤ ـ إذا كان الجسم يتعرض للمرض فإن الروح لايتعرض لمرض .

٥ ـ إذا كان الجسم يموت ويتحول إلى تراب الأرض ، فإن الروح لاتموت وتنطلق إلى حياة أخرى يعلمها الله عز وجل .

٦ ـ الأرواح تتحرك فى الكون أسرع كثيرًا من سرعة الضوء ، فهى تحمل أمر الله من الملأ الأعلى إلى الأرض . ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾ .

– لاتكاد تخلو جامعة كبيرة من الجامعات من أقسام لدراسة هذه الحقائق الغيبية . وهى علوم (علم الوجود) Ontology . وعلم ما وراء الطبيعة (meta physics) .

نفخ الروح

إن الحقائق الغيبية لن نصل إليها إلا بنص من القرآن أو السنة . . وهى خارج حدود العقل البشرى ، لذلك حدث خلاف كبير بين الفلاسفة والعلماء فى موضوع الروح .

أما لماذا نفخ الله فى الإنسان من روحه؟ ؛ لأن للروح قدسية عالية جدًا ، وهى صلة الإنسان بالملأ الأعلى ، وهى التى تجعله أهلا للاتصال به ومناجاته والتلقى عنه ، والروح سر خلود الإنسان بعد الموت فى الحياة الآخرة . . والروح أشرف مخلوقات الله ، أضافها إلى نفسه قال الله عز وجل للملائكة لما خلق آدم : (**روحى**) تشريفا للروح وتكريما لها . . قال : (**فقعوا له ساجدين**) أى خروا له ساجدين .

ولم يقل (فاسجدوا له) ولكن قال : (**فقعوا له ساجدين**) .

وسجد الملائكة جميعا للروح التى نفخت فى آدم لقوله تعالى : ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ توكيد بعد

توكيد ، حتى لايقال إن فريقًا من الملائكة وليس كلهم أمروا بالسجود لآدم . ومن ذلك نفهم أن الروح الذى ينفخ فى الإنسان أكرم عند الله من الملائكة أجمعين .

هل الأرواح التى تنفخ فى الأجنة قديمة أم مخلوقَة؟ نقول الروحُ ليست هى الله ، وليست صفة من صفاته ، والروح لا تموت وإنما خلقت للبقاء والخلود . . وإنما هى مخلوقة من مخلوقاته : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ (الرعد : ١٦) .

ولاتتم بشرية الإنسان إلا بنفخ الروح فيه .

فعن خلق آدم قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ (الحجر : ٢٩) ، فسجود الملائكة ليس سجود عبادة ولكنه سجود تكريم للروح ، فدل هذا على أن للروح مقامًا عظيمًا يستحق تكريم الملائكة . ولقد كرم اللهُ تعالى الروح التى نفخها فى الإنسان ، فنسبها إلى نفسه فقال : (روحى) . . وبنفخ الروح استحق آدم تكريم الملائكة بالسجود له .

ومتى تنفخ الروح فى الإنسان؟

أوضح الحديث النبوى الشريف ذلك . فقد جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « **يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتابة أربع : رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد** » .

فالروح له وجود فعلى ، وهو من أمر الله . وهو جوهر مستقل عن الجسم ، إلا أنه متصل به اتصالا لاندرى كنهه ، ولايعلم سره إلا الله تعالى .

هل الروح سر الحياة فى الجسم؟

نقول : لا . . لماذا؟

١ ـ لأن الجنين كان حيا قبل نفخ الروح فيه . ومن غير المعقول أن الروح تنفخ فى جنين ميت . إذن حياة الجسم سابقة على نفخ الروح فيه . أى إن بداية الحياة لاتعتمد على دخول الروح فى الجسم ، وبالتالى فإن نهاية الحياة لاتعتمد على خروج الروح من الجسم .

٢ ـ الدواب والطير لا أرواح فيها ، وفى كل منها حياة . إذن حياة الدواب والطير لاتعتمد على وجود الروح ، وهذا دليل آخر على أن الحياة لاتتعلق بالروح . . وإنما الروح هى التى تحقق بشرية الإنسان . . فالجنين قبل نفخ الروح لايعتبر بشرًا . . واتفق العلماء على أن الجنين الذى يسقط قبل تمام أربعة أشهر ــ يعنى قبل نفخ الروح ــ لايعتبر بشرًا ، ولايطلق عليه اسم ، ولايصلى عليه ، ولايبعث يوم القيامة . . أما الذى يسقط بعد أربعة أشهر فيطلق عليه اسم ، ويبعث يوم القيامة ، لأنه صار بشرًا . وليس معنى هذا أن الإجهاض قبل نفخ الروح فى الجنين مباح ، لا . . لأن الجنين قبل نفخ الروح فيه مخلوق محترم ؛ لأنه بشر باعتبار ما سيكون ، مثل فسيلة صغيرة ، هى ليست نخلة ، ولكنها نخلة باعتبار ما سيكون . وقطعها ليس مباحا .

وإذا كان نفخ الروح ليس سببا للحياة ، فإن خروج الروح ليس سببا فى الموت . فإذا خرجت الروح من الجسم ، لايموت الجسم . ولقد علمنا من الحديث النبوى الشريف أن الروح تغادر جسم الإنسان أثناء نومه .

وما سر الحياة فى الإنسان؟ . . ذات الإنسان مكونة من نفس وعقل وروح . ولقد علمنا أن الروح ليست سر الحياة ، والعقل لايوجد فى الجنين . فلم يبق إلا النفس . فالنفس هى سر الحياة فى الجنين . وإذا كان سر الحياة هو النفس ، فإن خروج النفس يؤدى إلى الموت . . وهذا استدلال صحيح ، ودليل صحته قول الله عز وجل :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (الفجر : ٢٧ ، ٢٨) .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (الزمر : ٤٢) .

﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ (الكهف : ٧٤) .

هل توجد روح فى الدواب؟ نقول لا . . فلم يقل أحد من العلماء أبدًا : إن الله ينفخ من روحه فى الدواب . فالدواب تعيش بنفس حيوانية . وهذا دليل جديد على أن النفس سر الحياة . وإن الروح ليست سر الحياة .

وقال العلماء : إن بشرية الجنين لاتتحقق إلا بنفخ الروح فيه . أما قبل نفخ الروح فيه فلا يكون بشرًا . وهذه حقيقة شرعية متفق عليها بين جمهور العلماء . . والبعث بعد الموت للبشر فقط وللجن أيضا . وليس للدواب ؛ لأن الله تعالى لم يأمر ملائكته بنفخ الروح فى الدواب . ولم يذكر ذلك فى القرآن أو السنة . ولم يمنحها أيضا طاقة العقل .

علاقة الجسم بالروح :

الذات الإنسانية فى كل إنسان مكونة من ثلاثة جواهر لا مادية ، تتصل ببعضها البعض ، كما تتصل بالجسم المادى : النفس سر الحياة إذا ظلت بالجسم ظل الجسم حيا . . وإذا خرجت من الجسم مات الجسم : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ (الفجر : ٢٧ -٣٠) .

والذات الإنسانية أعم من النفس والعقل والروح . قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات : ٤٠ ، ٤١) من الذى نهى النفس عن الهوى؟ الجسم المادى لا دور له فى ذلك ، والروح من أمر الله فلم يبق إلا العقل ، فهو الذى ينهى النفس عن الهوى . ونزلت سورة النازعات تبين أن النفس غير الجسم وغير الروح وغير العقل . فالإنسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه . . والنفس تتعلق بها الغرائز الحسية ، والروح تتأثر بسر الوجود والخلود . فهى من أمر الله . والعقل يتوسط النفس والروح .

والإنسان عندما يموت لايفقد شيئًا من ذاته الإنسانية ، ويعود إلى ربه بكامل وعيه وعقله وإدراكه . . وإذا كان الجسم يموت بمعنى الفناء ، فالعقل لايموت ، والنفس يقع عليها الموت ولكن لاتفنى . وماذا عن الروح؟ . . نقول :

١ ـ الروح من أمر الله تتعلق بعالم الخلود . ٢ ـ الروح فى الإنسان سر الوعى والإدراك .

٣ ـ هى التى تحقق بشرية الإنسان . ٤ ـ تنفخ الروح فى آخر الشهر الرابع الرحمى فى الجنين .

ويوجد تعلق آخر بين الجسم والنفس والروح أثناء اليقظة ، وتعلق آخر بين الجسم والنفس والروح أثناء النوم .

أما تعلق النفس بالجسم ، فهو تعلق تام فى النوم واليقظة معًا ، فلا تترك النفس الجسم مطلقًا . . وأثناء اليقظة تتعلق الروح بالجسم تعلقًا كاملاً فهى سر الوعى والإدراك فيه . أما أثناء النوم ؛ فتبتعد الروح عن الجسم ، إلا أنها تظل مرتبطة به ، ولاتنقطع عنه ، إلا أنها تخرج منه وتبتعد . وعندما تعود الروح إلى الجسم يستيقظ ؛ لأن الروح سر الوعى والإدراك .

طاقة الروح والجديد من أسرار الروح:

أخرج الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال فى حديث له : «**اعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على قربهم من الله**. قالوا : صفهم لنا يا رسول الله **قال: هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبايل لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله، وتصافوا. يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها فيجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون. وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**» .

أخرج الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبير عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال : «**إنى لأعرف أمتى يوم القيامة من بين الأمم** . قالوا يا رسول الله : وكيف تعرف أمتك؟ قال: **أعرفهم يؤتون كتبهم بأيديهم، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم**» .

روى الإمام أحمد عن معاذ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «**من قرأ سورة الكهف وآخرها كانت له نورًا من قدمه إلى رأسه. ومن قرأها كلها كانت له نورًا، ما بين السماء إلى الأرض**» .

روى الإمام أحمد عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن عرباض بن سارية أن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورًا . (وهو نور حسى) .

روى الإمام أحمد عن سفيان بن عوف عن عبد الله بن عمر قال : كنت عند رسول الله ﷺ وطلعت الشمس فقال ﷺ : «**يأتى الله قوم يوم القيامة نورهم كضوء الشمس**» .

تحدث العلماء والفلاسفة فى العصور السابقة عن أن للروح هالة نورانية تحيط بالجسم . وظل هذا الأمر مجرد أفكار لا تستند إلى دليل علمى ، أو برهان مشاهد . إلى أن جاء العالم الروسى «سيمون كيريان» وتمكن من تصوير تلك الهالة النورانية التى تحيط بالجسم سنة ١٩٣٩م* فقد اخترع جهازًا يعمل بمجال التردد العالى . وصور جسم الإنسان فظهرت تلك الهالة النورانية التى تحيط بالجسم وكانت فى منتهى الوضوح** وأورد الدكتور على راضى فى كتابه (تكلم مع الأرواح) أن الهالة شعاع من النور صادر من الجسم ويحيط به على هيئة طبقة سميكة تتحرك معه أينما كان ، فهو نور لايرى بحاسة بصر الإنسان ، ولكن يراها ذوو البصيرة .

وهى هالة تظهر فى منطقة الأشعة فوق البنفسجية من الطيف . وأمكنه أن يرى ثلاث هالات بعضها فوق بعض تحيط بالجسم ، الأولى خافتة وسمكها نصف بوصة ، والثانية سمكها ثلاث بوصات ، والثالثة سمكها نحو عشر بوصات . . وتختفى عندما ينام الإنسان*** ، وتظهر إذا استيقظ . ولاحظ العلماء أن هذه الهالة النورانية يشتد نورها حول أجسام المؤمنين بالله تعالى ، وأن سمكها يزداد كلما ازداد إيمان الإنسان . . وهذه الحقيقة تفسر لنا ظاهرة عجيبة لم يجد لها الناس تفسيرًا علميا من قبل ، وهى أن رسول الله ﷺ لم يكن له ظل وهو يمشى على الأرض ، ولم تكن هذه الظاهرة لإنسان غيره . فدل هذا على أن الهالة النورانية لم تكن تحيط بجسده الشريف فحسب ، بل إنها أقوى من أية هالة نورانية لإنسان من قبل ومن بعد ، بحيث لايسقط له ظل على الأرض . ولا يكون ذلك إلا إذا كان النور الذى كان ينبعث منه ﷺ كان يغمره كله ، فكان جسده يغشاه النور ويحيط به النور ، وإن طاقة ذلك النور أقوى من طاقة أى ضوء ، وأى نور فى هذا الوجود . . وأقوى من ضوء الشمس ، وأقوى من نور

---

* عالم الروح بين الطاقة والمادة : عبد التواب عبدالله حسين .

** (تكلم مع الأرواح) : الدكتور على راضى .

*** الروح تغادر الجسم أثناء النوم وتعود إليه فيستيقظ .

القمر . لذلك لم يسقط له ظل على الأرض وقد يكون ذلك تفسيرًا لقول الله عز وجل :﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) .

والسراج من طبيعته أن يضيء ولا ينير . ولا يوصف السراج بأنه منير إلا إذا كان نوره أقوى من أى نور ومن أى ضوء . ولم يوصف أحد بالسراج المنير إلا رسول الله ﷺ .

وهذه الهالة النورانية هى هالة الروح . ودليل ذلك إنها تظهر والإنسان فى يقظة وتختفى إذا نام ؛ لأن الروح كما ذكرنا من قبل تغادر الجسم أثناء النوم ، وترتد إليه فيستيقظ .

ولما كانت الروح تصحب الإنسان فى العالم الآخر ، ولاتفارقه قط ؛ لأنها سر خلود الإنسان فى الدار الآخرة ، فإن المؤمنين هناك لابد أن تكون أجسامهم محاطة بتلك الهالة النورانية ؛ لأنها من طاقات الروح .

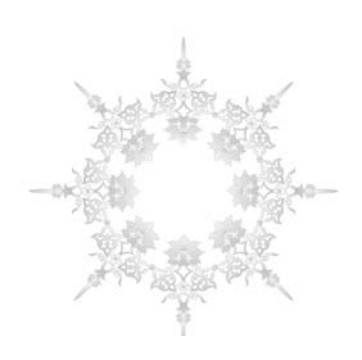
وقد يكون ذلك من بعض أوجه العلم فى قول الله عز وجل : ﴿ **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا . . .** ﴾ (الحديد : ١٢ ، ١٣) .

النور هنا نور معنوى ونور حسى . . نور معنوى هو نور الإيمان . والنور الحسى هو الهالة النورانية التى تنبعث من روح الإنسان المؤمن . ولا يوجد لها نظير فى جسد الإنسان الكافر . . فكلما زاد الإيمان زاد النور المنبعث فى تلك الهالة المحيطة بالجسم . . وقد يكون ذلك من بعض أوجه العلم فى قول الله عز وجل :﴿ **يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (التحريم : ٨) .

وفى قوله تعالى :﴿ **وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ (الحديد : ١٩) .

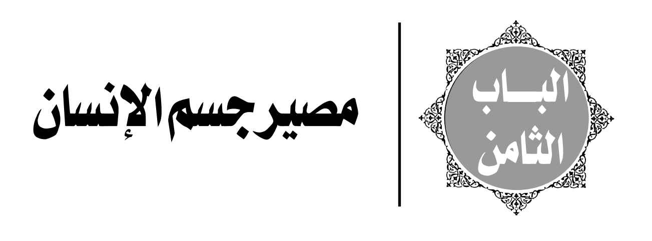
قال المفسرون : يسعى نورهم بين أيديهم وهم يمرون على الصراط زحفًا وحبوًا .

وقال الألوسى فى روح المعانى : المراد بالنور حقيقته – فهو نور حقيقى .





مصير جسم الإنسان



الباب الثامن: مصير جسم الإنسان

١ جسم الإنسان فى حالة المرض

أخرج الإمام مالك عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين ، فقال : انظرا ماذا يقول لعوَاده ، فإذا هم جاءوه حمد الله وأثنى عليه ، رفعا ذلك إلى الله عز وجل – وهو أعلم – فيقول تعالى : لعبدى علىّ إن توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته ، أن أبدل له لحما خيرا من لحمه ، ودمًا خيرًا من دمه . وأن أكفر عن سيئاته . . .**» إلخ الحديث الشريف .

أصبح معلوما أن جسم الإنسان تتبدل خلاياه باستمرار* ، فكل خلية بالجسم لها عمر وينتهى وتموت ، وتحل محلها خلية جديدة طبق الأصل من الخلية التى ماتت . فكرات الدم الحمراء والبيضاء تتبدل ، فالكرات الدموية الحمراء لايزيد عمرها عن مائة وعشرين يوما ، وبذلك تموت كرات الدم وخلاياه فى ٤٠سم٣ كل أربع وعشرين ساعة ، أى نحو ٦ر١ سم٣ من الدم كل ساعة وما فيها من الآف الملايين من كرات الدم البيضاء والحمراء . ومن المعروف أن عمر كرات الدم البيضاء أقل كثيرًا من عمر كرات الدم الحمراء .

أما عضلات الجسم فتتبدل خلاياها كل عدد من الشهور بخلايا جديدة .

ولم تكن هذه الحقائق العلمية معروفة قبل عصر العلم الحالى . . إلا أن الحديث النبوى الشريف أشار إليها فى وضوح تام .

ونجد فى الحديث النبوى الشريف حقائق كثيرة :

١ – حقيقة وجود الملائكة مع الإنسان ، وملازمتهم له فى الصحة والمرض .

٢ – حقيقة تبدل خلايا الجسم ، والدم وخلايا أعضاء الجسم جميعا . مصداق قول رسول الله ﷺ : «**يبدل الله له لحما خيرًا من لحمه، ودما خيرًا من دمه**» والخلايا التى تبدل أثناء الصحة خير من الخلايا أثناء المرض .

٣ – حقيقة الخير الكثير الذى يحصل عليه الإنسان إذا صبر على المرض وحمد الله تعالى على البلاء . كما قال الحديث القدسى الشريف : «لعبدى علىَّ إن أنا توفيته أن أدخله الجنة» . إلى قوله تعالى : «وأن أكفر عن سيئاته»

إن الحديث النبوى (القدسى) الشريف يشير إلى حقائق علمية لم يكتشفها العلم إلا فى القرن العشرين ، مما يدل على إعجاز علمى مبين .

ونفهم من الحديث النبوى الشريف والقرآن الكريم ، أن الله عز وجل وكّل ملائكةً لكل خلق من خلقه ؛ ملائكة للجنة ، وملائكة للنار ، وملائكة للجبال ، وملائكة للأجنة ، وملائكة للموت ، وملائكة لكل إنسان عن يمين وعن شمال ، وملائكة للمريض . . إلخ . . إلخ .

* انظر ص ٤٥ (ماهو الجسم وما يحدث له أثناء الحياة)

وكان الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ، يتحدث عن ملائكة المرضى . وظهر فيه الإعجاز العلمى واضحًا كل الوضوح .

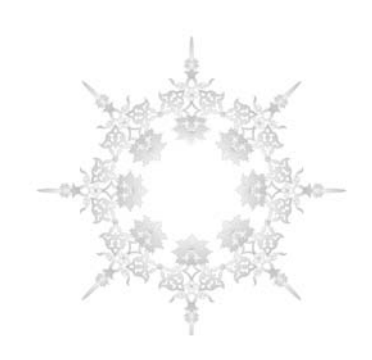
وجعل الله تعالى للمساجد ملائكة . فقد أخرج الإمام أحمد فى المسند عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**إن للمساجد أوتادًا، الملائكة جلساؤهم. إن غابوا يفتقدونهم، وإن مرضوا عادوهم، وإن كانوا فى حاجة أعانوهم**»

ولماذا وسّط الله تعالى الملائكة ، وأنزلهم على عباده يحملون أمره إليهم؟

ولماذا لم ينزّل الله تعالى أمره عليهم بدون وساطة الملائكة؟

الجواب على ذلك . أن وجود الملائكة واسطة بين الله وخلقه ، أمر ضرورى ، لأن الكون كله والبشر جميعا ، لايطيقون تجلّى الذات الإلهية ، ولو تجلت ، لصعق من فى السماوات والأرض ، ولصارت الجبال دكا . كما قال الله عز وجل : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الأعراف : ١٤٣) .

ولنفس السبب لايتجلى الله تعالى لعباده . ومن أجل ذلك أيضا يرسل الله تعالى ملائكة إلى عباده المرضى ليكونوا واسطة بينه وبينهم كما قال النبى ﷺ «**إذا مرض العبد بعث الله تعالى ملكين** . . . .» إلخ الحديث الشريف .



٢ المـــــــــــوت

– أخرج الإمام أحمد عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر عن أبيه عن أم ذر قالت : لما حضر أبا ذر الوفاة : بكيت . فقال : ما يبكيك؟ قالت : ومالى لا أبكى وأنت تموت فى فلاة من الأرض ولا يد لى بدفنك ، وليس عندى ثوب يسعك فأكفنك فيه . قال : فلا تبكى وابشرى» . . . إلخ الحديث الشريف

(نفهم من الحديث الشريف أن الذى تحضره الوفاة يتكلم)

– أخرج الأئمة ، أحمد ومالك والبخارى ، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشه رضى الله عنها قالت :

إن أبا بكر رضى الله عنه لما حضرته الوفاة قال : أى يوم هذا؟ . قالوا : يوم الإثنين .

قال : فإن مت فى ليلتى فلا تنتظروا بى الغد ، فإن أحب الليالى إلىّ ، أقربها من رسول الله ﷺ .

– وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ

«إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، جىء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار فيذبح . ثم ينادى مناد : ياأهل الجنة لا موت . ياأهل النار لاموت . . فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، وأهل النار حزنا إلى حزنهم» .

ما الفرق بين الوفاة والموت؟

وفاة الجسم:

خروج النفس من الجسم ، وقبض النفس ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ نجد ذلك فى قوله تعالى :﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ (الأنعام : ٩٣)

أما إذا ذكرنا «الوفاة» معرفة ، فهى تعنى الانقطاع الكامل عن الحياة .

الموت:

خروج الروح من الجسم .

ولما كانت الروح تغادر الجسم أثناء النوم ، فإننا نقول عن النوم (إنه الموت الأصغر)

وقال رسول الله ﷺ : «**النوم أخو الموت**» . وكان يقول عندما يقوم من نومه «**الحمد لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا**» ولا نقول عن النوم وفاة صغرى .

والنوم والموت من جنس واحد . إلا أن الموت انقطاع كامل عن الحياة .

والنوم انقطاع غير كامل عن الحياة ، لأن النفس تظل فى الجسم أثناء النوم .

والوفاة على مراحل **والموت** على مراحل . . وإذا ذكرنا **الوفاة** معرفة بأداة التعريف ، فتعنى الانقطاع الكامل عن الحياة . . والنفس سر الحياة ، فإذا غادرت الجسم غادرته الحياة . إلا أنه فى اللغة قد يُعبر عن الروح بالنفس أيضا . وقال الفخر الرازى : قد يعبر عن الروح بالنفس ، وهى نفس التمييز والوعى ، لا نفس الحياة . أما إذا قلنا «النفس»

فنعنى نفس الحياة . كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر : ٤٢)

الله يتوفى الأنفس حين موتها:

أى إن الروح تقبض عند النوم (والنوم موتة صغرى) وقبض الروح موت . أما قبض النفس فوفاة .

والتى لم تمت فى منامها:

أى التى لم يقض الله عليها بالموت أثناء نومها .

فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى:

فيمسك الروح التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجسادها إلى أجل مسمى .

قال ابن عباس رضى الله عنهما (أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام ، فتتعارف ما شاء الله لها أن تتعارف ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد ، أمسك الله تعالى أرواح من قضى عليهم الموت عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها) .

وقال سعيد بن جبير : الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله لها أن تتعارف ﴿فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ أى يعيدها إلى أجسادها .

الوفاة خروج النفس . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ (الأنعام : ٩٣)

والموت خروج الروح من الجسم فلماذا ذكرت الآية خروج النفس من الجسم أثناء الموت؟ . . . ذلك أن الآية لم تقل «ولو ترى إذا الظالمون فى الموت» ولكن الله تعالى قال ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ وغمرات الموت هى شدته وسكراته . والغمرة أى الشدة . وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها ، ثم وضعت فى معنى الشدائد والمكاره . . وغمرات الموت هى الدخول فى الوفاة . . والوفاة إخراج النفس من الجسم .

والموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام ، والنوم انقطاع ناقص ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ : أى أخرجوها إلينا من أجسادكم ، وفى ذلك إشارة إلى العنف والتشديد فى إزهاق النفس من غير إمهال ، والكفار يكرهون لقاء الله كما قال رسول الله ﷺ : «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»

لذلك يخرج الملائكةُ أنفسهم من أجسادهم فى شدة وعنف .

الموت يسبق الوفاة كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام : ٦١)

وكما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فالذين تتوفاهم الملائكة عملية لها مراحل ، وفيها يمكن للإنسان أن يتكلم ويسمع ، كما قال رسول اللّه ﷺ : «**إن نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إنى قاصٌ عليك الوصية**» ، فهو فى حالة حضور الوفاة فى مراحلها الأولى يتكلم ويعى ويسمع وكما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾(الزمر : ٤٢)

والموت انقطاع تام عن الحياة ، ولكنه ليس انتقالا منها إلى الحياة الآخرة . . كما قال تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا** ﴾ (النجم : ٤٤)

وكما قال أيضًا : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** ﴾ (الملك : ٢) فالموت ضد الحياة .

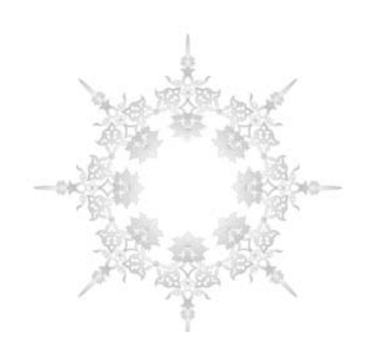
وكما قال أيضًا : ﴿ **قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ** ﴾ (البقرة : ٢٦٠)

وهل فى الجنة وفاة أو موت؟

لا . . لايوجد فى الجنة وفاة ولايوجد فيها موت

فقد سئل رسول الله ﷺ أينام أهل الجنة يارسول الله؟ قال : «**لا فالنوم أخو الموت والجنة لاموت فيها**» .

وفى الدنيا بعد وفاة الجسم يعود إلى تراب ، فهو تراب يعود إلى تراب . . وأما الذات البشرية فلا تموت . . فهى خالدة . . وتعيش فى عالم الخلود .



٣ مـاذا يحـدث للجـسم بعـد مـوته؟

– جاء فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال :

«إذا مات الرجل عرض عليه مقعده بالغداة والعشى . إن كان من أهل الجنة ففى الجنة ، وإن كان من أهل النار ففى النار . ثم يقال : هذا مقعدك الذى تبعث إليه يوم القيامة» .

– أخرج الترمذى عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»** .

– أخرج الإمام أحمد فى المسند عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى محمدًا ﷺ قال فى حديث له :

« . . . . . إن نبى الله نوحا لما حضرته الوفاة قال لابنه : إنى قاص عليك الوصية ، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين . آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع ، لو وضعتا فى كفة ، ووضعت «لا إله إلا الله» فى كفة ، لرجحت بهن «لا إله إلا الله» ، ولو أن السماوات والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن «لا إله إلا الله» ، و «سبحان الله وبحمده» . فإنها صلاة كل شىء ، وبها يرزق الخلق . .» إلخ الحديث الشريف

تأتى ملائكة الموت لقبض النفس الإنسانية ، وتخرجها من الجسد ، الذى يحيزها فى عالم المادة فى الدنيا ، فتنطلق النفس الإنسانية الحبيسة فى الجسد إلى حياة أخرى أوسع وأرحب كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ (الأنعام : ٩٣) ويقول الله عز وجل : ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ** ﴾ (الواقعة : ٨٥) . . حول الميت جمع من الملائكة – مثل جمع من الأطباء حول مريض يجرون له عملية جراحية فى غرفة العمليات – الإنسان منا فى هذه اللحظات يرى الملائكة ويكلمونه ، أما أهل الميت وأصدقاؤه من حوله فلا يبصرونهم . فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ (السجدة : ١١) .

والإنسان منا فى هذه اللحظات يرى مقعده من الجنة ، فيسعد ويفرح ويظهر ذلك على وجهه . أما الإنسان العاصى فإنه يرى دركه فى النار ، فيفزع ويظهر ذلك على وجهه .

ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن ذلك ، ففى الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : **«إذا مات الرجل عُرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة ففى الجنة ، وإن كان من أهل النار ففى النار ثم يقال : هذا مقعدك الذى تبعث إليه يوم القيامة»**

﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (النحل : ٣٢) ، ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ (الأنفال : ٥٠) ، ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** ﴾ (محمد : ٢٧) .

. . ويعتقد أهل الميت أنهم أحياء وأن الميت قد مات وانتهى . . ولكن الحقيقة غير ذلك ؛ إنهم فى نوم وغفلة وفى حياة ضيقة جدًا ، إنهم محبوسون فى الدنيا ، أما الميت فقد استيقظ وانتبه ، وانطلق من سجن الدنيا الى حياة أوسع يعيشها كلها . وليست كالحياة الدنيا التى يعيشها الإنسان لحظات لحظات .

اللحظات التى مرت وصارت فى الماضى لن تعود ، ولن يعيشها مرة أخرى ، واللحظات القادمة فى المستقبل لم يعشها بعد . . وجاء فى الأثر «**الناس نيام حتى إذا ماتوا انتبهوا**» .

ووصف الله تعالى الحياة الآخرة بأنها خير وأبقى للإنسان المؤمن . . وذكر أنها هى الحياة الحقيقية كما قال الله عز وجل : ﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ (العنكبوت : ٦٤)

فى الآية الكريمة إشارة تحقير للدنيا . وكيف لا ، والدنيا لا تزن جناح بعوضة عند الله . قال رسول الله ﷺ مما رواه الترمذى عن سهل بن سعد : «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا فيها شربة ماء**» والإقبال على متاع زائل أو لذة عارضة يسمى لهوًا ، والإعراض عن الحق يسمى لعبًا . . **والحيوان** مصدر حى ، مبالغة للحياة . والمعنى : الحياة الحقيقية التى لا تزول ولا تنتهى ولا يجرى فيها زمن .

﴿لو كانوا يعلمون﴾ شرط جوابه محذوف ، أى لو كانوا يعلمون ما آثروا عليها الدنيا الفانية ، التى سيترك الإنسان فيها كل ما جمعه من مال ومتاع لغيره ، ويعود إلى الله خالى الوفاض ليس معه إلا عمله .

الإنسان عندما يموت فى الدنيا ، لايموت منه إلاجسده . . أما الذات الإنسانية – الإنسان الحقيقى . فلا يموت ، وإنما ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة ، حيًا يُرزق بكامل وعيه وعقله وإدراكه .

وهناك كثير من الأدلة على أن الإنسان عندما يموت جسده لايموت هو . . بل يبقى حيًّا ويعود إلى الحياة الآخرة حيًا . . ونجد تلك الأدلة فى القرآن وفى الحديث النبوى :

ففى سورة (آل عمران : ١٦٩) ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ وفى سورة (الفجر : ٢٧- ٣٠) ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾ وفى سورة (الأنعام : ٦١) ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** ﴾

وكونهم مردودين إلى الله حال كون الجسم ميتًا ، وباقيًا فى تراب الأرض ، يدل على أن المردود إلى الله هو الإنسان الحقيقى – النفس والعقل والروح – يرد حيًا واعيًا عاقلاً إلى الحياة الأخرى .

وكل الآيات السابقة تدل على أن الإنسان ليس هو الجسد المادى الفانى .

أما فى السّنة المشرفة ، ففيها الكثير من الأدلة على حياة الإنسان بعد موت جسمه :

١ – وجاء فى الأثر «**من مات قامت قيامته**» .

٢ – ورد فى الحديث النبوى الشريف «**إن الميت يسمع وقع أقدام مشيعيه**»

٣ – وبعد معركة بدر وضع المسلمون جثث المشركين السبعين الذين قتلوا فى المعركة قبل دفنهم ، ومر عليهم رسول الله ﷺ ونادى كل واحد منهم باسمه : «**ياشيبة بن ربيعة ، يا عتبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام . . . يا فلان بن فلان . . يا فلان بن فلان . . هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا؟ فإنا قد**

وجدنا ما وعدنا الله حقًا» . . فقال عمر – ليتعلم ويفهم – يا رسول الله ما تكلم إلا أجسادًا لا أرواح فيها . . فقال رسول الله ﷺ : «**والذى نفسى بيده إنهم لأسمع لما أقول منكم**» .

وما مصير أجسادنا بعد الموت؟

الجسم خلق من تراب هذه الأرض وسيعود إلى تراب الأرض ثانية . . وإذا مات الجسم أو قتل ، صار لا يصلح مكانا يحيز الذات البشرية ، فتنطلق الذات البشرية وتعود إلى ربها . . أما الجسد فيظل فى الأرض ، ويتحلل ويصير بعد ذلك ترابا . فهو تراب عاد إلى تراب .

ويقول العلماء إن الأجسام فى بعض الظروف يتوقف تحللها ، فلا تنتهى إلى تراب ، ولكن تستبدل المواد العضوية فى الجسم بمواد أخرى موجودة فى التربة فى بعض الرواسب الصخرية .

وبذلك يتحول الجسم المادى إلى أحفورة صخرية . وذلك يستغرق وقتًا طويلاً . ونجد مثل هذه الأحافير فى التربة على شكل أحافير صخرية ، تتحجر ولكنها تحتفظ بشكلها المميز لها . وكل ما حدث أن المواد العضوية فيها تحللت واستبدلت بالسليكون .

والأحافير هى بقايا أجسام الكائنات الحية ، سواء كانت لإنسان أو نبات أو حيوان ، بعد دفنها فى الأرض بعيدًا عن الأوكسجين فى الصخور الرسوبية ويستغرق ذلك آلاف السنين .

وفى بعض الظروف الجيولوجية الأخرى تستبدل المواد العضوية فى الجسم ليس بأملاح السليكون ، ولكن بالأملاح المعدنية ، فيصير الجسم بعد آلآف عديدة من السنين أحفورة معدنية .

ولما كان الكثير من صخور الأرض من معدن الحديد : فإن تلك الأحافير تكون أحافير من حديد . ومعدن الحديد ليس هو الحديد الذى نعرفه فى صناعة السيارات أو القضبان الحديدية . . كلا . . فهذا فلز الحديد . . ولكن معدن الحديد هو صخور الأرض التى تحتوى على أكاسيد الحديد .

وصخور التربة وترابها خليط من عدد من المعادن والعناصر . . وتقوم المياه الجوفية باستبدال المواد العضوية فى الأجسام الميتة المدفونة فى التراب بالعناصر أو الأملاح الموجودة فيه ، فإن استبدلتها بكربونات الكالسيوم أو السليكا ، صارت الأجسام حجارة . وإن استبدلتها ببعض أملاح الحديد فى صخور الأرض ، صارت الأجسام حديدًا .

إذن فجسم الإنسان بعد موته ودفنه فى تراب الأرض يتحول إلى واحد من ثلاثة :

١ – يتحول إلى تراب .

٢ – يصير أحفورة من حجارة .

٣ – يصير أحفورة من حديد .

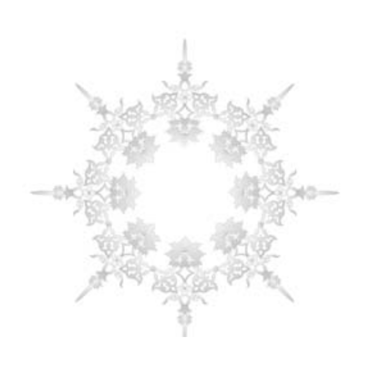
ولا يصدق الكافرون أن الله سيبعثهم خلقًا جديدًا بعد أن تتحول أجسادهم إلى تراب فى الأرض يقول الله تعالى عنهم : ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** ﴾ (السجدة : ١٠) أى أإذا ضل تراب أجسادنا فى تراب الأرض واختلط بها ، هل نبعث خلقًا جديدًا؟ فيتحداهم الله تعالى بأنه سيبعثهم خلقًا جديدًا ، ليس بعد تحول أجسادهم إلى تراب يضل فى تراب الأرض فحسب ، ولكن بعد أن تتحول أجسادهم إلى أحافير من حجارة من سليكون ، أو أحافير من حجارة من أكاسيد الحديد ، بعد آلاف عديدة من السنين .

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٤٩ - ٥٢) .

ولم يكن الناس قبل عصر العلم الحالى يعلمون شيئًا عن أسرار الأحافير ، فإذا تحدث القرآن العظيم عن مصير الأجسام الحية بما لم يكتشفه العلماء إلاحديثًا ؛ فإن فى ذلك الدليل على إعجاز علمى كبير .

الكفار ينكرون البعث ، وينكرون الذات الإنسانية ، ويظنون أن الإنسان هو ذلك الجسم الفانى . ﴿فسينغضون إليك رءوسهم﴾: يعنى يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد والاستهزاء ؛ ﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾ . وإذا قال الله ﴿عسى﴾ فهو واجب أى إنه قريب لاشك فى ذلك .

﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾: أى يوم يبعثون من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك .



٤ عجب الذنب

● أخرج الإمام مالك فى الموطأ عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عَجْبَ الذَّنَب . منه خلق وفيه يركب**»

● أخرج الإمام أحمد فى المسند عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال «**يأكل التراب كل شىء فى الإنسان إلا عجب ذنبه**» قيل مثل ما هو يا رسول الله؟ قال : «**مثل حبة خردل**» .

● أخرج الإمام أحمد فى المسند والبخارى فى صحيحه عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب فإنه منه خلق ومنه يركب**» .

● وأخرج الإمامان البخارى ومسلم رواية أخرى (فى كتاب التفسير) الحديث رقم (٤٨١٤) من طريق همام عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن فى الإنسان عظما لا تأكله الأرض أبدًا ، فيه يركب الخلق يوم القيامة . قالوا : أى عظم هو؟ قال : «عجب الذنب» . وفى حديث أبى سعيد عند الحاكم وأبى يعلى : (قيل يارسول الله ما عجب الذنب؟ قال : «**مثل حبة الخردل**» .

ومن حديث أبى سعيد الخدرى وابن أبى الدنيا وأبى داود والحاكم مرفوعا (إنه مثل حبة الخردل) ويروى ابن الجوزى أن ابن عقيل قال : لله فى هذا سر لايعلمه إلا هو ، لأن من يظهر الوجود من العدم ، لايحتاج إلى شىء يبنى عليه . **وقال الفراء والأخفش:** قوله (إلاعجب الذنب) أخذ بظاهره الجمهور فقالوا : لا يبلى عجب الذنب ولا يأكله التراب . . وخالفهم **المزنى** فقال : كل جسد ابن آدم يتحول إلى تراب و (إلا) هنا بمعنى الواو والمعنى (وعجب الذنب يبلى أيضا) .

قال رسول الله ﷺ : «**كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب فإنه منه خلق ومنه يركب**» أخرجه البخارى وأحمد عن أبى هريرة .

تحير المفسرون قديمًا فى تفسيرهم لهذا الحديث الشريف . . وأخطأ بعض العلماء فى فهمه أيضا فى عصر العلم الحالى . . ولما كان الحديث الشريف يتناول حقيقة علمية تتعلق بجسم الإنسان ، فإن الأطباء هم أهل الذكر فى هذا الموضوع . وبداية نقول إن خلايا جسم الإنسان بعد الموت تبلى وتتحول إلى تراب ينتهى إلى تراب الأرض . . ولا يبقى منها موجود لا يبلى إلا الذرات . . والأجسام تبنى وتُركب من الذرات . . والذرات لا تفنى ولا تبلى .

وبطريق الاستدلال العلمى والاستنباط ، نفهم أن أجسامنا قد تحولت إلى تراب الأرض ، وستركب يوم القيامة من الذرات أيضا . وعبر رسول الله ﷺ عن الذرة (بعجب الذنب) .

قال : «**ليس من ابن ادم شىء لا يبلى إلا عظم واحد هو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة**» وقال : «**كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب فإنه منه خلق ومنه يركب**»

وقال معظم المفسرين : إن عجب الذنب آخر عظم العصعص . وقالوا إن ذلك العظم هو الذى لا يبلى من جسم الإنسان بعد الموت . ومنه يركب خلق الجسم يوم القيامة . وهذا تفسير علمى بعيد عن الصواب ، وخاطئ علميًا . ونحن كأطباء نعلم يقينًا ما لا يعلمه غير المتخصصين ، من تركيب عظام الجسم وخلقها ، وما تصير إليه ، ويستحيل علينا أن نقتنع بأن عظم العصعص لا يبلى بعد الموت ، ولا يتحول إلى تراب ؛ لأن عظم العصعص وهى آخر فقرات العمود الفقرى مكونة من نفس الخلايا العظمية ، التى منها تتكون عظام الجسم جميعًا ، وتسمى فى علم التشريح وعلم الأنسجة «خلايا عظمية Osteocytes» وهى لا تختلف من عظم إلى عظم . وهى جميعا

فى كل عظام الجسم تنتهى إلى الفناء وتبلى ، ولا يبقى منها إلا ذراتها فهى لا تبلى . ونقرأ فى القرآن الكريم على لسان النبى زكريا يقول الله عز وجل : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ (مريم : ٤) ، الآية تشير إلى أن الجهاز العظمى فى الجسم جهاز واحد ، إذا ضعفت عظمة منه ، فإن الضعف يدب فى كل عظام الجسم الأخرى . وهذه حقيقة علمية اكتشفها الأطباء حديثًا ، مما يدل على إعجاز علمى عجيب .

وإذا حدث بعظمة هشاشة ، فلابد أن تكون باقى عظام الجسم كذلك . وعظام العصعص يجرى عليها ما يجرى على باقى عظام الجسم .

وكل عظمة فى الجسم لها عمر بيولوجى ، وما أن ينتهى حتى تتجدد خلايا العظمة بخلايا جديدة أخرى ، طبق الأصل من الخلايا التى ماتت وبليت ، وانتهت إلى تراب اختلط بتراب الأرض .

ولا يبقى بعد الموت أى أثر لعظام من الجسم ، لا عظام العصعص ولا غيرها ، فكلها تحولت إلى تراب . . وما يبقى منها يبلى ، إلا ذراتها فهى لا تبلى .

إذن التعبير اللغوى «عجب الذنب» لايعبر عن عظم من عظام الجسم ، ولابد أنه يشير إلى معنى آخر ، فلا يفسر على ظاهر اللفظ ، ولابد أن يفسر على المجاز أو الكناية . . وليس أمامنا من الناحية العلمية إلا أن نسلم أن «عجب الذنب» يعنى «الذرة» .

ولا أدرى من أين جاء المفسرون بتفسير عجب الذنب بآخر عظام العصعص . . ونحن نرى آثار قبور الآباء والأجداد بل وقبور القدامى الذين ماتوا فى عصور قديمة مضت . . لا نجد أثرًا من عظم لأجسادهم . . فقد تحولت أجسادهم إلى تراب الأرض . . لقد ركبت أجسادهم فى الدنيا من ذرات . . ومن المنطقى أن تركب أجسامهم يوم القيامة من ذرات أيضًا . ولابد أن يكون التعبير اللغوى فى الحديث النبوى على سبيل الكناية ومثال ذلك أيضا التعبير فى الحديث النبوى **بخضراء الدمن** الذى يعنى المرأة الحسناء فى المنبت السوء . قال رسول الله ﷺ : «**إياكم وخضراء الدمن**» قالوا : وما ذاك يارسول الله؟ قال : «**المرأة الحسناء فى المنبت السوء**» (أى مثل نضارة الكلأ الأخضر الذى ينبت من أرض منتنة) فالدمن : تراب مختلط بفضلات الحيوان فى حظيرة الماشية . وقال الشاعر العربى :

وقد ينبت المرعى من دمن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هيا

والذين قالوا : إن عجب الذنب هو آخر عظام العصعص أمرهم عجيب ؛ فلا هم اطلعوا على الأصل اللغوى لذلك التعبير ، ولا هم سألوا المتخصصين من الأطباء ، ولاهم قرءوا شرح الحديث الشريف فى صحيح البخارى .

فنقرأ فى القاموس المحيط أن **العجب** مؤخرة الشىء ، **والذنب له أكثر من معنى:** يعنى الذيل كما نقول : ذنب القط أو ذنب الحصان . وإذا قلنا ذنب الحصان ، فإنه يعنى ذيل الحصان ، كما يعنى نجمًا فى السماء يشبهه . وذنب الثعلب يعنى نباتًا يشبهه ، وذنب الخيل يعنى نباتًا بهذا الاسم . والذنب من الناس : أقلهم شأنًا ، وأذناب الناس أتباعهم وسفلتهم .

أما فى تفسير صحيح البخارى(*) فقد جاء فى حديث أبى سعيد والحاكم وأبى يعلى وأبى الدرداء : قيل يارسول الله وما عجب الذنب؟ قال : «**مثل حبة خردل**» . ولقد ذكرت حبة الخردل فى أحاديث نبوية تقارنها بالذرة كما قال رسول الله ﷺ : «**لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من خردل من كبر**» .

ونظير ذلك قوله ﷺ : «**لايدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء**» .

وإذا تدبرنا هذه الأحاديث النبوية ندرك أن عجب الذنب لايمكن أن يكون معناه آخر عظم العصعص كما تبادر إلى ذهن كثير من العلماء ، ولكن . معناه : الذرة . ومن قال بغير ذلك لايستند إلى أى دليل علمى صحيح .

(*) تفسير صحيح البخارى الجزء الثامن ص : ٥٥٢ .

٥ أعضاء الجسم تشهد على صاحبها يوم القيامة

أخرج الإمام مسلم عن أنس رضى الله عنه قال :

كنا عند رسول الله ﷺ فضحك . فقال : «أتدرون مم أضحك؟» . قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : «**من مخاطبة العبد ربه . يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم؟ . قال : فيقول الله عز وجل : بلى . فيقول العبد : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى . قال : فيقول الله عز وجل : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودًا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه انطقى فتنطق بأعماله . ثم يخلى بينه وبين الكلام . فيقول : بُعدًا لكُنَّ وسحقا . فعنكن كنت أناضل**» .

يقول الله عز وجل : ﴿ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (فصلت : ١٩ ، ٢٠) .

كيف يشعر الإنسان بمتع الدنيا؟ . . إنه يحسها عن طريق الحواس الخمس بالجسم ، وبدون الحواس لا يشعر الإنسان بمتع الدنيا قط . . وأهم الحواس السمع والبصر . والحواس سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة . . ولا يدهش الكفار لشهادة سمعهم وأبصارهم عليهم . . فهم يعلمون جيدًا كيف استخدموها فى ارتكاب المعاصى

ولكنهم يدهشون لشهادة جلودهم عليهم . . فما بال جلودهم تشهد عليهم هى الأخرى؟!

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (فصلت : ٢١) .

لم يدرك العلماء قديمًا المغزى العلمى فى ذلك ، أما فى عصر العلم الحالى فقد اكتشفوا أن الانسان يسعى إلى المعاصى برجليه ويرتكبها بيديه ، ولكنه لا يحس بها ، ولا تصل أىُّ لذة حسية إلى نفسه ، إلا عن طريق جلده والأغشية المخاطية نظيرة الجلد ، فى الفم والأنف والأعضاء التناسلية . وأعصابٌ استقبال مختلف الأحاسيس منتشرة فى الجلد ، وفى الأغشية نظيرة الجلد . . ففى الجلد مثلاً أجهزة استقبال لأحاسيس اللمس والضغط والدفء والبرودة والألم . . وتُرْسَلُ كلُّ تلك الأحاسيس إلى الدماغ عبر ألياف عصبية ، تستقبلها مراكز خاصة بالمخ تحس بها ، ومراكز أخرى تدرك معناها .

فعن طريق الحواس : السمع والبصر واللمس فى الجلد وغير ذلك من الحواس ، تمر كل متع الدنيا إلى النفس البشرية . . لأن الدماغ هو رافد النفس البشرية ، ويعمل بأوامرها ونواهيها ، ولا تعمل الحواس وأعضاء الجسم جميعا إلا بناء على أوامر من النفس البشرية ، عن طريق الدماغ .

ونأخذ السيارة مثلاً على ذلك . جسم الإنسان كمثل جسم السيارة ، ودماغ الإنسان كمثل موتور السيارة ، والنفس البشرية كمثل سائق السيارة .

لذلك إذا انحرفت السيارة واصطدمت بشىء ، أيحاسبون السيارة أو الموتور؟ أم يحاسبون السائق . إنهم يحاسبون السائق . وكذلك إذا أخطأ إنسان ، لا يحاسب جسمه ولا حواسه ، ولكن تحاسب النفس البشرية ، كما

قال الله تعالى : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ . وقال أيضا : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ .

نفهم إذن أنَّ كلَّ لذةٍ حسية وكلَّ مُتْعةٍ من متع الدنيا لا يحس بها الإنسان ويتمتع بها ، إلا عن طريق حواسه . . لذلك تشهد عليه يوم الحساب ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (فصلت : ٢٠) .

وفى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : **«أتدرون مم أضحك؟** قلنا : الله ورسوله أعلم قال : « **من مخاطبة العبد ربّه يقول: يارب ألم تجرنى من الظلم؟ قال: فيقول الله عز وجل: بلى. فيقول العبد: فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى. قال: فيقول الله عز وجل: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فيختم على فيه: يعنى يُقفل فمه. ويقال لأركانه: انطقى.. فتنطق بأعماله.. ثم يُخلّى بينه وبين الكلام فيقول: بعدا لكُنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل»** .

- وهذا الحديث النبوى الشريف تفسير لقول الله عز وجل :

﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (يس : ٦٥)

ولكن لماذا أنطق الأيدى والأرجل لتشهد على صاحبها ولم يُنْطِقِ اللسان مثلاً؟ . .

ذلك لأن إقرار غير الناطق ، أبلغ فى الحجة من إقرار الناطق . . وليزيد المذنبَ حسرةً ، حين يرى أعضاء جسمه التى كانت أعوانًا له فى الدنيا فى حق نفسه ، صارت عليه شهودًا يوم القيامة فى حق ربه . ﴿ **وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ . . نلاحظ انه أسند الكلام إلى الأيدى وأسند الشهادة إلى الأرجل . . فلماذا جعل ما كان باليد كلاما ، وجعل ما كان بالأرجل شهادة؟ . ذلك لأن الأيدى مباشرةٌ لأمره ، والأرجل ساعية لعمله .

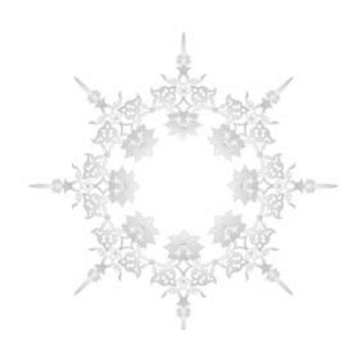
ولكن الألسنة تشهد هى الأخرى على صاحبها فى أحوال أخرى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (النور : ٢٤) فلماذا ذكرت الألسنةُ أولا فى مقام الشهادة على صاحبها قبل الأيدى والأرجل؟ لابد أن سبب نزول الآية أن إنسانًا استخدم لسانه فى معصية قبل استخدام أعضاء الجسم الأخرى . . نفهم ذلك من الآيات السابقة على هذه الآية فى السورة :

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (النور : ٢٣ ، ٢٤) .

نفهم مما سبق أن جلد الإنسان تمر من خلاله مُتَع الدنيا ، ولا تحس بها النفس البشرية إلا بواسطة الدماغ . . لذلك سيكون الحساب والعقاب للنفس البشرية وليس للجسم .

ولكن مادام الأمر كذلك ، فلماذا يُحرق الجلد فى النار يوم القيامة كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾ (النساء : ٥٦) .

نقول : الجلد نفسه لايحس ولا يشعر ولا يضيره شىء إن حُرِّق أو بُرِّد . . وحين نخدر الدماغ مثلاً نجرى للجسم أىَّ عمليةٍ جراحية ولا يحس الإنسان بشىءٍ . . فحين يحرق الجلد بالنار فى الآخرة ، فالنفس البشرية هى التى تشعر وتتألم وتتعذب ، وليس الجلد أو أى عضو آخر فى الجسم .



٦ اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ رضي الله عنه

روى البخارى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

● «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**» .

فمن هو سعدُ بن معاذ؟ . . كان سيدَ الأوس بالمدينة . . أعلن إسلامه قبل مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة وتشريفه لها . وفى موقعة أحد ظل يحارب بجانب رسول الله ﷺ يذودُ عنه بسيفه ويحميه بجسده . . وفى غزوة بدر كان سعدُ بن معاذ هو الذى قام وخاطب رسول الله ﷺ قائلاً : «**امض يارسول الله فنحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضْتَه لخضناه معك ، وما تخلف منا رجلٌ واحد**» . . لقد كان سعدٌ مجاهدًا عظيمًا .

وفى موقعة الخندق جُرِح جرحًا بليغًا ، وحُمل إلى مسجد الرسول للعلاج ، إلى أن لقى ربَّه شهيدًا وله من العمر سبعةٌ وثلاثون عامًا .

وحزن المسلمون حزناً شديدًا لموت سعد بن معاذ ، ولكنَّ عزاءهم كان عظيمًا عندما سمعوا رسول الله ﷺ يقول : «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**» . . ولكن ماهو الفهم العلمى لهذا الحديث الشريف؟ .

إن كوكب الأرض ، لايُعد إلا كوكبًا صغيرًا فى المجموعة الشمسية ، وإن المجموعة الشمسية لا تعد شيئًا مذكورًا فى المجرة ، وإن المجرة لاتعد شيئًا مذكورًا فى السماوات السبع ، وإن ملكوت السماوات السبع لايعد شيئًا مذكورًا فى ملكوت الكرسى ، وإن ملكوت الكرسىِ الهائل لايعد شيئا مذكورا بجانب العرش العظيم . . إذن فكوكب الأرض بالنسبة للعرش مثل حبة رمل بالنسبة لصحراء هائلة . . فكيف إذن يهتز العرش العظيم لموت إنسان استشهد على ظهر كوكب الأرض؟

ولا يتصوَّر أحدٌ أن يهتز العرشُ لذلك ، إلا إذا تصورنا أن حصاة صغيرة سقطت على المجرة فاهتزت المجرة!!

لذلك اختلف العلماء فى تفسير الحديث النبوى فقالت طائفة منهم : ينبغى أن يفسر المعنى على المجاز ، وأن العرش اهتز فرحا بمقدم روح سعد . ولا يدل الاهتزاز فرحًا إلا على الارتياح . وقال آخرون : لايوجد فى الحديث الشريف ما يدل على المجاز فيجب أن يفسر الحديث على ظاهر اللفظ ، وأن عرش الرحمن اهتز فعلاً لموت سعد بن معاذ . . وقال الحاكم : إن الأحاديث النبوية التى تقرر اهتزاز العرش لموت سعد مخرجةٌ من الصحيحين ، فلا معنى لإنكارها ولكن كيف يحدث هذا . . وكيف نتصور حدوثه؟ .

جاء عصر العلم الحالى وأعطانا الجواب . فالمعادلات الرياضية تقول : إن أىَّ شىء إذا نُسب للانهائية يساوى صفرًا .

واحد بالنسبة للانهائية = صفرًا .

ألف بالنسبة للانهائية = صفرًا .

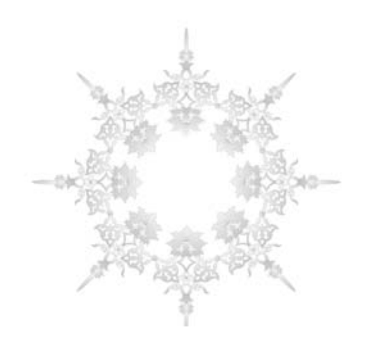
مليون بالنسبة للانهائية = صفرًا .

١٠٠٠ مليون بالنسبة للانهائية = صفرًا .

إذن أمام اللانهائية يتساوى الواحد والمليون والألف مليون ، كلها أصفارٌ متساوية ، والأمر نفسه بالنسبة للأرض والسماوات والكرسى والعرش . كلها أمام اللانهائية سواء . والله تعالى خلقها جميعًا فهى ليست أصفارًا ، ولكنها آحاد . فهى أمام العزة الإلهية آحاد متساوية . أمامنا نحن : هذا كبير ، وهذا صغير . الأرض أصغر من المجموعة الشمسية . وهذه أصغر من السماوات . والكرسى أكبر من السماوات . والعرش أكبر من كل شىء مخلوق . هذا فى نظرنا نحن ، أما بين يدى الله عز وجل فالكل سواء ، لا صغير ولا كبير . حبة الرمل كالجبل ، والجبل كالكوكب ، والكوكب كالمجرة . وذرة الهباء تتساوى مع ملكوت السماوات والأرض . والإنسان الواحد أمام العزة الإلهية يتساوى مع آلاف الملايين من البشر كما قال تعالى : ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ (المائدة : ٣٢) .

الكل سواء أمام العزة الإلهية . وهذا هو الفهم العلمى للحقيقة الكبرى (الله اكبر) فلا كبير إلا الله . من هذا ندرك التفسير العلمى لحديث رسول الله ﷺ : «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**» إنه اهتز فعلاً بين يدى الله عز وجل ، وصدق رسول الله ﷺ .

اختلف العلماء فى التفسير والتأويل ، وتحيروا فى فهم المعنى ، إلى أن جاء عصر الرياضيات الحديثة فأعطانا الجواب الصحيح .



المراجـــع

١ – القرآن العظيم .

٢ –صحيح البخارى .

٣ – صحيح مسلم .

٤ – مسند أحمد بن حنبل .

٥ – موطأ مالك .

٦ – سنن الترمذى .

٧ – سنن أبى داود .

٨ – سنن ابن ماجه .

٩ – تفسير القرطبى .

١٠ – تفسير الطبرى .

١١ – تفسير الرازى .

١٢ – تفسير الألوسى .

١٣ – تفسير ابن كثير .

١٤ – ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب .

١٥ – موسوعة المعارف الطبية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور/ أحمد شوقى إبراهيم .

١٦ – موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى . (الجزء الأول) للدكتور/ أحمد شوقى إبراهيم .

١٧ – تسبيح الكون للدكتور/ أحمد شوقى إبراهيم .

١٨ – علم الإنسان .

١٩ – الإسلام فى عصر العلم للدكتور/ محمد الغمراوى .

٢٠ – (أبى آدم) للدكتور/ عبد الصبور شاهين .

٢١ – (علم الأجنة فى ضوء القرآن والسنة) رابطة العالم الإسلامى . مكة المكرمة .

٢٢ – دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن . للدكتور . كريم حسانين .

٢٣ – الاستنساخ بحث الدكتور/ أحمد شوقى إبراهيم باليونسكو .

٢٤ – الرحم المستأجر الدكتور/ أحمد شوقى إبراهيم باليونسكو .

٢٥ – العلاج الجينى للدكتوره / إكرام عبد السلام .

محتويات الكتاب

أحدث إصدارات

الأستاذ الدكتور

أحمد شوقى إبراهيم أحمد

١ . موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى ـ الجزء الأول ـ « النبى ﷺ ».

٢ . موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى ـ الجزء الثانى ـ « خلق الإنسان » .

٣ . تسبيح الكون .

٤ - الإنسان وعالم الجن .



موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى



أ.د. أحمد شوقى إبراهيم
زميل كلية الأطباء الملكية بلندن
رئيس المجمع العلمى لبحوث القرآن والسنة ج.م.ع
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

ناقشنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة بعضًا من أوجه الإعجاز العلمى فيما يخص السنة النبوية المشرفة ، والتى برز خلالها بعض من معجزات النبى وعصمته إلى جانب قضايا المرأة وما أثبته العلم الحديث من إعجازات علمية فى هذه الأحاديث الشريفة .

وفى هذا الجزء يواصل المؤلف مناقشة وعرض عدد من الحقائق والإعجازات العلمية والتى تشمل بدء خلق الكون ، وكوكب الأرض ، وخلق الإنسان من البداية إلى النهاية .

هذا ولسوف يجد القارئ فى هذا الجزء الدليل على أن النبى محمدًا ﷺ كان موصولاً بالوحى دائمًا ، وأنه ما كان ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى من الله يوحى إليه ، كما أنه سيجد الدليل على أن الرسول ﷺ كما كان يوحى إليه فى المسائل الشرعية ، كان يوحى إليه أيضًا فى كل أمور الدنيا ، وذلك إما وحيًا صريحًا من الله تعالى له ، وإما إلهامًا نبويًّا خصه الله تعالى به دون سائر البشر .

فما من آية كونية ، أو حقيقة علمية إلا وسبق بيانها فى القرآن أو الحديث النبوى أو هما معًا من قبل أن يعلم الناس عنها شيئًا بقرون وقرون .

مما يؤكد أن الوحى الإلهى فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف سابق بالحق أبدًا وبغير حدود .

الناشـــر



